

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة منتوري قسنطينة

رقم الإيداع :

كلية الآداب و اللغات

رقم التسجيل :

قسم اللغة العربية وآدابها

الدعوة إلى العلم في الشعر الجزائري الحديث

1945-1920

دراسة موضوعاتية تحليلية فنية

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في أدب الحركة الوطنية

تحت إشراف الدكتور :

من إعداد الطالبة :

نوار بوحلاسة

آسيا شرطيوي

أعضاء لجنة المناقشة

- 1 - الأستاذ الدكتور محمد العيد تاورته - جامعة منتوري قسنطينة - رئيسا
- 2 - الدكتور نوار بوحلاسة - جامعة منتوري قسنطينة - مقررا ومشرفا
- 3 - الأستاذ الدكتور يحي الشيخ صالح - جامعة منتوري قسنطينة - عضوا مناقشا
- 4 - الدكتور رابح لطرش - المركز الجامعي بميلة - عضوا مناقشا

السنة الجامعية :

2009/2008

1430/1429

المقدمة:

يتناول البحث موضوع الدعوة إلى العلم في الشعر الجزائري الحديث في الفترة ما بين 1920-1945، فيطرح الظروف التاريخية والثقافية التي مهدت وهيات الأرضية الفكرية والأدبية لميلاد مثل هذه المواضيع التي تلتحم فيها القصيدة بقضايا المجتمع الراهنة ويعالج في الوقت ذاته السمات الفكرية والفنية التي طبعت هذا الشعر وميزته. وهذا الموضوع في الحقيقة هو من جملة المواضيع التي اقترحها الأستاذ الكريم العيد تاورته وكان موسوماً في الأصل بـ: (الدعوة إلى العلم في النص الأدبي الجزائري الحديث) لكن تضخم المادة الأدبية حال دون الإلمام بدراسته في الشقين الشعري والنثري لأن ذلك سيتطلب حجماً كبيراً جداً وسيجعل البحث يتشعب ويتفرع بحيث يصعب جداً الإلمام به وحصره، لذلك تم تعديله بموجب موافقة محضر المجلس العلمي إلى الآتي: (الدعوة إلى العلم في الشعر الجزائري الحديث 1920-1945، دراسة موضوعاتية تحليلية فنية) وذلك بالاكْتفاء بدراسته في الجانب الشعري فقط. أما الدافع إلى اختيار هذا الموضوع دون غيره من المواضيع المقترحة فقد كان:

أولاً: ارتباطه بموضوع العلم والتعليم، وما يكتسحه هذا الموضوع من أهمية و دور فعال في ترقية الفرد و في نهضة الشعوب والأمم في جميع الأزمنة والعصور. فإذا وضعنا في الحسبان تلك الثورة التعليمية التي شهدتها البلاد منذ العقد الثاني من القرن العشرين، والتي ولدت من مخاض مرارة الواقع الثقافي للبلاد، وترعرعت على يد جيل من المصلحين أمثال عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي والطيب العقبي وغيرهم وتعززت بدعوة الشعر وتحميسه ومؤازرته، وتتبعنا في الوقت نفسه نتائجها وصدائها على المدى البعيد، تجلت قيمة الموضوع وبرزت أهمية البحث فيه وتسلط الضوء على حيثياته.

ثانياً: يبدو أن الحاجة لاتزال ملحة على البحث في ميدان الشعر الجزائري الحديث واقتفاء امتداداته، للتعرف على أفكاره وأشكاله وأهدافه واتجاهاته... وبخاصة في هذه الفترة التي يعترف الدارسون بعذريتها وخصوبتها، بحيث لاتزال العديد من القصائد في حاجة إلى جمع وتدوين فما بالك بدراستها. وقد شكّل الحضور القوي لموضوع العلم في القصيدة الأصلحية بل وفي الحياة الفكرية والثقافية والسياسية على العموم باعثاً آخر على اختيار الموضوع؛ بحيث كان الهدف الذي

اجتمعت واتفقت عليه كل النخب الجزائرية آنذاك على اختلاف إيديولوجياتها و ممارساتها وخلفياتها الثقافية .و هو كذلك الموضوع الذي احتضنه الأدب بصدر رحب وألح عليه الشعر ، فكان علينا أن نكشف الأسباب والظروف التي جعلت موضوع العلم و لفترة طويلة يكون بؤرة اهتمام المثقف الجزائري والأشكال الفنية الشعرية وخصائصها التي تجسد فيها .

ومثلما كان الحضور القوي للموضوع باعنا على الدراسة ، شكّل أيضا أهم الصعوبات التي واجهتنا.فقد تناثر الموضوع في أغلب الشعر الإصلاحي ، واحتواه عدد هائل من القصائد ،وذلك دون أن تتفرد القصيدة الواحدة به دون غيره ؛حيث كان من سمات القصيدة الإصلاحية تعدد أفكارها ومواضيعها. وقد صعب ذلك من مهمتنا في جمع المادة وترتيبها وتصنيفها ؛حيث أن كثرة الجمع قد تؤدي إلى تضخم مادة زائدة خارجة عن الموضوع ،ومن جهة أخرى يؤدي عدم الجمع إلى التقصير أو إلى ترك مادة قد تكون مهمة .هذا وقد فقدت أغلب المادة التي قمت بجمعها في المراحل الأولى خلال ضياع حقيبة سفري في إحدى الحافلات ولم أعتز عليها إلى اليوم ،ما كلفني ضياع عدد لا بأس به من الكتب والمراجع التي كانت تحتويها وبطاقة الطالب ، وكذا ضياع الوقت والجهد في إعادة جمع المادة وترتيبها.ضف إلى ذلك عدم توفر المحيط والجو الملائم للبحث وكذا مواجهتنا للصعوبات التي قد تواجه أي باحث في ميدان الأدب الجزائري الحديث عموما والشعر على وجه الخصوص ؛حيث لاتزال العديد من القصائد متناثرة هنا وهناك في الدوريات المتناثر أعددها هنا وهناك أيضا ،وتظل الحاجة ماسة وملحة على جمعها وتبويبها وتصنيفها زمنيا وموضوعيا وفنيا في دواوين ومصنفات خاصة

ويعزى إلى الدارسين الرواد في ميدان الأدب والتاريخ الجزائري أمثال أبي القاسم سعد الله ومحمد ناصر وعبد الله الركيبي وتركي رابح وغيرهم ،السبق في دراسة موضوع العلم والتعليم وفي دراسة التاريخ الأدبي و الثقافي الجزائري عموما . وكانت دراساتهم على قدر كبير من الأهمية .لكنها وفي موضوع العلم والتعليم قد ركزت على جانبه التاريخي والإجتماعي والثقافي والإداري فقط ولم تتطرق إلى حضوره في الأدب أو علاقته بالشعر إلا نادرا؛ نجدها مثلا في كتاب عبد الله الركيبي (الشعر الديني الجزائري الحديث)في فصله الثالث ،أو في كتاب محمد ناصر (المقالة الصحفية الجزائرية)...رغم أن الشعر في هذه الفترة من تاريخ الحركة الوطنية قد كان

عنصرا فاعلا وفعّالا فيها، بما قدمه من مواضيع وما طرحه من أفكار .وسنحاول في هذا البحث تسليط الضوء عليه من هذا الجانب وإبراز خصائصه الفكرية والفنية والتاريخية ، في محاولة الكشف عن بعض المستور من تراثنا الأدبي والفكري ،والإسهام في التعريف ببعض الإنتاج الشعري وكشف تجليات ذوبانه وإلتحامه بروح الأمة الجزائرية في تلك المرحلة من تاريخها ،على المستوى الفكري والفني معا.

ومثلت الدواوين الشعرية التي احتوت القصائد التي نظمت في تلك الفترة مثل ديوان محمد العيد آل خليفة وديوان أحمد سحنون وديوان أبي اليقظان وديوان شعراء الجزائر في العصر الحاضر جزئيه، وأيضا بعض الدوريات كالشهاب والنجاح والبصائر المصدر الأساسي للبحث. أما مراجعه فقد تنوعت بين كتب في التاريخ الثقافي الحديث للجزائر مثل كتاب تاريخ الجزائر الثقافي لأبي القاسم سعد الله وكتاب التعليم القومي والشخصية الوطنية لتركي رابح وكتاب محمد علي دبور نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة بأجزائه...باللغة العربية،وباللغة الأجنبية L ALGERIE FRANCAISE VUE PAR UN IIDGENE DE CHERIF BEN HABLES ,HISTOIRE DE L ALGERIE CONTEMPORAINE DE CHARLES ROBERT AGERON ,LE REFORMISME MUSULMANE EN ALGERIE..... وبعض الدراسات التي تناولت الأدب الجزائري الحديث مثل كتاب الشعر الديني الجزائري الحديث لعبد الله الركيبي وكتاب الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية لمحمد ناصر و الشعر الجزائري لصالح خرفي ...

ويتحدد الإطار الزمني للبحث ب 1920 بداية، وب 1945 نهاية ،وهي الفتر التي يتفق معظم الدارسين على أنها فترة النهضة؛ فقبلها أي قبل العشرينات كانت فترة الإرهاصات ،وبعدها كان التحضير لشكل آخر من أشكال الرد والمقاومة أما ما بينهما فقد كانت الفترة للعمل الناضج الجاد والدؤوب على بعث الأمة الجزائرية وتثبيت أركان هويتها ومقوماتها الشخصية، و توعية المجتمع الجزائري ودفعه على إدراك أوضاعه والإسهام في تغييرها وتحسينها عن طريق التعليم و محاربة الجهل والامية وانعكاستهما على المجتمع .وقد ساندت كل الممارسات الثقافية هذا النهج وعززته وفي مقدمتها الشعر لذا كانت الفترة من أخصب الفترات لانتشار ورواج موضوع الدعوة إلى العلم في الشعر

ويبدو أن المنهج الأنسب لدراسة الموضوع من جميع هذه الزوايا: الفكرية والتاريخية والاجتماعية والفنية هو المنهج التكاملي؛ فهو الذي يفتح نافذة البحث الظروف التاريخ للمرحلة وملابساتها ويسمح لنا باستقراء النصوص لتحليلها ورصد ظاهرة التأثير والتأثر بين الشاعر والنص وبين الظروف التاريخية التي عايشها كما انه المنهج الذي على كشف انتماء الشاعر إلى بيئته الاجتماعية بسمااتها ومميزاتها ومدى ترجمته لقضاياها وهمومها ومشاكلها، وعلى رصد الوظيفة الاجتماعية التي أداها الشعر في تلك الفترة. وسيخول لنا هذا المنهج كذلك كشف أهم السمات الفنية والخصائص الشكلية التي ميزت النماذج الشعرية؛ أي أن المنهج التكاملي هو الذي يحقق وبامتياز تناسق هذا المزيج من المناهج التاريخي والاجتماعي والتحليلي والفني في قالب واحد، كل بمستواه وفضائه الخاص، وكل بتميزه وسماته الخاصة

ووفق هذا الترابط بين الشعر في موضوعه وشكله وهدفه وبين الظروف التاريخية والاجتماعية والثقافية، ينقسم هذا البحث إلى فصول وعناصر تتوزع على هذه المساحات التاريخية والثقافية والفكرية والفنية التي يترامى إليها البحث، وتتكامل فيما بينها وتترابط بصورة يفضي كل جزء فيها إلى الجزء الذي يليه، ويتعلق كل جزء فيها بالجزء الذي قبله فالفصل الأول كان مشهدا عاما للواقع الثقافي للجزائر في تلك الفترة، وبمناخ عرض للبيئة التي ندرس فيها موضوع البحث ولأهم ميزاتها. فيتضمن شرح سياسة التجهيل التي انتهجتها إدارة الإحتلال في حق المجتمع الجزائري، ووسائلها المادية والمعنوية وأهدافها وكذا المخطط التغريبي الذي أرادته الإدارة مشروعا يقوم على أنقاض هذه السياسة وتعوض به النقص الثقافي الذي أحدثته، ثم ردود الفعل الجزائرية إزاء كل هذه الممارسات

أما الفصل الثاني فيدرس النهضة الفكرية والأدبية في الجزائر؛ بأسبابها ودوافعها ومحاورها وأهدافها ومرآحتها، والتي هي بطبيعة الحال، تطور طبيعي لمسار الأحداث ونتيجة حتمية لتفاعل كل تلك المشاهد الثقافية. وقد ولدت النهضة أغراضا جديدة يخوض فيها الشعر، كان من أهمها الحديث عن العلم والدعوة إليه، لذا جاء الفصل الثالث لدراسة الموضوع من جانبه الفكري؛ كيف أن الشعر قد ارتبط ارتباطا وثيقا بالفكر الإصلاحي وكيف حدد هذا الارتباط تصور الشاعر

الجزائري لمفهوم العلم؛ بحيث انطلق فيه من منظور إصلاحي بحث ، وتعلق بالمبادئ التي انتهجها المصلحون في ممارستهم للتعليم. ثم ماهي الوسائل وحجج الإقناع التي استخدمها الشعراء لدفع جماهير المجتمع لتلبية دعوتهم.

أما الفصل الرابع فيضم الدراسة الفنية للنماذج الشعرية ، من جهة اللغة والأسلوب والبناء والموسيقى ، ويرصد السمات الفنية التي ميزت كل محطة من هذه المحطات ، سلبا أو إيجابا وقد اشتمل البحث على خاتمة تجلى فيها الدور الهام الذي لعبه الشعر في المجتمع الجزائري و في نهضته وتطوره حين طرح مثل هذه المواضيع الإصلاحية والنهضوية التي أخرجت بدورها الشعر من دائرة الركافة الفكرية والفنية التي كان يدور فيها. كما برز في هذه الخاتمة أيضا مدى انعكاس ظروف المرحلة بميزاتها التاريخية والاجتماعية والثقافية ... على النتاج الشعري في جميع مستوياته الفكرية والفنية والوظيفية. و نشير كذلك أننا مهدنا لهذه الفصول جميعا بتمهيد نعرض فيه أهمية العلم في حياة الإنسان و دوره في تقدم الأمم والشعوب ، وتحويله لمسارها التاريخي وضبط علاقاتها فيما بينها ؛ بحيث أن معظم التحولات والتطورات الحاصلة من استعمار وهيمنة ونهضة وتحرر... ما هي في الحقيقة غلا نتيجة للتقدم الإنساني في الميادين العلمية والتكنولوجية ولاستعمالات ثمار العلم سلبا أو إيجابا

وفي الأخير أقدم شكري الخالص وامتناني للدكتور نوار بوحلاسة المشرف على هذا البحث ، على كل ما أفادني به طول مسيرة بحثي من توجيهات وتعليمات ، و على معاملته الطيبة وصبره علي رغم بطئي وتماطلي أحيانا. كما أتقدم بخالص التقدير والشكر أيضا لمعهد اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب جامعة منتوري قسنطينة أساتذة وعمالا وكل من ساعدني من قريب أو منة بعيد في إنجاز هذا البحث

تمهيد:

هل نتحدث اليوم ، في أدبنا العربي عموما و الجزائري على وجه الخصوص عن دعوة الأديب إلى الأخذ بأسباب العلم و الإستمساك بعرى الثقافة ؟ و العالم تحت رحمة هذا الصخب من مدّ التهافت العلمي و جزر الزحم التكنولوجي ، أو هل المجتمع العربي اليوم لا يزال يحتاج إلى من يذكره بضرورة تعليم أبنائه و تثقيفهم ، و ما يمكن أن يحققه هذا العمل الجليل من فوائد تعود على الفرد و المجتمع معا ؟ أتفيده دعوة كهذه و هو يعيش في كل يوم مخاض توالد آفات جديدة؛ حيث تمثل تكنولوجية العصر أحد أسبابها الرئيسية؟ ، و هل طريق المعرفة لا تزال تحتاج إلى من يدعو إلى الإلتحاق بركبها ؟ و هي في زماننا تنتصب كصراط بين سويّ مستقيم من شاء فليؤمن و من شاء فليفكر ؟

لقد أصبحت قضية التعليم في عصرنا عصر المعلوماتية و الإلكترونيات من القضايا التي حسم فيها التاريخ ، فالتقدم المادي الفكري و الحضاري ، جعله حقا من حقوق الإنسان يمارسه بكل ثقة و حرية ، تضمنه له هيئات على المستوى المحلي و العالمي معا ، تعمل على تحسينه و تطوير سبله و مناهجه و مضامينه بما يتماشى و روح العصر و احتياجاته ، لذا خرج موضوع الدعوة إلى العلم عن دائرة اهتمام الأدباء ، لأن أدبية الأدب و روح جمالياته إنما تتأتى من التجديد في الفكرة و الشكل و الهدف . فتجاوز في مضمونه مثل هذه الأفكار التي حسم فيها التاريخ و تجاوز في هدفه أن يؤدي دور الرسالة التي يصلح بها مفاصد المجتمع و تضاء بها حوالكه و أصبح هدفه تحقيق الجمال و المتعة الفنية بمواضيع جديدة و عناصر فكرية و شكلية أكثر تجددا و حداثة و معاصرة .

هذا من جهة ، و من جهة أخرى كان لتسارع و تيرة التطور و ما حققته من إنجازات باهرة في جميع الميادين الفكرية و المادية و التقنية ... ، و ما نجم عنها كذلك من مشاكل و آفات جديدة الدور البارز في توجيه عناية المنقف و تركيز اهتمامه في مساندة هذا التطور بصفته منتجا و مسؤولا عنه أولا و مستهلكا و ناقدا له من جهة ثانية . فأصبح يعيش جراء هذا التطور ، و جراء البحث المتواصل في انعكاساته السلبية و الإيجابية ، حالا من القلق و التوتر الدائمين في السعي لتجاوز الراهن بسلبياته و استبداله بما يمكن أن يحقق أكبر قدر من اليسر و الرفاهية ، بل لبلوغ إلى أضمن وسيلة تمكن من الهيمنة أو تساعد على التحرر منها .

لذلك أصبح المثقف العربي عامة و الأديب على وجه الخصوص ، دائم التتبع لما يفد إليه من الغرب - مركز الإبداع التكنولوجي و الفكري - من تكنولوجيات حديثة ، و تقنيات مبتكرة ، ومواضيع فكرية ، و قوالب أدبية ، و مناهج نقدية ، بالتقليد أو الإستهلاك أو النقد . و بالتالي تجاوز النص الأدبي في موضوعه مثل هذه الدعوات الجامدة موضوعا ، الكلاسيكية زمانا والعقيمة هدفا و غاية ، والتي لم تعد ترقى إلى مستوى التقدم الفكري و الحضاري الذي انتهى إليه العالم اليوم .

فالأدب إذن يرتبط ارتباطا وثيقا بالتاريخ . إذ هما في الحياة عجلتان لعربة واحدة ، فلا تكاد تتقدم إحداهما دون أن تتدركها الأخرى بنفس الوتيرة و الرتم .

- فالأدب يصنع التاريخ ؛ إذ يعالج مواضيع تؤثر فيه و تحمله على تغيير مساره بما يحقق رقي المجتمعات و رفاهيتها .

- و التاريخ بدوره يوجه الأدب ، فهو الذي يفرض عليه أفكاره و أشكاله و أدواره في الحياة . هذه العلاقة التكاملية بين الأدب و التاريخ هي التي تفسر إلى حدّ ما رواج بعض المواضيع الأدبية و الأشكال الفنية في حقب من حقب التاريخ دون أخرى ، و بعضها يفقد الكثير من قيمه الفنية والفكرية ، إذا ما وضع في غير سياقه التاريخي الذي نشأ فيه ، و دراسته منفصلة عن هذا السياق كمن يبحث عن الأجنة في غير رحم أمهاتها!

فدعوة الأديب و الشاعر خصوصا إلى العلم ، و اهتمامه بضرورة تنوير العقل البشري بالمعارف و فتح أبواب المدارس و المعاهد أمام الناشئة يفرضه التاريخ حين يستهل المجتمع أول خطواته نحو البناء الحضاري من حيث أن العلم - أو التعليم - أحد العوامل الأساسية في بناء نهضة الشعوب و ضمان تقدمها المادي و الفكري و الحضاري معا ، و في تغيير أوضاعها إلى أوضاع أحسن لتحقيق ازدهارها في شتى الميادين .

بل إن العلم و التعليم ضرورة من ضرورات استمرارية الجنس البشري ، أوجدتها فيه طبيعة الإنسان المفكر . فابن خلدون يرى أن الإنسان ، الذي ميزه خالقه بفكر يهتدي به لتحصيل معاشه و تلبية حاجاته ، تدفعه طبيعته العقلية إلى البحث عما ليس بين يديه من مكونات هذا العالم ومن

تم نشأ العلم ،يقول:" ذلك أن الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والسكن وغير ذلك ، وإنما تميز عنها بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه...فهو مفكر في ذلك كله...ومن هذا الفكر تنشأ العلوم.." (1) و يرى أيضا أن نفس الطبيعة العقلية التي لدى الإنسان ، تجعله يتعمق فيما تلقاه من علم ، و يتمرن عليه حتى تتطبع هذه الحقيقة بفكره الخاص ، و تتولد لديه ملكة إلحاق العوارض بها ، و تصبح تلك الإضافات شيئا خاصا به تتشوق إلى معرفته أجيال أخرى تدفعهم إلى ذلك نفس الطبيعة العقلية التي دفعت الإنسان الأول إلى تعلم الحقيقة في أولى صورها ومن تم نشأ التعليم أيضا. يقول :ثم لأجل هذا الفكر وما جبل عليه الإنسان بل الحيوان من تحصيل ما تستدعيه الطباع ، فيكون الفكر راغبا في تحصيل ما ليس عنده من الإدراكات ،فيرجع إلى من سبقه بعلم أو زاد عليه بمعرفة...ثم إن فكره ونظره يتوجه إلى واحد واحد من الحقائق...ويتمرن عليه حتى يصير إلحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكة له... فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علما مخصوصا ،وتتشوف نفوس أهل الجيل الناشئ إلى تحصيل ذلك، فيفزعون إلى أهل معرفته ويجيء التعليم من هذا...." (2)

فالعلم و التعليم أمران طبيعيين في الجنس البشري ، و هما أيضا من العوامل الأكثر فاعلية في استمرارية وجوده ، فهما تشغيل للفكر الإنساني و حمله على إدراك الظواهر الكونية ، و فهم الضوابط التي تحكمها ، بهدف استغلالها بما يعود بالفائدة على الإنسانية. إنهما تحفيز للعقل الإنساني على ممارسة وظيفته البيولوجية ممارسة مقننة هادفة ، تحقق الخير ببلوغها اليقين وتتجنب الشر بكشفها خفاء المجاهيل من حيث أن الشرّ كامن في كل جهل ، و إذا تحققت المعرفة بالمجهول أمكن للإنسان اتقاء شروره (3) . وقد استطاع الإنسان بإبحاره في مختلف العلوم أن يتغلب على الكثير من الشرور الكامنة في مجاهيل هذا الكون ، و أن يخلق لنفسه حياة تتأقلم وتتكيف و تتطور بحسب تطور جنسه ، وبما يشبع رغباته كمًا و كيفًا ، و لو لم يكن الإنسان كائنا مفكرا و لو لم يفتح لنفسه أبواب المعرفة لما تمكن من الصمود ببنيته الضعيفة أمام مهالك الطبيعة و عنفوانها و لكان مصيره الإنقراض .

(1) ابن خلدون ،عبد الرحمن بن محمد : المقدمة ، ص : 769

(2) نفسه ،ص770.

(3) هاني يحي نصرى : الفكر و الوعي بين الجهل و الوهم و الجمال و الحرية ، ص : 139 .

هذا عن مزية المعرفة في علاقتها بالطبيعة البشرية و إثبات ذلك على مرّ العصور و الأزمنة ليس بالأمر العسير فإطلالة سريعة على الحضارات البشرية التي توجت التاريخ و التي لا يزال الإنسان يستفيد من مخلفاتها إلى عصرنا الحالي تثبت ما للعلم من دور في تغيير حياة الإنسان و مصير الأمم و الشعوب ، فهو الجوهر الذي خلد جميع تلك الحضارات من الحضارة اليونانية إلى الفينيقية إلى العربية الإسلامية ... و على العكس فإن الشعوب البدائية التي تميزت ببساطة تفكيرها و سطحية أهدافها تلاشت من الذاكرة و اضمحلت من التاريخ ، و غمرت تماما لتقاعسها عن خدمة العلم و الثقافة و الفكر .

فالفكر لدى أية أمة من الأمم عمادها ، و ذخرها ، و دافعها ، و محركها و مكانته في جسد الأمة كمكانة العقل في جسم الإنسان إذا ضعف ضعفت أركانها المادية الأخرى و هرمت وتلاشت أمّا إذا كان قويا منتجا ، انعكست قوته على جميع مقومات الأمة المادية و المعنوية ، ولعل ذلك ما ذهب إليه محمود الخالدي حين رأى أن الفكر هو " أعظم ثروة تنالها في حياتها إذا كانت الأمة ناشئة و أعظم هبة يتسلمها الجيل من سلفه إذا كانت الأمة عريقة في الفكر المستتير " (1) وهي الثروة التي يتأسس عليها كيان الأمة بحيث " إذا ما دمرت ثروة الأمة المادية فسرعان ما يمكن تجديدها مادامت الأمة محتفظة بثروتها الفكرية" (2) و العكس ليس صحيحا أبدا بحيث إذا ما " تداعت الثروة الفكرية و ظلت الأمة محتفظة بثروتها المادية فسرعان ما تتضاءل هذه الثروة وترتد الأمة إلى حالة الفقر " (3).

و قد لا نجد أكثر من كتاب الله حجة على إثبات مزية العلم و المعرفة ، و التفكير الإنساني المنتج على البشرية ، فهذا الدستور الرباني الذي استطاع أن يصنع من القبائل العربية المتناحرة حضارة راقية لا ينكر أحد أن جميع الحضارات التي تلتها نهلت من علومها و معارفها جاء ثورة على العلم و الجهل و الظلام ، فقد جاءت أولى آياته تدعوا الإنسانية إلى العلم: " اقرأ باسم ربك" (4) بل و جعل العلم فريضة على كل مسلم و مسلمة ، و دعا إلى التبصر و التفكير في خلق الله و في ملكوته ليزداد الإنسان قوة و تتورا و يقينا ، و خشية و خشوعا . و كم هي عديدة الآيات التي تدعو الإنسان إلى السير في الأرض للنظر و التفكير و التذكر : " أفلا ينظرون إلى الإبل

(1) محمود الخالدي : التفكير بداية الطريق إلى نهضة الأمة الإسلامية ، ص : 29 .

(2) نفسه ، ص : 30 .

(3) نفسه .

(4) سورة العلق ، الآية 1 .

كيف خلقت " (5) "إن في خلق السماوات و الأرض و اختلاف الليل و النهار لآيات لأولى الألباب" (6) الذين يذكرون الله قياما و قعودا و على جنوبهم و يتفكرون في خلق السماوات و الأرض " (1) . كما رفع منزلة العلماء و المثقفين و جعلهم أعلى مرتبة بين عامة الناس " يرفع الله الذين آمنوا و الذين أوتوا العلم درجات " (2) "قل هل يستو الذين يعلمون الذين لا يعلمون " (3) و تبلغ درجة تقدير العلم و أهله ذروتها في الآية الكريمة: " إنما يخشى الله من عباده العلماء " (4) و منذ أن اعتصمت الأمة العربية بهذا الدستور استمسكت مقود التقدم أصبحت العلوم علومها و المعارف معارفها و الحضارة حضارتها ، فكانت منارة تهتدي الشعوب و الأمم بأنوارها وسط تلك العصور المظلمة .

فتفوق الشعوب و الأمم إذن ما هو إلا نتاج لتقدمها في الميدان العلمي و التكنولوجي و الثقافي ، و كذا تخلفها ما هو إلا انعكاس لتأخرها في الميدان ذاته ، و ميزان التفوق و التخلف يوازيه على النطاق الإستراتيجي ميزان القوة و الضعف و ميزان الهيمنة و التبعية ، فالأمم المتفوقة علميا و القوية ماديا "تتولى قيادة العالم و زعامة الأمم و تستولي أفكارها على العقول " (5) فتحقق الغلبة و الهيمنة على الأمم الأقل منها قوة و التي " ... لا تجد مناصا من اتباع الغير و تقليده ... فيجرها تيار الأفكار القوية و المعتقدات الراسخة التي تتقدم الأمم الباحثة المجتهدة ، وهي تكون في وجهه كغشاء السيل لا تستطيع أن تدفعه أو تثب أمامه (6) فإذا اقتنعنا أن الهيمنة نوعان ؛ مادية تعتمد الحديد و النار ، و معنوية تعتمد الغزو الفكري " فإن الأمم المتخلفة عن الجهتين ، المادية و المعنوية ، كلما تهبط في دركات الضعف و الفتور ، تكون أصلح للعبودية و أكثر استعدادا للخنوع و تصبح الأمم القوية بالإعتبارين المادي و المعنوي حاكمة على عقولها و أجسامها" . (7)

فلما كانت الأمة العربية غزيرة في الفكر قوية في الثقافة قوية في المادة ، استطاعت أن تصل بفتوحاتها إلى مغارب الأرض و مشارفها ، و حين تخاذلت عن خدمة الفكر و الثقافة ، و دب دبب الضعف إليها ، تركت مكانها للأمم الغربية و التي أخذت تتوسع هي الأخرى في مغارب

(5) سورة الغاشية ، الآية 17 .

(6) سورة آل عمران ، الآية : 190 .

(1) سورة آل عمران الآية 191 .

(2) سورة المجادلة ، الآية 11 .

(3) سورة الزمر ، الآية 9 .

(4) سورة فاطر الآية : 68 .

(5) أبو الأعلى المودودي : نحن و الحضارة الغربية ، ص 10 .

(6) نفسه .

(7) نفسه . ص 08 .

الأرض و مشارقتها ، مع اختلاف في الطريقة والعقلية و الهدف. فكان من الطبيعي بل و من الحتمي أن يتطبق قانون الهيمنة و التبعية بين : " العالم المجدد و العالم المقلد ، بين العالم المنتج و العالم المستهلك ، بين العالم القوي و العالم الضعيف ، أي بين العالم الأوروبي و العالم العربي وأصبح هذا الأخير فريسة تكالبت عليها أعنف الضواري ، فتفتنتت في غرزمخالبها في جسده الهزيل المنهك ، وتواجدت في البلاد تحت عدة مسميات (انتداب حماية ، استعمار ...) و الهدف واحد، إنه الإستغلال و الإمتصاص لحد الإفناء لجميع ثروات العالم العربي المادية و المعنوية .

في ظل هذه الظروف وقعت الجزائر تحت رحمة استعمار فرنسي كان الأعنف و لأفطع والأطول عمرا في كامل البلاد العربية ، لأنه استهدف الأرض و الشعب و الثروات وكل مقومات الشخصية الجزائرية بالإستيلاء و الإستغلال و الإيابة و الطمس ... " لترويض " الجزائر وجعلها مصلحة فرنسية تتصرف فيها كيفما شاءت. وقد اتخذت التجهيل سياسة دعم لبلوغ أهدافها نظرا لما تحققه هذه السياسة من استراتيجيات تتمثل أساسا في التبعية الإرادية اللاواعية من المحكوم للحاكم و عدم رفضه و التمرد عليه.

وقد تنبتهت نخبة الأمة من مصلحين و أدباء و شعراء و علماء...إلى خطر الجهل على مجتمعهم، وكيف يمكن أن يكون عاملا من عوامل استمرارية الوجود الإستعماري بمساوئه وتبعاته، عارفين في الوقت ذاته قيمة العلم والتعليم ونشر الوعي في أوساط المجتمع، في تغيير الواقع ونهضة البلاد، لذلك أصروا وركزوا تركيزا شديدا بالقول والعمل معا، على ضرورة نشر العلم والإهتمام بقضية التعليم التي أعتبرت في تلك المرحلة من أولويات القضايا. وكان للشعراء في تلك الفترة نصيبا وافرا من المشاركة فيها قولا وعملا - دعوة وممارسة. بحيث تكاد لا تخلو قصيدة واحدة من شعر فترة النهضة على الدعوة إلى العلم وإلى محاربة الجهل بالتعليم، لتمكين المجتمع من إدراك أوضاعه ودفعه الى استيعاب مفاهيم الإصلاح والتطور وتبنيها لتغيير واقعه المرير.

لذا فذبوع موضوع الدعوة إلى العلم في الشعر الجزائري خاصة في الفترة ما بين 1920

- 1945 أي فترة النهضة كان لدوافع تاريخية وجهت اهتمام الشعراء إلى هذه القضية وأكدت

إصرارهم عليها، وكان لهذه الدعوة خصائص ومميزات موضوعية وفنية، نحاول في هذا البحث أن نكشف أهمية الشعر في التغيير والإصلاح، ودوره في تقويم المجتمع وتسديد خطاه ومدى مساهمة الأدب الجزائري عموماً والشعر بوجه خاص، للظروف التاريخية والثقافية والسياسية والفكرية التي مر بها المجتمع الجزائري. وأول خطوة ننطلق منها في بحثنا ستكون رسم الخطوط العريضة للميزات التاريخية والثقافية والفكرية التي كان لها التأثير المباشر على الظاهرة الأدبية شكلاً وهدفاً وموضوعاً، والتي تتمحور في الأساس حول السياسة الاستعمارية في الميدان الثقافي وآثارها وانعكاساتها على المجتمع الجزائري في المجالات الثقافية، الفكرية والأدبية.

الفصل الأول

المشهد الثقافي الجزائري ما بين 1920 - 1945

I - سياسة التجهيل في الجزائر

1- وسائلها :

- أ- الوسائل المادية
- ب- الوسائل المعنوية

II - المشروع التغريبي الفرنسي في الجزائر

1 - التصير

2- الفرنسية

3- موقف الجزائريين من سياسة الإستعمار الفرنسي

في الميدان الثقافي:

أ - موقف الجزائريين من سياسة الاحتلال اتجاه ثقافتهم الأصلية

ب- موقف الجزائريين من المدرسة الفرنسية

4- انعكاسات سياسة الاحتلال في الميدان الثقافي على الشعر

I- سياسة التجهيل في الجزائر :

لم يكن هدف التواجد الفرنسي في الجزائر مجرد حملة تآديبية للداي، أو تخليص الجزائر من دكتاتورية الأتراك على حد تعبيرهم ، بل و لم يكن احتلالا بالقوة يمكن أن يكتفي باستغلال ثروات البلاد المادية فقط دون المساس بما سوى ذلك من أركان . لقد كان عملية إلحاق ودمج للجزائر ومحاولة لجعلها جزء لا يتجزأ من فرنسا وامتدادا لها من وراء البحر كما عبر عن ذلك صراحة أحد الساسة الفرنسيين بقوله : " إن البحر المتوسط يقطع فرنسا كما يقطع نهر السين باريس " ⁽¹⁾، مع ما يتطلب هذا الهدف من السعي لتحطيم كل مقومات الشخصية الجزائرية التي تميز " الجزء عن الكل " و تثبت جزائر جزائرية تختلف بل تتضاد أحيانا في ثقافتها وحضارتها مع فرنسا ، فيتحقق الإمتداد على جميع الأصعدة: الجغرافية و الاقتصادية و السياسية و الحضارية.

ومن تم كان الإستعمار الفرنسي في الجزائر سلاحا متعدد الجوانب ؛ فمن جانب السيطرة العسكرية التي تعمل على الإخضاع الجبري للجماهير تحت النظام الإستعماري ، إلى جانب السيطرة الإدارية التي تعمل على تقنين و إحكام مشروعيته و تسييسه، ثم السيطرة الثقافية التي تعمل على استمالة العقول والأذهان للخضوع الإرادي لهذا النظام ، وتحقيق الإستعمار في جانبه الثقافي والحضاري كذلك . و قد اعتمد في هذا الأخير على سياسة تجهيلية تعمل على الحيلولة دون بلوغ الفرد الجزائري درجة من الوعي تجعله يدرك أوضاعه و يلتمس سبيله ، و دون معرفته لأركان هوية أمته و مقومات شخصيتها و التشبع بها ،مما يضعف عزيمته و يحط من معنوياته في الحفاظ على هذه المقومات أو الدفاع عنها، و يخلق لديه نوعا من التخامل و اللامبالاة اتجاهها فتسهل عملية ذوبانه في الآخر، و يصبح، مع إضعاف أركانه المادية الأخرى، أداة طيعة هشة لا هم لها سوى لقمة العيش التي كانت تتصرف فيها أيضا سلطات الاحتلال. وبذلك تتحقق السيطرة الكاملة و التامة على الجزائر ، أرضا و اقتصادا و شعبا و حضارة .

(1) فرحات عباس : ليل الاستعمار ، ص 40 .

1. وسائلها :

اعتمدت إدارة الإحتلال في سياستها التجهيلية و مخططاتها التغريبية ، عدة وسائل ، يمكن تصنيفها إلى وسائل مادية و أخرى معنوية .

1 - الوسائل المادية :

و هي الإجراءات التي مست قطاع التعليم و الميدان الثقافي عموما في جانبه المادي الملموس، و تبرز في مقدمتها

- مصادرة الأوقاف :

الأوقاف في أصلها ثروة مالية و عقارية هامة ⁽¹⁾ يحبسها أصحابها لتمويل المؤسسات الدينية والثقافية و الأعمال الخيرية، و من تم كانت المصدر الأساس لتمويل التعليم و المعلمين والمكتبات و المساجد و الحركة الدينية و الفكرية و العلمية على العموم ⁽²⁾ . و تعد مصادرتها أول خطوة تخطوها إدارة الإحتلال في مشروعها الإستعماري الخاص بالميدان الثقافي . فلما جاء الإحتلال كانت أولى قراراته مصادرة هذه الأموال و ضمها إلى أملاك الدولة الفرنسية المعروفة بالدومين (Domaine) ⁽³⁾؛ فمنذ الثامن من سبتمبر 1830 اتخذ بورمون قرارا يرمي إلى تنقيف أملاك أترك الجزائر المطرودين والأملاك المحبسة على لوازم إقامة شعائر الدين وتعليم القرآن الكريم. ⁽⁴⁾

وجاء استيلاء الإدارة على هذه الثروة بحجة تنظيم تمويل التعليم بالجزائر وإقامة هيئة دينية منظمة (C lergé) تهتم بالشؤون الدينية و الثقافية و تكون تابعة للإدارة. ⁽⁵⁾ إلا أن غرضها الحقيقي من وراء ذلك هو الإستغلال بالدرجة الأولى ؛ حيث يورد حمدان خوجة أن السبب الذي جعل الموظفين الفرنسيين يشيرون على الحكومة بالإستيلاء على الأوقاف والمؤسسات الخيرية هو الحصول على وسيلة يكسبون بها ثروة طائلة في أسرع وقت ممكن ، و ترغيب فرنسا في الإحتفاظ بالإيالة لنفسها عندما يظهرون لها أن المدخول معتبر . ⁽¹⁾ أما الهدف المشجع لذلك فهو

⁽¹⁾ ذكر عبد الجليل التميمي أن أوقاف الجامع الكبير فقط كانت تضم أكثر من مائة منزلا و أكثر من ثلاثين حانوتا و تسعة عشر بستانا و أكثر من مائة إيرادا من أجل كتابة تاريخ الجامع الأعظم بمدينة الجزائر ، مقال لعبد الجليل التميمي، المجلة التاريخية المغربية، عدد 19 - 20 أكتوبر 1980 ، ص 140 . و يذكر صالح خرفي أن الأوقاف كانت تمثل 66 % من مجموع الأملاك العقارية . صالح خرفي : الجزائر الأصالة و الثورية ، ص 171 .

⁽²⁾ أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج3 ، ص 19 .

⁽³⁾ نفسه .

⁽⁴⁾ أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، ص 75 وما بعدها .

⁽⁵⁾ OCTAVE depont et XAVIER Copolani les confreries religieuses musulmanes P xxI

⁽¹⁾ حمدان بن عثمان خوجة : المرأة . ص 275 .

تمويلها للعملية الدينية و الثقافية بحيث يحقق الإستيلاء عليها، تعطيل مسيرة التعليم و إضعاف الحركة الفكرية و الثقافية في الجزائر .

و بعد أن صادرت إدارة الإحتلال هذه الأموال لم توظفها بل ولم توظف و لو جزء بسيطاً منها في الغاية التي و ضعت لها في الأساس، فيذكر أحد المسؤولين في تقرير له عن حالة التعليم العمومي بالجزائر أنه رغم ضم أملاك الأوقاف إلى أملاك الدولة و إسناد عملية التعليم عموماً إلى الإدارة الفرنسية ، فإن الإدارة المالية لم تقم بدورها في تلبية حاجيات المؤسسات التعليمية و تجهيزها و صيانتها و ضمان المرتبات الحسنة للأساتذة بما يتماشى و المستوى المعيشي (2) فأدى ذلك إلى سوء حال هذه المؤسسات و حال المعلمين ، و أصبح هؤلاء يبحثون عن مصادر أخرى للإسترزاق ، تاركين مهنة التدريس التي لم تعد تُكسب حتى ما يكفي لسد الحاجيات الأساسية اليومية لهم ، فجفت مؤسسات التعليم و شغرت مقاعدها من الدارسين و المدرسين على حد السواء، و توقفت حركية التعليم و كبحت مسيرتها، و بهذا تكون إدارة الإحتلال قد حققت نجاحاً باهراً في سياستها التجهيلية بضربها لأهم دعامة يقوم عليها التعليم ، بل ضربها للعصب المحرك للعملية التعليمية و الثقافية عموماً في الجزائر ، باعتبار أن التمويل في أي عملية هو محركها الأساسي و قلبها النابض .

- هدم المنشآت الثقافية :

لم تتوقف عملية الهدم المادي للكيان الثقافي عند حد محاولة إفقار العملية التعليمية فحسب، بل طالت أيضاً المنشآت و الهياكل الثقافية من مدارس و مساجد و زوايا ... و التي كانت تنتشر في البلاد انتشاراً مذهلاً اندهش له حتى الفرنسيون أنفسهم غداة الإحتلال؛ فمدينة الجزائر وحدها كانت تحتوي سنة 1840 على أربعة وعشرين مسيداً (أي كتاباً) يدرس فيه أكثر من ستمائة تلميذاً لم يبق منها في شهر فبراير سنة 1846 سوى أربعة عشر مسيداً لا تضم سوى أربعمئة تلميذاً وذلك حسب تقرير المسؤول عن التعليم العمومي بالجزائر "ديشي" (3)

وكانت تعد مدينة قسنطينة أيضاً منبرا آخر من منابر العلم و الثقافة بالجزائر. ففي تقرير للجنرال بيدوا قائد فرقة قسنطينة العسكرية أن هذه المدينة كانت تحتوي على خمسة و ثلاثين

(2) عبد الحميد زوزو : نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث و المعاصر ، ص 209.
(3) نفسه، ص 205

مسجدا وتسعين مدرسة ابتدائية تضم حوالي الألف تلميذا ، لم يبق منهم بعد احتلالها سنة 1837 سوى ستين شابا يتابعون تعليمهم الثانوي، و انخفض عدد هذه المدارس إلى ثلاثين مدرسة لا تضم سوى خمسين و ثلاثمائة تلميذا .⁽¹⁾ كما لاقت جميع المدن التي تم الإستيلاء عليها كعنابة و بجاية وتلمسان و وهران و تيزي وزو... المصير ذاته حيث دمرت معظم مدارسها أو أغلقت أو حولت عن غرضها ، أو تم منحها لجهات أخرى لإستعمالها في مجالات أخرى ...

و من جهة ثانية عملت إدارة الإحتلال على عدم انتشار هذه المؤسسات مرة أخرى ، ففي عام 1864 كتب الجنرال " دوكروا" تقريرا وجهه إلى نابليون الثالث أسماه (تقرير حول الوسائل التي يجب استعمالها من أجل فرض السلام في الجزائر) من ضمن ما جاء فيه قوله:"... يجب أن نضع العراقيل أمام المدارس العربية ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ..."⁽²⁾ . و بالفعل أمطرت الإدارة البلاد بوابل من القرارات و المراسيم لمنع انتشار مؤسسات التعليم العربي ، كان من بينها قرار 1892 الذي منع على المدارس الإسلامية المتبقية استقبال التلاميذ في ساعات الدراسة اليومية للمدارس الفرنسية ، و وجوب تقديم طلبات رخص للإدارة الفرنسية من أجل فتح مدرسة عربية للأهالي أو التعليم فيها ، و كانت هذه الطلبات ترفض في عمومها أو لا يحصل أصحابها على الرد . كذلك قانون 8 مارس 1938 الذي نص على منع أي شخص أو منظمة إنشاء مدرسة أو التعليم فيها.... و بالجملة اعتبرت إدارة الإحتلال فتح مدرسة عربية بالجزائر إحدى أهم الوسائل خطورة على وجودها و استمراريتها عرشها بل وأخطر بكثير كما يقول الورتلاني [من فتح مصنع لإنتاج الأسلحة والذخائر استعدادا للحرب أو فتح محششة يدار فيها الأفيون و الكوكايين و بقية السموم الأخرى]⁽³⁾

(1) المرجع السابق نفسه، ص 209

(2) مصطفى الأشرف: الجزائر الأمة و المجتمع ، ص 129 .

(3) الفضيل الورتلاني : الجزائر الثائرة ، ص 90.

- الإستيلاء على الكتب و المخطوطات

تعرضت الكتب و المخطوطات و التراث العربي عموما للسلب و النهب و التدمير من طرف الإحتلال ،فقد كان ضباط جيش الإحتلال و رجال الدين المسيحيين الذين رافقوه في عمليات الغزو، ينهبون كل المكتبات الجزائرية التي يعثرون عليها سواء أكانت عامة أو خاصة ، ويرسلون بمحتوياتها إلى نويهم في فرنسا ،أو يقومون ببيعها لتجار الكتب و الأوربيين الذين يأخذونها بدورهم إلى أوروبا (1) ولعل ذلك ما يفسر وجود هذا الكم الهائل من الوثائق و المخطوطات و الكتب العربية العريقة و تراثها في المكتبات و مراكز الأرشيف بأوروبا . كما تم أيضا إتلاف جزء كبير من هذا الإرث خلال عمليات هدم وإحراق المؤسسات التعليمية و الثقافية، مثلما فعله جنود الدوق دومال بمكتبة الأمير عبد القادر بعد أسره عام 1847 (2) .و في هذا الصدد يورد حمدان بن عثمان خوجة أن جنود الجنرال كلوزيل قد قاموا بتدمير مراكز نسخ الكتب و بيعها المتواجدة بسوق في مدينة الجزائر كانت تسمى القيصرية، في حين كانت عملية النسخ هي الوسيلة الوحيدة التي تصنع بها الكتب في الجزائر، إذ لم تكن المطابع قد عرفت آنذاك. يقول: " لقد أمر السيد الجنرال كلوزيل بتهديم محلات تدعى القيصرية كانت تباع الكتب التي هي أدوات للحضارة ،والتي تنير طريق الإنسان... فهذا الجنرال بدلا من أن يعمل على تزويدنا بنور العلم كان ينوي إغراقنا في الظلمات والجهل" (3)

وقد تأسف حتى الفرنسيون أنفسهم لهذا العمل الإجرامي الشنيع في حق الثقافة الجزائرية،لأنه يعد بحق خسارة علمية فادحة ،تحول دون التأريخ الصحيح لتاريخ الجزائر . يقول في هذا الصدد مارسيل أغرينو " إن بعض المؤرخين الذين يضجون بالشكوى من قلة الوثائق التي تسهل لهم أبحاثهم يتمتعون عن التصريح بأن الغزاة الفرنسيين أتلّفوا عددا كبيرا منها و عددا كبيرا من الكتب و المراجع القديمة التي يمكن الإعتماد عليها في كتابة التاريخ الحقيقي لهذه البلاد ...". (4) هي ذات الشكوى تقريبا صدرت عن أحد الجزائريين السابقين في كتابة تاريخ الجزائر و هو أبو القاسم الحفناوي الذي يقول في تقديمه لمؤلفه - تعريف الخلف برجال السلف : " و لم أعثر على هذه الجملة من كتب التاريخ بعد البحث الطويل في مطانه ومحاولة مساجن المؤلف بكل حيلة و وسيلة

(1) تركي رايح : التعليم القومي و الشخصية الوطنية ، ص، ص : 94 ، 95 .

(2) عبد الكريم بوصفصاف : الفكر العربي الحديث و المعاصر محمد عبده و عبد الحميد بن باديس نموذجا ، ص 130 .

(3) حمدان بن عثمان خوجة : المرأة ، ص 277 .

(4) عبد الكريم بوصفصاف : الفكر العربي الحديث والمعاصر محمد عبده و عبد الحميد بن باديس نموذجا ، ص 130

لأن المستحويين عليها يفضلون بقاءها ذخيرة للأرضة على إفادة طالبها و استفادتهم منها ولايبالون بما وراء ذلك زاعمين أنهم بإعارتها فقدوا منها كتباً نفيسة المواضيع عزيزة الوجود " (1) ورغم أن المؤلف قد وجه أصابع الاتهام و اللوم إلى الجزائريين الذين يدّخرون المصادر الثقافية خشية عليها من الضياع ، إلا أنه لولا بطش الإحتلال و تنكيله لهذا الإرث ،لما اضطر الجزائري أن يخفي ما تبقى من كتب و مخطوطات ووثائق غيرة و خوفاً عليهما من الضياع و لو بأضعف الإيمان ، ولظلت هذه الكتب آمنة في رفوف المكاتب و خزائن المعاهد ، ينهل منها و يستفيد كل من أراد الإستفادة و الإستزادة .

وتهدف عملية ضرب هذا الإرث الهام إلى استغلال هذه الثروة بما يخدم المصالح الفرنسية الإستعمارية ؛ فمن جهة يريد الإستعمار هدم الشخصية الجزائرية باستهدافه لجميع وسائل تحققها و عوامل تكونها ، ومن جهة ثانية يريد أن يعزز سياسته التجهيلية عن طريق سد جميع منابع الثقافة التي يمكن أن تسلح الفرد و المجتمع لبناء كيانه بالإستفادة من التجارب و الخبرات السابقة ومن جهة ثالثة يريد معرفة حقائق الأمة الجزائرية و الإستطلاع على خصوصياتها من أجل التمكن من نقاط ضعفها وقوتها واستغلال ذلك بما يعزز الهيمنة والسيطرة، ونضيف كذلك أن سلب هذا الثرات و سرقة هي عملية استيلاء واسعة لثروة من أهم ثروات العالم العربي عموماً والجزائر على وجه الخصوص ، من أجل إشباع رغبة الغرب و طمعه في احتكار الحضارة بجميع مقوماتها المادية و المعنوية معاً.

- اضطهاد العلماء:

يشكل العلماء في أي أمة من الأمم عوامل أساسية في نشر الثقافة ، و الحفاظ على مقومات الشخصية ودعائم الهوية ، فهم الرابط الحيوي بين الجانب المادي و الجانب المعنوي للثقافة وحلقة الوصل بين المضمون الثقافي ووسائله ، لذا لم تستثن إدارة الإحتلال المعلمين و العلماء و الأئمة في مخطط الهدم الثقافي في الجزائر ، بل شنت و منذ السنوات الأولى للإحتلال حملة اعتقالات

(1) أبو القاسم الحفناوي : تعريف الخلف برجال السلف ،ص:6،5.

ونفي واسعة ضد كل من تشتم فيه رائحة الوعي أو الرغبة في خدمة الثقافة ومواجهة المسخ في الجزائر، كما فرضت عقوبات صارمة ضد كل من تسوّّل له نفسه حذو هؤلاء و اقتفاء سبيلهم ، فيذكر الفضيل الورتلاني أن معلمي اللغة العربية مثلا كانوا يساقون في السجون مثلهم مثل اللصوص و المجرمين ليحاكموا على صعيد واحد ، و بإمكان رحمة القضاة أن تتال بعض القتلة و اللصوص لكنها ما جربت يوما أن تتال معلم اللغة العربية (1)

و كان للحروب والثورات الشعبية يدٌ في إنقاص عدد المتقنين بالجزائر أيضا ، حيث انقرض في الفترة ما بين 1830 و 1851 جيل كامل من العلماء و الطلبة و الوكلاء أو تبددوا نتيجة تلك الحروب المتواصلة والمتواترة ،منهم من قتل ومنهم من هاجر كرها أو طواعية ، فمن بين الأفراد والعائلات الذين هاجروا هروبا بأنفسهم و بدينهم و ثقافتهم من بطش الاحتلال أو نفوا ،نذكر المفتي ابن العنابي و ابن الكبابي و حمدان بن عثمان خوجة و من العائلات ؛ عائلة الأمير عبد القادر و عائلة المشرفي وعائلة ابن المرابط ... (2) أما من بقي في البلاد فمعظمهم ترك الإنشغال بالثقافة وبمهنة التعليم على الخصوص ،وذلك لضعف مواردها وكثرة صعوباتها و محاصرة الإستعمار لها و تشدده مع القائمين بها .

و استمر اضطهاد العلماء و المدرسين و رجال الثقافة من طرف سلطات الإستعمار إلى غاية سنة 1962 ، فلا نكاد نجد مدرسا أو عالما أو أي شخص له صلة بخدمة ثقافة بلده ونهضتها إلا و ذاق مرارة النفي و ظلام السجن و ألم التعذيب وكذا القتل في أحيان كثيرة .

(1) الفضيل الورتلاني : الجزائر الثائرة ، ص 90 .
(2) أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 3 ، ص 58 .

أ2 - الوسائل المعنوية:

و تتمثل هذه الوسائل أساسا في الممارسات و المخططات التي اعتمدها سلطات الإحتلال في محاربة الأسس و العناصر المحورية التي تتشكل منها الثقافة الوطنية الجزائرية وهي العروبة و الإسلام و التاريخ .

- محاربة اللغة العربية :

عملت إدارة الإحتلال على تهميش اللغة العربية في الجزائر والحط من قيمتها و زحزحتها عن مكانتها في الألسن و الأذهان، لتترك المجال للغة الفرنسية تحل محلها ، فمذ قرار الإلحاق⁽¹⁾ الذي اعتبرت الجزائر بمقتضاه تابعة لفرنسا ، جُعلت العربية أجنبية في وطنها واستبعدت عن جميع الشؤون الإدارية ، ففقدت قيمتها وأصبح لا جدوى و لا فائدة من تعلمها لأن المتخرجين من التعليم العربي ، لا يستطيعون أن يجدوا مهنة تخولهم من الحق في كسب العيش ما يخولهم إلى ذلك التعليم الفرنسي ، ولو كان من يذهب إلى الكليات الإسلامية في مصر وتونس ومراكش.... يعود بالشهادات العليا من المعاهد الإسلامية .⁽²⁾

وكان أهم ميدان حوربت فيه اللغة العربية هو ميدان التعليم لأنه يعد العامل الأساس الذي يحقق نشرها وتطويرها والحفاظ عليها . ففي مراكز التعليم العربي وضعت الإدارة شروطا تجعل تعليم اللغة العربية لا يتعدى هدفه معرفة القراءة و الكتابة ، من دون التوغل في أسرارها والتعمق في مكوناتها لجلب الذهن و القلب عليها . أما في مراكز التعليم الحكومي فتكاد تكون اللغة العربية محرمة فيها⁽³⁾؛ ففي الطور الإبتدائي ، حيث تتم الخطوة الأولى في التطبيع الثقافي و تزرع أولى بذور الشخصية القومية والوطنية ، كان التعليم فرنسيا خالصا تكاد تكون العربية فيه معدومة الوجود⁽⁴⁾ ، و قد عدت في الأطوار الثانوية لغة اختيارية للطلبة رغم أن هذه المدارس اشتملت على الجزائريين والأوروبيين معا.⁽⁵⁾ أما في جامعة الجزائر التي أنشئت أواخر القرن التاسع عشر فحظ العربية لم يكن بأحسن ما كان عليه في الأطوار الأولى ، حيث كانت تقوم الدراسات

(1) جاء على إثر قرار اللجنة الإفريقية التي تأسست عام 1833 ، محمد العربي الزبيري : مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة و بوضربة ، ص، ص : 131 ، 132.

(2) الإنبيعات الإسلامي في الجزائر محل اتهام وهدف للسهام ، مقال لمحمود بوزوزو ، المنار ، عدد 15 الجمعة 22 ربيع الثاني 1372/9جانفي 1953 ، السنة 2 .

(3) تركي رابح : التعليم القومي و الشخصية الوطنية ، ص 129 و ما بعدها .

(4) نفسه

(5) نفسه ، ص 135 .

العربية و الإسلامية فيها على أساس نظرة إستشراقية تخدم في معظمها السياسة الإستعمارية واتجاهاتها إذ لم يكن فيها مثلا أقسام تدرس التاريخ الإسلامي أو الأدب العربي وفنون اللغة بجدية وموضوعية على غرار ما كانت تدرس هذه المواد في الجامعات الأخرى⁽¹⁾.

و قد استعدت سلطات الاحتلال اللغة العربية من التعليم بحجة أنها تعد لغة كلاسيكية ميتة لا تتلائم و التطور الحضاري الذي يشهده العالم ، شأنها في ذلك شأن اللغة الإغريقية و اللاتينية . فقد قسمتها إلى ثلاث مستويات يمكن إهمالها في التعليم جميعا، و الإستغناء عليها تماما و هي حسبهم :

* **عربية فصحي** " لغة القرآن" وهذه مثلها مثل اللغة اللاتينية و الإغريقية لغة ميتة لا فائدة من تعلمها .

* **عربية عامية** : يستعملها الشعب و هذه لا قيمة لها ، و بالتالي ليست مادة صالحة للتعليم في المدارس .

* **عربية حديثة** : و هي معروفة بصورة باهتة في الجزائر لأنها نتاج بعض المتعلمين و هي في الحقيقة لغة أجنبية و أداة للقومية العربية ، يجب إبعادها عن برامج التعليم . وقد تعززت هذه القرارات جميعها بقرار وزير الداخلية شوطان لسنة 1938، الذي اعتبر اللغة العربية أجنبية في الجزائر، و أي محاولة لنشرها و تعليمها بين الجزائريين محاولة عدائية ضد فرنسا سيعاقب عليها .

و في المحيط الإجتماعي - خارج إطار التعليم - استبدلت معظم الأسماء العربية للشوارع و المدن بأسماء لقادة الغزو العسكري و الفكري مثل بيجو و كلوزيل و لافيغري... ، و لأعلام الفكر والثقافة و الأدب الفرنسي مثل ديكارت و لامارتين ...⁽²⁾ . و في جميع هذه المجالات كانت محاربة اللغة العربية تهدف إلى بلوغ الغايات التالية :

(1) المرجع السابق نفسه ، ص 140 .
(2) العلاقة الجدلية بين الإستعمار الثقافي و الشخصية الجزائرية، مقال لأحمد بن نعمان ، الثقافة ، ع 49 ، صفر ربيع الأول 1399هـ / يناير - فبراير 1979 ، ص 118

أولاً : كونها وسيلة للتواصل بين أفراد المجتمع الجزائري ، فيكون المساس بها زعزعة كبيرة لتماسكه و إخلالا قويا لتوازنه .

ثانياً : كونها وعاء للثقافة فيصبح كسر هذا الوعاء خسران للمادة الثقافية التي يحتويها فاستهدفتها لتجهيل الشعب ثقافته .

ثالثاً : كونها الدعامة الأساسية لصرح الشخصية الجزائرية فيصبح ضرب هذه الدعامة خطوة هامة في طريق هدم هذا الصرح .

رابعاً : كونها لغة القرآن فمثلت محاربتها الخطوة الأولى لهدم ثاني أهم دعامة تتأسس عليها الشخصية الجزائرية و هي الإسلام .

- محاربة الإسلام :

أما محاربة الإستعمار الفرنسي للإسلام في الجزائر فتمثل صورة من صور الأحقاد الصليبية على الإسلام و المسلمين ، و شكلا من أشكال العداء القديم بين أوروبا و العالم الغربي عموما على العالم الإسلامي . وفي الجزائر كان القضاء على الإسلام إزالة لأهم حاجز يحول دون تغلغل الإستعمار بهيكلة الكامل في جسم الأمة الجزائرية ⁽¹⁾؛ فكونه العقيدة التي تنافي كل تعاليم "الحضارة" و "المدينة " التي أرادت فرنسا نشرها في الجزائر ، جعله ينافي الظلم و الظلام والإستغلال و الإستعباد ، بل جعله ينافي الإستعمار بأصله و شكله و عقيدته و طبيعته في البلاد . ويشكل الإسلام لدى الجزائريين، قوة روحية في قلب كل واحد منهم تدفعه إلى درء الإستغلال والإستعباد عن حياته و ممتلكاته، ودرء المسخ وطمس عن مقومات شخصيته. فالقضاء عليه إذن قضاء على هذه القوة التي تمنع المستعمر من تحقيق أهدافه ، وهي القوة التي كثيرا ما نعتت بالتعصب و الهمجية كما وصفها أحدهم في قوله : "إننا عندما نقدم لهم العقيدة الجديدة ، سنضع حدا لهذا الفيض الشنيع لطبائعهم و أخلاقهم ، و الذي يمتاز به هؤلاء الذين يسيرهم القرآن " ⁽²⁾

إن هذه الروح الصليبية وهذا العداء الشديد للإسلام والمسلمين لدى الغرب بصفة عامة والفرنسيين بصفة خاصة ، هو في الحقيقة ليس وليد الحروب الحديثة أو الحملات الصليبية ، بل قد تم تطبيعها في نفوس أبنائهم منذ الصغر ؛ فالطفل الفرنسي أول ما يتلقاه في دروس التاريخ في مقاعد الدراسة أن "شارل مارتيل" هو من خلص أوروبا من البربرية الإسلامية في "البواتيه" ⁽³⁾ ويقنعونه في المراحل اللاحقة من الدراسة بفكرة الإمبراطورية الفرنسية ، فينشأ الطفل وفي ذهنه صورة مشوهة عن الأسلام والمسلمين ، وفي نفسه ذلك الإمبراطور الصغير الذي يملؤه الفخر والكبر ⁽⁴⁾

فلا غرابة أن نجد مثلا كاتبا كلويس برتراند وهو الكاتب الأكثر مقروئية في عصره ، يفصح عن كرهه الشديد للإسلام والعروبة فيقول "قلندرها على الدوام لأنها الحقيقة بكل بساطة الشرقي وبخاصة المسلم عدونا... " ، "الشرقي عدونا ولن يكون إلا كذلك" ⁽⁵⁾ وفي الجزائر كانت كتاباته

⁽¹⁾ حركة التنصير في الجزائر عهد الاحتلال: مقال لعبد القادر حلوش مجلة الرؤية عدد 1 ، جانفي /فيفري 1996 ، س1 ، ص : من 118 إلى 129 .
⁽²⁾ نفسه .

⁽³⁾ HADROUG Mimouni : L Islam agresse , p 14

⁽⁴⁾ Ibid

⁽⁵⁾ Ibid p12

تعكس بشكل قوي برنامج أستاذه لافيغري في محاولة تنصير الجزائر وجعلها ".....أمة عظيمة كريمة مسيحية" (1) ولن يتحقق له ذلك إلا بإراقة دم الإسلام الذي يجري في عروق الجزائريين

و قد حورب الإسلام بأسلحة كان لها الأثر العميق في نفوس الجزائريين و في شؤونهم الدينية والاجتماعية، تبرز في مقدمتها عملية تدمير المساجد أو الإستيلاء عليها لتحويلها إلى كنائس، كما حدث بجامع كتشاوة بالعاصمة ومسجد صالح باي بقسنطينة و غيرها من المساجد . و قد ذكر أحد المؤرخين الفرنسيين ، أن المستعمرين قاموا بالإستيلاء على أحد مساجد القصبة بمدينة الجزائر وحوّلوه إلى كنيسة، وفي أثناء هذه العملية ، اجتثوا شجرة من أشجار التين كانت تظل هذا المسجد بكل غضب و حقد ، و صنعوا من خشبها علامتي صليب، لا لشيء سوى لأن هذه الشجرة، حين كانت تظلل المسجد ،حملت في عروقها الكثير من "الهمجية الإسلامية" حسب هذا المؤرخ (2) وتتأكد هنا وبكل وضوح ، ذروة الحقد الصليبي على الإسلام التي طالته حتى في الجمادات .

و كانت الإدارة الإستعمارية أيضا تقايض الجزائري في دينه ، فقد جعلت التخلي عن الإسلام شرطا أساسيا ليحصل الفرد الجزائري على الجنسية الفرنسية و بالتالي على حق المواطنة ليتمتع بكامل حقوقه في البلاد ، مثله في ذلك مثل أي مواطن فرنسي آخر ، أما إذا تمسك الجزائري بإسلامه فهو حينذاك أهلي "Indigène" أي رعية محرومة من جميع الحقوق و لا يقوم إلا بالواجبات . و غير بعيد عن الميدان القانوني ، أخضعت الإدارة شؤون القضاء الإسلامي تحت سيطرتها وحددت صلاحيته بين المسلمين إلى أضيق الحدود ؛ بحيث جعلته لا يهتم بسوى شؤون الأحوال الشخصية كالزواج و الطلاق ... أما بقية الأحكام فالمحاكم الفرنسية هي التي تنظر فيها (3)

(1) Ibid p13

(2) TOURNIER Jules : La conquete religieuse de l Algerie , p 112.

(3) أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 4، ص 427 و ما بعدها .

و تهدف هذه الإجراءات جميعا إلى إضعاف فاعلية الإسلام في المجتمع باعتباره دستور المسلمين الذي يسير حياتهم الشخصية وشؤونهم الإجتماعية و الإدارية ، و تجريده من مكانته في البلاد و سلطته على أهلها . وحتى القاضي الجزائري الذي يتولى شؤون القضاء الإسلامي كان تحت رحمة إدارة الإحتلال ، فهو خريج مدارسها الشرعية ⁽¹⁾ و الإدارة من تتولى تعيينه و إضافة إلى أنه لا يتلقى في هذه المدارس ما يؤهله لهذا المنصب ، فهي لا تبحث فيه عن العالم الكفاء بقدر ما يهتمها الشخص الطيِّع المنقاد الذي لا يهمله دين و لا ملة بقدر ما يهمله ملء الجيب وإرضاء الأسياد ⁽²⁾ و بنفس الطريقة كانت تعين رجال الدين الآخرين من أئمة و مدرسين في المساجد.... .

وكانت الهيئة الدينية عموما بمواردها و مؤسساتها و موظفيها تحت سيطرة إدارة الإحتلال وحتى لما تقرر مبدأ فصل الدين عن الدولة في فرنسا سنة 1905، و طبق في الجزائر سنة 1907 جرى تطبيقه على كل من الديانة المسيحية و اليهودية ، مستبعدين في ذلك شؤون الدين الإسلامي التي ظلت تابعة للإدارة الإستعمارية حتى سنة 1962، رغم إلحاح الجزائريين على فصلها عنها. ⁽³⁾

و في التعليم العربي الإسلامي الذي كان عماده الدين في جميع أطواره، عمل الإستعمار الفرنسي على تحطيم هذا العماد ، فحارب اللغة العربية و هي لغة القرآن : حيث يتطلب فهمه وتدبره تحكما بالغا في مفرداتها و معانيها ، و جعل تعليم القرآن يقتصر على تحفيظه دون التعرض إلى شرح و تفسير آياته، وبخاصة تلك الآيات التي تدعوا إلى التحرر و الجهاد ... ⁽⁴⁾ أما في مدارسها الشرعية التي يتخرج منها رجال القضاء الإسلامي و الإفتاء ... كانت برامج الدراسة الإسلامية فيها مسطرة و مدروسة حيث لا مجال فيها للتعمق في الفقه و أصوله ، و دراسة التفسير و الحديث و المذاهب الإسلامية بصورة جدية ⁽⁵⁾ وكل ذلك في سبيل جعل الإسلام في

(1) هي المدارس الشرعية الثلاث بقسنطينة و تلمسان و البليدة التي تأسست منذ سنة 1850 .

(2) أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 4، ص 348 .

(3) نفسه ، كذلك تركي رايح : التعليم القومي و الشخصية الوطنية ، ص 109 .

(4) بسام العسلي : عبد الحميد بن باديس و بناء قاعدة الثورة الجزائرية ، ص 50 .

(5) أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 4، ص 347 .

البلاد هيكلًا بلا روح ، و مبنى بلا معنى تقتصر ممارسته على إقامة بعض العبادات التي كانت إدارة الإحتلال تتصرف فيها أيضا ،* دون أدنى تفهم لحقيقة معانيه و غاياته ، تمهيدا لإقناع الجزائريين بضعفه و جموده ، و أنه على هذه الشاكلة لا جدوى من تعلمه و التمسك به .

- تشويه التاريخ :

يعد التاريخ أحد أهم دعائم الشخصية الجزائرية ومقومات هويتها ، بل هو العامل الأكثر تمييزا لأي أمة عن سائر الأمم التي يمكن أن تشترك معا في اللغة و العقيدة ؛ فهو خلاصة تفاعل إنتاجات المجتمع الواحد في الميادين الفكرية و الأدبية و الإجتماعية و الإقتصادية و السياسية ... و يرتبط التاريخ ارتباطا وثيقا بالجغرافيا تماما كارتباط العامل الزمني بالعامل المكاني بحيث لا يمكن بأي حال من الأحوال فصل أحدهما عن الآخر . وقد كان كل من التاريخ و الجغرافيا من المواد الإستراتيجية في التعليم ⁽¹⁾ والتي تزيد من وعي المجتمع بذاته و تؤصل فيه هويته وخصوصياته . لذلك وضعت إدارة الإحتلال في أولوية مخططاتها تشويه التاريخ و تزييف حقائقه و حرمان الفرد الجزائري من دراسته في معاهد التعليم ⁽²⁾ ،الحكومية منها و الحرة ،و ذلك بهدف تنشئة جيل مموه الهوية ،غير قادر على إعادة تركيب ذاكرة ماضيه لمعرفة حاضره وتحديد هويته ، فيكون بذلك تحت رحمة و إنقياد من يعرفه بنفسه، و يصبح مستقبه بين يدي هذا الذي يعرفه بنفسه، و حسب تخطيطه و غاياته .

فمن ناحية التشويه كانت أولى مزاعم مدرسة التاريخ الإستعماري ، إنكار وجود الدولة الجزائرية قبل سنة 1830. يقول جوليان : " إن إفريقيا الشمالية التي تشمل المغرب و الجزائر و تونس ليست لها حالة مدنية دقيقة " ⁽³⁾ كما يؤكد غوتيه من جهته أن أي دولة مغربية ليست قابلة للحياة فهي : " مثل الفقاع ينبت في ليلة و يتعفن في صبيحة " ⁽⁴⁾ ففي نظر هؤلاء المؤرخين و نظر مدرسة التاريخ الاستعمارية عموما أن فرنسا هي التي صنعت الدولة الجزائرية ، وما كان قبل تاريخ 1830 مجرد امتدادات قبلية و تجمعات عشائرية تسيرها بصورة بدائية الدولة العثمانية

* كانت الإدارة تتحكم في شؤون الحج و في فحوى و محتوى خطب العيدين والجمعة وفي إعلان مواقيت الإفطار و الأعياد ، أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص 348 وما بعدها .

(1) تركي رابح : التعليم القومي و الشخصية الوطنية ، ص 194 .

(2) نفسه : ص : 192 وما بعدها .

(3) مولود قاسم نايت بلقاسم : شخصية الجزائر الدولية و هيبته العالمية قبل سنة 1830 ، ص11

(4) نفسه .

ليس لها أي علاقة بنظام الدولة الحديثة. وقد كاد أن يذهب ضحية هذا التشويه بعض الجزائريين الذين نشأوا و ترعرعوا بين أحضان الثقافة الفرنسية لولا أن الحقيقة كالشمس لا بد لها أن تظهر ولو توالت أيام الدجن والغيوب ، فكان فرحات عباس وقبل أن تسطع في سمائه أنوار الحقيقة، يردد تعويذة إنكار الأمة الجزائرية فيقول : "الوطنية هي هذا الشعور الجميل الذي يدفع شابا ما إلى الحياة داخل حدوده الترابية ولو اكتشفت الأمة الجزائرية لكنت وطنيا وما احمر وجهي من ذلك كما احمر من جريمة ... " ، " ...على أنني لن أموت من أجل الوطن الجزائري لأن هذا الوطن لا وجود له ،فإنني لم أعر عليه وسألت التاريخ وسألت الأحياء والأموات و زرت المقابر فلم يحدثني عنه أحد ... " (1) . ذلك ما أرادت فرنسا صنعه بأبناء الجزائر ؛جيل لا يعرف من أمته غير الاسم وبعض القشور، مخدرا بأباطيلها، مفتخرا بزعامتها، داعما سيادتها متبركا بتبعيتها .

و في زعمهم أيضا أن سكان الجزائر الأصليين هم البربر ، و هم ينحدرون عرقيا من بلاد الغال (2) أي أن أصلهم أوروبي آري هاجروا أوروبا و استوطنوا شمال أفريقيا ، و أن العرب غزاة محتلون اغتصبوا الأرض الجزائرية واحتلوها بالقوة . و في هذا الصدد يقول لويس بيرتراند : "إننا نحن ورثة روما ، نطالب بحقوق لنا سابقة للإسلام و في مواجهة ذلك العربي الغاصب ، بل وذلك الأهلي الذي استعبده العربي و أعاد صياغته و نمثل أحفاد الهاربين النازحين و سادة الأرض الحقيقيين الذين نزلوا بأرض الغال ومعهم رفاة قديسهم ... " (3) نقرأ هذا الزعم أيضا في قول مؤرخ آخر من منظور ديني : " كان ذلك بعد مرور 15 سنة على وفاة محمد (صلى الله عليه و سلم) حين هبت عواصف الإسلام القادمة من مصر على الأقاليم الإفريقية (بيزنطة ، نوميديا ، موريطانيا) ، وكانت عنيفة و سريعة كرياح السيمون " (4) " ... فالمسيحون الذين لم يعتنقوا الإسلام ذبحوا ، وكنائسهم حولت إلى مساجد أو أحرقت.... " (5)

(1) جوليان ،شارل أندري :أفريقيا الشمالية تسير ،ص133

(2) تركي راجح : التعليم القومي و الشخصية الوطنية ، ص 193 .

(3) فرانكوفونية و السياسة الإستعمارية في الجزائر 1830-1962 صورة الجزائر في الأدب الجزائري الناطق بالفرنسية ، مقال لمحمد الصالح دميري الثقافة عدد . 101 ، 1988 .

(4) TOURNIER Jules : La conquete religieuse de l'Algerie , p 2

(5) Ibid ,p:5

والأمثلة على مثل هذه المزاعم كثيرة في الكتب التاريخية والدينية الفرنسية ، وليس المقام كاف لعرضها وتحليلها أو نقدها وتكذيبها ، لكن الملاحظ أنها عملت جميعا على تشويه تاريخ الفتح الإسلامي العربي للجزائر ، واعتبرت التاريخ الجزائري في ظل العروبة والإسلام لا يتعدى أن يكون احتلالا عربيا دام ثلاثة عشر قرنا ، ضاربين بذلك صفحا عن حضارة إسلامية راقية بعلمها وفنونها ومدنيتها. بل إن العديد من المؤرخين قد تجاهلوا تماما في دراساتهم التاريخية تاريخ الجزائر العربي الإسلامي وأهملوه ، وركزوا في المقابل على دراسته في كل من العهدين الروماني والفرنسي ، وفي هذا المقام نذكر أن ماكس فانتيجو MAX VINTEJOUX كان يشعر بالحرج مما لاحظته لدى بعض المؤرخين من تجاهلهم لتاريخ العرب ، ولم يكن يستسيغ كيف ان المؤرخ ينقل القارئ من تاريخ الإمبراطورية الرومانية إلى عهد "الكارولانجيين" ، دون أن يتعرض ولو بكلمة واحدة إلى تلك الحضارة العربية الرائعة والتي كان لها الأثر العميق في النهضة الأوروبية⁽¹⁾. و القصد من وراء ذلك هو بتر الإنتماء العربي للجزائريين وتكريس أكذوبة الأصول الأوروبية لهم ، بمحاولة إقناعهم أن الجزائر رومانية في ماضيها و فرنسية في حاضرها ، فيسهل دمج الجزائر بفرنسا على اعتبار وحدة الجنس التي يزعم أنها تجمع كلا من الجزائريين والفرنسيين معا.

وتندرج ضمن هذا الهدف سياستها الخاصة بمنطقة القبائل ، والتي أولتها عناية خاصة لقربها من العاصمة ، مركز التجمع الإستيطاني الفرنسي. فبعد احتلالها سنة 1858 عملت على عزلها عن البقية بإيهاهم سكانها أنهم من أصل غير عربي وأنهم أصحاب الأرض الحقيقيون ، وقد استعمرهم العرب وفرضوا عليهم إسلامهم ولغتهم... إلى غير ذلك مما يدعم الفوارق ويغذي النزعة البربرية ويوسع هوة الشقاق بينهم وبين بقية السكان .فإدارة الإحتلال كانت تراهن على أن منطقة القبائل ستكون أولى المناطق التي ستمت فرنستها وعزلها عن البقية ، مما سيساعد على تفكيك وحدة المجتمع ويسهل السيطرة عليه بدق إسفين الخلاف وتطبيق سياسة "فرق تسد"⁽²⁾

(1) أحمد طالب الإبراهيمي: من تصفية الإستعمار إلى الثورة الثقافية ، ص 18
(2) تركي رابح: التعليم القومي والشخصية الوطنية ، ص 189

ولأجل ذلك خصت الإدارة هذه المنطقة ببرنامج خاص ،كثفت فيه من نشاطاتها التبشيرية وحظرت على الفقهاء التنقل إليها و تعليم القرآن فيها . كما أكثرت من إقامة المدارس الفرنسية فيها ومنعت المتمدرسين من التكلم بغير اللهجة الأمازيغية أو اللغة الفرنسية .لكن هذا المخطط في الواقع لم يكتب له النجاح وبقيت نتائجه محدودة جدا إذا ما قورنت بحجم النشاطات المخصصة له.ولو نجح المشروع لوصلت الإدارة الإستعمارية مهمتها في بقية المناطق الأمازيغية الأخرى.

وأهم ميدان حورب فيه تاريخ الجزائر كان ميدان التعليم ؛ فقد كانت دراسة تاريخ الجزائر وجغرافيتها مستبعدة جدا سواء في المدارس الحكومية أو المدارس الحرة، حيث كان من شروط تقديم رخص التعليم لإنشاء المدارس الحرة وجوب استبعاد المادتين -التاريخ و الجغرافيا- من برامج الدراسة.⁽¹⁾ وفي المدارس الحكومية كانت مادة التاريخ تدرس خدمة للأسس و التوجهات الإستعمارية؛ بحيث كان التلميذ يتلقى فيها أن أجداده هم "الغولوا"، و إمبراطوريته العظيمة هي فرنسا.....⁽²⁾ . أما جغرافية البلاد فكانت تدرس ضمن جغرافية فرنسا ،على اعتبار أن الجزائر مقاطعة فرنسية تمتد من وراء البحر⁽³⁾ ، ولم يكن يدرس للتلاميذ تميز الجزائر الجغرافي والطبيعي والبشري الذي يميز الشخصية الجزائرية ويرسم حدودا للبلاد متميزة جدا عن فرنسا.

(1) المرجع السابق نفسه ص194 . كذلك بسام العسلي ، عيد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية ص 50.

(2) تركي راجح: التعليم القومي والشخصية الوطنية،ص 194

(3) نفسه

II- المشروع التغريبي الفرنسي في الجزائر:

فبعد محاولة إفراغ البلاد من محتواها الثقافي ومحو الشخصية الوطنية نهائيا، كان الإستعمار الفرنسي يعمل في الوقت ذاته على ملء هذا الفراغ وشحن هذا المحتوى بما يكرس النظام الإستعماري، ويبرر وجوده ويطيل عمره، ويؤكد التبعية والخضوع الدائم للإستعمار؛ وتلك هي سياسة التنصير والفرنسية؛ إذ على الجزائر " أن تكون فرنسية في كل شيء وأن تنسى ذاكرتها وجسور اتصالاتها بالماضي دفعة واحدة وإلى الأبد" (1)

1 - التنصير:

لم يكن التنصير في الحقيقة سوى امتدادا للأهداف الصليبية العربية، الرامية منذ القديم إلى تمسيح الشرق. لكنه في العصر الحديث ارتبط ارتباطا شديدا بالإستعمار واتخذ له أشكالا جديدة و طرقا عصرية غير تلك التي كانت معتمدة فيما مضى . وكانت الجزائر أول دولة مغربية تختلط فيها نعال المبشرين بأحذية المحتلين؛ فالنية في تمسيحها رافقت النية في احتلالها منذ البداية ذلك ما أكده خطاب العرش الذي ألقاه الملك شارل العاشر قبيل شهر فقط من احتلال الجزائر (2 مارس 1830) والذي من ضمن ما جاء فيه أن احتلال الجزائر ما هو إلا قربان يقدمه جنود الإحتلال تحت سلطته للكنيسة. يقول " إن العمل الذي سأقوم به لترضية شرف فرنسا سيكون بإعانة العلي القدير لفائدة المسيحية جمعا".

وبالفعل فقد سارت الكنيسة في مقدمة الزحف الإستعماري على الجزائر، حيث اشتمل أول إنزال لقوات الإحتلال بسيدي فرج على الجنود والضباط، وعلى الأساقفة والرهبان بزعامة الأسقف كومبري COMBRET (2). ثم بعد احتلال مدينة الجزائر، سارع دوبرمون قائد هذه الحملة إلى وضع علامة الصليب فوق أعلى بناية بمدينة الجزائر في السادس من جويلية 1830 وخاطب جنوده بعد انتصاره قائلا إنكم جدتكم عهد الصليبيين" (3) . وبهذه المناسبة أيضا أقيم احتفالا دينيا ضخما في الساحة الرئيسية للقصة، حضر الإحتفال ضباط الجيش و جنرالاته يتقدمهم بورمون. وقد روى أحد الفرنسيين المعاصرين لهذه الإحتفالات مشاعر الفرح بهذه الإنتصارات

(1) عبد الكريم بوصفصاف: الفكر العربي الحديث والمعاصر، محمد عبده وعبد الحميد بن باديس نموذجاً. ص 131

(2) TOURNIER Jules : La conquete religieuse de l'Algerie .p46

(3) مصطفى الأشرف: الجزائر الأمة والمجتمع، ص 51

قائلاً: "إن الإحتفال الضخم جرى في القصبه التي بناها أبناء محمد (صلى الله عليه وسلم) لمواجهة أبناء عيسى (عليه السلام)، وقد رتلوا فيها آيات الإنجيل بأصوات عالية أمام آيات القرآن التي أصبحت مية" (1). وفي الوقت ذاته احتضنت كنيسة "نوثر دام" "NOTRE DAME" بباريس احتفالاً دينياً بمناسبة احتلال مدينة الجزائر. حضر الإحتفال الملك شارل العاشر شخصياً، وتعالق فيه أيضاً الأصوات المؤدية لصلوات الشكر "TE DEUM" (2)

وبتظافر جهود كل من الجهتين الإدارية والدينية تأسست أول أسقفية بصفة رسمية بالجزائر سنة 1838 وكان الأسقف Dupuch أول أسقف يعين على رأسها (3). لكن مسيرته اتسمت بالتباطؤ نظراً للصعوبات التي واجهته والمتمثلة أساساً في الحركات الثورية التي انتفضت هنا وهناك، والتي كانت معارضة ومعادية لفكرة تنصير المسلمين. وبعد رحيله مثقلاً بديونه (4) خلفه عدد من الأساقفة والرهبان كان أشدهم كرهاً للإسلام وأكثرهم حماساً لفكرة الاستعمار الديني وتمسيح العالم الأسقف لافيغري الذي جاء سنة 1868 (5). فقد كان يقول عن الجزائريين أن "واجب فرنسا اتجاههم تعليمهم الإنجيل أو طردهم إلى أقاصي الصحراء بعيداً عن العالم المتحضر" (6)، فتكثفت النشاطات التبشيرية في عهده وازدادت قوة ونشاطاً، معتمدة أساليب جديدة غير تلك التي ظهر بها التبشير في الماضي؛ حيث تركت العنف والترهيب واعتمدت الإغراء والمراوغة في المجالات التالية:

* الأعمال الخيرية: وتتمثل في تقديم الخدمات الخيرية للجزائريين المحتاجين، كبناء الملاجئ ولأيتام وإنشاء القرى المسيحية والعناية بميدان الطب والتمريض، مقابل اعتناقهم الدين المسيحي.
* التعليم الديني: ويتمثل في إنشاء المدارس للأطفال، وورشات التعليم المهني للنساء خاصة؛ حيث يتم في هذه المراكز تلقينهم تعاليم الدين المسيحي ليتم نشر المسيحية عن طريقهم في المستقبل.

(1) أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، ص79 كذلك Tournier Jules : La conquete religieuse de l Algerie , p50

(2) Ibid

(3) Ibid , p :98

(4) Ibid , p 210

(5) Ibid , p 234

(6) GEORGES Goyau : le cardinale Lavigrierie un grand missionnaire :p89

وفي الحقيقة لم يكن التبشير في الجزائر من أجل التبشير في ذاته، أو لإستبدال دين بدين وعقيدة متعصبة خاطئة -على حد تعبيرهم- بعقيدة متحضرة صحيحة، فلو كان كذلك لما اجتمعت الإدارة والكنيسة على ذلك، وبخاصة وأن فرنسا دولة لائكية تعمل بمبدأ فصل الدين عن الدولة ، ولما أعطت الكنيسة حق الإسعمار للإدارة الفرنسية وهي تعلم أنه يقوم على مبدأ الإستغلال والإستبداد و الظلم في حق الشعوب المستضعفة، ولما اعتبرت هذا الحق منبثقا عن حقها في نشر المسيحية في العالم ،لأنه لا توجد أي تعاليم دينية ترضى بمثل هذا الظلم الممارس في الجزائر. بل ولو كان كذلك، لأمكن أن ينقلب الأمر على الغالب فينقاد بصورة تلقائية لعقيدة المغلوب، ولكان من المنطقي أن يتأثر المبشرون بتعاليم الدين الإسلامي السمح، لأنه دين كل الحضارات والعصور والأزمنة.

لكن الواقع يكشف أن هدف التبشير سياسي واستراتيجي بالدرجة الأولى، مفاده تحقيق الزعامة والسيطرة في الجانب الديني العقائدي؛ فحين يتخلى الجزائريون عن الإسلام ويعتقدون المسيحية، تصبح الجزائر تابعة بصفة دائمة إلى الكنيسة في أوروبا، والتي كانت تنزعها روحيا وإداريا فرنسا، فتتحقق السيطرة بسهولة و من دون ثورة أو مقاومة. إن الهدف هو تأسيس زعامة مسيحية على غرار الخلافة العثمانية التي تأبقت دول العالم العربي بإسم الإسلام ،أو على غرار الفاتحين العرب -المحتلين حسب نظرياتهم-أيضا. وفي هذا الصدد يقول أحد المؤرخين الفرنسيين أن العرب لم يجلبوا للجزائر الحضارة و الزراعة و التجارة، بل تركوا المعالم الرومانية والبيزنطية تتحول إلى أطلال.لكنهم فرضوا لغتهم ودينهم. فحتى الآن و بعد أربعة عشر قرنا من السيطرة الإسلامية ،نجد فرنسا تتربع على هذه الأرض و الإسلام باق لم يتزعزع .إن هذه -كما يقول -دروس من الماضي تعلمنا أن الأمم قد عرفت كيف تطبع لغتها وعقيدتها لتشمل كل ربوع الأرض⁽¹⁾. فالعرب حسب نظريات مفكرهم احتلوا المغرب بواسطة نشر اللغة العربية والدين الإسلامي، كما ستحتل فرنسا الجزائر بنشر اللغة الفرنسية والدين المسيحي. ولعل ذلك ما قصده لويس فيلو حين قال " إن الجزائريين لن ينتموا إلى فرنسا إلا إذا كانوا فرنسيين ولن يكونوا كذلك

(1) TOURNIER Jules : La conquete religieuse de l'Algerie , p , p 251 , 250

إلا إذا اعتنقوا الدين المسيحي" (1) فحسب لويس فيلو، تدوم السيطرة الدينية ويستمر الوجود الإستعماري حيث يتأكد تنصيب الصليب أكثر من السيطرة السياسية التي يرفرف فيها العلم الفرنسي فقط (2). فالتبشير إذن ليس سوى استراتيجية من استراتيجيات الإستعمار، ووسيلة من وسائل تحققه. بل أن التبشير و الإحتلال والسيطرة سواء في نظر الإستعمار الفرنسي والإختلاف فقط في طريقة التنفيذ واستراتيجية التطبيق.

وتطبيق هذه الإستراتيجية لن يتم بوجود ثقافة جزائرية عمادها اللغة العربية التي هي لغة القرآن، إذ لا بد من نشر ثقافة توازي في شكلها وهدفها العملية التبشيرية، وتخدم الإستعمار بوجهيه الديني والحضاري؛ وتلك كانت عملية الفرنسية.

2- الفرنسية:

و قد تعني الفرنسية، في أحد وجوهها، نشر الثقافة الفرنسية في الجزائر بلغتها وعلومها وحضارتها وفنونها، ولو كانت هذه هي الفرنسية التي أرادها الإستعمار الفرنسي في الجزائر وجب أن نقبل أيدي الفرنسيين كفا وظهرا، شكرا و عرفانا لهم على ما قدموه للجزائر، إذا نظرنا إلى مدى التقدم الحضاري و التفوق العلمي الذي بلغته فرنسا آنذاك، والذي يمكن أن يكون له تأثير كبير على التطور الحضاري للبلاد، وكانت صدقت في جانب كبير مقولة الفرنسيين في تبرير وجودهم بالجزائر، كونه نشر رسالة حضارية وتمدين بلاد تعاني التخلف. لكن الواقع أن مخطط الفرنسية في الجزائر لا يتعدى أن يكون "مزبلة" ثقافية، أرادت فرنسا صنعها لترمي بها كل قشور الحضارة وبقايا الثقافة والفن، وكل ما يجعل الجزائر تتعفن ثقافيا وحضاريا، فلا هي عربية أصيلة ولا هي فرنسية دخيلة. فالفرنسة كانت للسان، والأرض، والثروات، والخيرات، والإدارة والسياسة، لكن نشر ثقافة فرنسية أو جعل الجزائر دولة تضاهي فرنسا في الحضارة والرفي والتقدم والمدنية، فهذا ما لم يحدث أبدا في الجزائر طيلة الوجود الاستعماري وإلى الإستقلال. وأهم وسيلة لتحقيق الفرنسية هي نشر تعليم فرنسي من طريق :

(1) GEORGES Goyau : Le cardinal Lavignerie un grand missionnaire, p21

(2) Ibid, p 16

أ- المدرسة الفرنسية في الجزائر:

لقد أنشأت إدارة الإحتلال بعض المؤسسات التعليمية في الجزائر لكنها كانت ذات استراتيجية وأهداف خاصة.

*- استراتيجيتها:

ونقصد بها طريقة تعامل الإدارة الفرنسية مع التعليم الحكومي الذي أنشأته، وطريقة إشرافها وتسييرها له. وأول ما قامت عليه سياسة فرنسا التعليمية عموماً، هو إقصاء الجزائريين من التعليم وحرمانهم من جميع منابع الثقافة، الفرنسية منها والعربية⁽¹⁾. فبعد ضربها للتعليم العربي الأصلي لم تعوض ذلك بتعليم فرنسي يسد حاجيات المجتمع الجزائري من الناحية الفكرية والثقافية؛ حيث لم يقدّم في السنوات الأولى من الإحتلال تعليم فرنسي للجزائريين على أنقاض التعليم العربي الذي دمّرت. و تفسير هذه السياسة مرده إلى طبيعة الإستعمار في حدّ ذاته؛ فهو يقوم أساساً على مبدأ الإستغلال، و نعلم أن التعليم يفتح عيون الشعوب المستعمرة على هذا الإستغلال، و يؤدي إلى ثورتها عليه، لذلك كان من مصلحة المستعمر أن يبقى الممستعمر في حال من الجهل و الجمود و التخلف لكي يتفادى ثورته و يطيل سيطرته عليه⁽²⁾. ضف إلى ذلك موقف الكولون و معارضتهم الشديدة لقضية تعليم الجزائريين، و التي عززت من جهتها و دعمت تعنت الإدارة في هذا المجال فلقد اعتبروا الأهالي الجزائريين عناصر غير قابلة للتثقيف و التعليم و التربية⁽³⁾، و هم يريدون في الحقيقة ضمان اليد العاملة البخسة الصامته، و التي لم تكن تتوفر في ذلك الوقت في غير الجزائري الأمي.

ولم تهتم سلطات الإستعمار بقضية تعليم الجزائريين سوى بعد مرور عشرين سنة من الإحتلال و ذلك على إثر قرار اللجنة التي تكونت في الأربعينيات من القرن التاسع عشر لدراسة الوضع التعليمي بالجزائر، و التي خرجت بتوصيات كانت أهمها ضرورة إنشاء المدارس لتعليم الأهالي⁽⁴⁾. وكان الدافع وراء هذا الإهتمام هو احتياج الإدارة إلى خلق نخبة جزائرية تتبوء بعض الوظائف الإدارية و الدينية و تكون همزة وصل بين الأهالي والسلطة، وهي وظائف لا يمكن

(1) أبو قاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3، ص 334

(2) تركي رابح: التعليم القومي و الشخصية الوطنية، ص 142.

(3) شارل أندري جوليان: أفريقيا الشمالية تسير، ص 129.

(4) أبو قاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3، ص 334.

إسنادها لغير الجزائريين .⁽¹⁾ كما كان ما أسماه لوشاتولييه (Le Chateulier) بقوة الأشياء دافعا هاما أيضا لهذا الإهتمام ، حيث أدى تطور الأحداث -خاصة في العالم العربي و الإسلامي -إلى محاولة استمالة الجزائريين إلى المؤسسات التعليمية الحكومية لصرف نظرهم عن التعليم في الزوايا ، خوفا مما قد ينشأ من احتكاك بين أصحاب هذه الزوايا ، و بين ما يحدث في العالم العربي و الإسلامي من صحوة ثقافية و فكرية .⁽²⁾

لذلك أنشأت السلطات الاستعمارية بعض المؤسسات التعليمية الخاصة بالأهالي ذات الأطوار المختلفة - الإبتدائي و المتوسط و الثانوي - لكنها سارت في ذلك و إلى سنة 1962 بخطى متناقلة و بطيئة جدا . و لم يحصل طيلة التواجد الفرنسي بالجزائر تطورا كميا أو نوعيا في تعليم الأهالي ، و خاصة إذا نظرنا إلى عدد الأطفال الذين هم في سن التمدرس و لم يلتحقوا بعد بمقاعد الدراسة، و إلى نسبة الطلاب الجامعيين من الجزائريين و التي تكاد تكون منعدمة إذا ما قارناها بالطلاب الجامعيين الأوروبيين .⁽³⁾

لقد تعاملت الإدارة مع تعليم أبناء الأهالي و تعليم أبناء الأوربيين بعنصرية شديدة يطول بنا الحديث لو تعرضنا إلى جميع مظاهرها⁽⁴⁾ و تكفي الإشارة فقط أنهم لم يدرسوا بمدرسة واحدة، و لا بنظام واحد ، و لا بميزانية واحدة، و لا بمنهجية واحدة...و عن ذلك يقول الوزير الفرنسي مطران (Motran) ،الذي زار الجزائر رفقة وفد من كبار المسؤولين الفرنسيين سنة 1954 : " رأينا الجزائريين لا يشاركون في التعليم الإبتدائي إلا بنسبة عشرة في المائة فقط و ليس لهم في التعليم العالي سوى ثلاثمائة طالب، و رأينا الأبواب العلمية موصدة في وجه الجزائريين ، و خرجنا من ذلك كله بنتيجة عظيمة و هي إن كنا في فرنسا نجهل معنى العنصرية فإن العنصرية في الجزائر القانون الرسمي المعمول به " .⁽⁵⁾

(1) عبد القادر حلوش : سياسة فرنسا التعليمية ، ص 50 .

(2) أبو قاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3 ، ص 280

(3) نفسه

(4) تركي رابح : التعليم القومي و الشخصية الوطنية ، ص 142 وما بعدها .

(5) نفسه .

و كما حرص الإستعمار على حرمان جماهير الشعب من التعليم ،حرص على حرمانهم أيضا من مادته و مضمونه الثقافي حتى في ذلك النزر اليسير من المؤسسات التعليمية الحكومية. فهو يرى أن رفع المستوى الفكري لدى الشعب قد يؤدي إلى المطالبة بالتححرر السياسي ، حتى ولو كان ذلك عن طريق المدرسة الفرنسية (1) . لذا كانت برامج الدراسة في تلك المؤسسات تنحصر حول تقديم المبادئ الحسابية و قواعد اللغة الفرنسية وتاريخ فرنسا و جغرافيتها.... ذلك ما أكدته صراحة تصريح أحد القساوسة حين قال : " ليس الهدف من فتح المدارس الفرنسية في شمال أفريقيا هو أن نكون عقولا مثل عقل فولتير أو مونتسكيو أو جون جاك روسو ، إن الهدف ببساطة هو أن نبذل لغة بلغة ، و دينا بدين ... " (2) لنصل إلى الحديث عن الأهداف الحقيقية للتعليم الفرنسي .

* أهدافها :

كان الهدف الرئيسي من إنشاء المدرسة الفرنسية هو نشر اللسان الفرنسي لمحو اللسان العربي، و بلوغ كل الإستراتيجيات التي يمكن أن تحققها اللغة البديلة في مجتمع مستعمر . و قد ألحت أولى توصيات القادة العسكريين بباريس لجيوشهم الزاحفة على الجزائر على هذا الهدف في تمكين اللسان الفرنسي بالبلاد لأنه أقرب وسيلة لفرض السيطرة و أنجعها لتحقيق الإستعمار . يقول أحدهم : " علموا لغتنا و انشروها حتى تحكم الجزائر ، فإن حكمت لغتنا الجزائر فقد حكمناها حقيقة " . أما الأميرال دوقيدون فيقول في خطاب توجه به إلى الآباء البيض سنة 1871: "إنكم إذا سعيتم إلى استمالة الأهالي " بواسطة التعليم ...قد قدمتم خدمة جليلة للبلاد الفرنسية،فليس في وسع فرنسا أن تتجب من الأبناء ما يكفي كي تعمر بهم الجزائر، وصار من اللازم أن يستعاض عنهم بفرنسة مليونين من البرابرة الخضعين لسلطتنا" (3)

لقد قدمت المدرسة الفرنسية للجزائريين تعليما يكاد يكون فارغا من أي مضمون حضاري أو ثقافي، ولا يراعي في أي جانب من الجوانب خصوصية الفرد و المجتمع الجزائري و حاجاته الفكرية ، وكانت تهدف من وراء ذلك إلى خلق نخبة مزيفة مقطوعة عن الجماهير الشعبية؛ بحيث

(1) أحمد طالب الإبراهيمي : من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية ، ص : 17 .

(2) نفسه .

(3) من اللغة تبدأ الثورة :مقال لعثمان شبوب ،الأصالة ع18،17،شوال ذو القعدة،ذو الحجة محرم 1394،1393 / نوفمبر ديسمبر ،جانفي فيفري 1974،1973

يشعر أولئك المثقفون أنهم غرباء عن ذويهم ، فتنقطع صلاتهم بأبناء البلاد و يتكثرون للتقاليد،⁽¹⁾ و يؤدي ذلك انسلاخ المثقف عن مجتمعه و الإبتعاد عنه وعن قيمه الإجتماعية. و في الجهة المقابلة يفقد المجتمع ثقته بمثقفيه، أوقد ينقاد إليهم بصورة عمياء ، و في الحالتين يخلل توازن المجتمع و تنزعزع أركانه، بالنظر إلى العلاقة الوطيدة التي تربط المجتمع بالطبقة المثقفة وبالنظر أيضا إلى دور هذه الأخيرة و مكانتها في المجتمع . ما يؤدي في النهاية إلى تحقيق الإستعمار في جانبه الثقافي و الحضاري بصورة أشمل وأسهل و أسرع، لأن السيطرة على الطبقة المثقفة تسهل كثيرا الغزو الفكري، فهي من سيتولى نشر الأفكار الجديدة في أوساط المجتمع .

أما الهدف العام و الجوهري من سياسة الإحتلال في المجال الثقافي عموما ، و كذا تعامله مع الحضارتين أو الثقافتين العربية و الفرنسية في الجزائر ، فيتمثل في القضاء على المجتمع الجزائري قضاءً مبرما و تحويل الجزائر إلى قطعة فرنسية . فالإستعمار الفرنسي كان أشبه بعملية تهجين قصوى في حق الثقافة الجزائرية ، و ذلك بمحاولته خلق ثقافة هجينة ، تستمد حياتها من أنصاف لقاحات مريضة ، من لغة أصلية حاولوا تجريدها من مضمونها الفكري و الحضاري و لغة دخيلة سوقوها أصواتا بلا مضمون ، من عقيدة حية محاصرة في القلوب و أخرى يرفضها الكبير و تقحم في قلب الضعيف، من تاريخ تختنق حقائقه بحبال الأكاذيب ...

هذه هي الثقافة الجديدة التي سنتشأ في ظل الإحتلال و ستموت شيئا فشيئا في كنفه و تحت رعايته ، ثم تستخلف الأرض بجنس ثقافي آخر جديد، فرنسي الروح و المبدأ و الشكل، فتكبر إمبراطورية فرنسا بإقليمها الفرنسي الجديد، و تولد من داخل حدود الجزائر فرنسا جديدة تقف في روحها ضلال الدولة الأم ، و تستتبع في مستقبلها خطاها . أما كل ما هو جزائري بالأصل فسيكون مصيره كمصير الهنود الحمر بأمريكا ، يتخبط في صراع عنيف مرفوض بالمبدأ لأن تيارات هذا الصراع خارجية عنه وعن إرادته و رغبته و تكوينه الثقافي ، و مع ذلك فهو موجود بالضرورة وسطها ، مجبور على اختيار أحد اتجاهاتها و التي لن يكون مصيره فيها جميعا سوى البدد و الضياع أو الموت ، أو الذوبان في الآخر .

(1) نفسه، ص 37.

لكن الوقائع و الأحداث سارت عكس هذا التيار الجارف؛ فالثقافة الجزائرية مثلت طيلة وطأة الإحتلال مادة زئبقية استحال الإمساك بها من أجل طمسها أو تدميرها. و ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى ردود الفعل الجزائرية إزاء هذه السياسة و موقفهم منها .

3- موقف الجزائريين من سياسة الإستعمار الفرنسي في الميدان الثقافي :

تجسد موقف الجزائريين من سياسة الإستعمار في الميدان الثقافي في ناحيتين؛ الأولى موقفهم تجاه سياستها إزاء ثقافتهم الأصلية، والذي أظهروا فيه تمسكهم الشديد بهذه الثقافة و حرصهم على الحفاظ عليها من الطمس و الدمار .
و الثاني موقفهم إزاء سياسة الفرنسة و التنصير، و الذي تميز بالصمود و المواجهة و المقاومة .

أ- موقف الجزائريين من سياسة الإحتلال اتجاه ثقافتهم الأصلية :

إن المتأمل لمخططات الإستعمار في المجال الثقافي ، و قوته و تفوق حضارته و طول أمده و المتأمل في الوقت ذاته إلى النتائج التي حققتها هذه المخططات ، سيدرك أن هناك معركة روحية بين ثقافتين؛ ثقافة هدفها الإبادة و أخرى معركتها البقاء. وإذا كانت قوة الأولى تظهر فيما استخدمته من وسائل مادية و معنوية بالغة في التطور، فإن قوة الثانية ذاتية تنبع من الداخل و تتجسد في شدة تمسك الجزائريين بمقومات ثقافتهم ، ودعائم هويتهم ، بحيث اعتبروا ما دون هذه المقومات حيادا عن جادة الصواب ، و خروجا عن السليقة التي طبعوا عليها، و عن الأصل الذي نشأوا عليه فكان هذا التمسك " تحنيطا" لعناصر الثقافة و الشخصية الجزائرية و تحصينا لها .

أما مظاهر تمسك الجزائريين بثقافتهم فتتجسد في عدة ميادين و عدة ممارسات ، تتمحور جميعها حول عملهم على ترسيخ المبادئ الأساسية و الأصول العامة للثقافة العربية الإسلامية في صدور النشء ، و إصرارهم على ذلك و لو بأضعف الإيمان . وقد استطاعت بعض مراكز التعليم و مؤسساته التقليدية أن تسلم من بطش و تكيل الإحتلال لسبب أو لآخر لتحمي بين جدرانها بعضا من هذه الثقافة ما استطاعت إليها سبيلا ، و من المؤسسات التي كان لها الدور الفعال في حفظ الثقافة الجزائرية نذكر :

* الكتاتيب و المدارس القرآنية :

انتشرت المدارس والكتاتيب القرآنية في الجزائر بشكل مذهل قبل الإحتلال وتوغلت حتى في الأرياف والمداشر، إذ تذكر إحدى الإحصائيات التي نشرت عام 1851 ، أن عدد المدارس في الريف قد بلغ أكثر من ثمانمائة مدرسة يتردد عليها نحو العشرة آلاف تلميذ ، يتعلمون فيها القرآن و يحفظونه ويتعلمون القراءة و الكتابة⁽¹⁾. و في تقرير رسمي رفعه وزير الحرب إلى رئيس الجمهورية الفرنسي في السنة نفسها (1851)، يذكر أنه لا وجود لتعليم فرنسي في الأرياف و أن الأطفال لا يتعلمون سوى القرآن على يد الطلبة الذين يدفع لهم الآباء مبلغا من المال لقاء ذلك ، وأن هذا التعليم كان يتم داخل خيام فقط .⁽²⁾ وبالرغم من بساطة وسائل هذا التعليم وصعوبتها وقساوة الظروف التي يتم فيها، فقد كان له الفضل العظيم في المحافظة على القرآن وضمن كثرة حفظته أثناء الإحتلال وفي المحافظة على اللغة العربية أيضا

* التعليم المسجدي :

ونذكر هنا أن الإستعمار قد دمر جزء كبيرا من هذه المؤسسات ، وجزء كبير منها حوله عن وظيفته و غرضه ، ولم يبقى منها سوى عددا قليلا ، سيطر على أغلبه بالإستيلاء على ممتلكاتها و عائداتها، وتدجين موظفيها، و فرض الرقابة الشديدة على و وظائفها ونشاطاتها. ولكن بقيت وظيفة التعليم ملصقة بالمساجد حتى بعد الإستيلاء عليها ؛ ففي الأربعينيات من القرن التاسع عشر سمحت سلطات الإحتلال بمواصلة إلقاء الدروس في المساجد و لكن في حدود ضيقة جدا⁽³⁾. ولم يكن هذا القرار بطبيعة الحال حبا في الجزائريين أو رغبة في نشر التعليم العربي الإسلامي، لكن ذلك كان راجع إلى تخوف السلطات من الفراغ الكبير في الدراسات الإسلامية و في الوظائف التي يشغلها المتخرجون من هذه الدراسات ، وما ينجر عن هذا الفراغ من نتائج سلبية تعرقل مسيرة الإستعمار في البلاد. فيذكر أحدهم في إحدى التقارير الفرنسية الواردة عن حال التعليم العمومي بالجزائر قائلا : « و النتيجة أننا لا نقدر في زمن معين العثور على رجال أكفاء يتولون مناصب الإفتاء و القضاء ، و يتمكنون من

(1) أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج3 ، ص 46 .

(2) نفسه

(3) حوالي 1843 سمحوا لثلاثة فقط من الطلبة بإعطاء دروس في المساجد الثلاث بمدينة الجزائر ، و جرت تعيينات مشابهة ف قسنطينة أيضا ، أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 3 ، ص 59 نقلا عن السجل (طابلو) سنة 1844 - 1845 ، ص 80.

اكتساب النفوذ بعلمهم ، هذا العلم الذي كم هو ضروري لسياستنا...»⁽¹⁾ وبالتالي فقد التعليم في المساجد تحت إشراف إدارة الإحتلال الكثير من علومه ودروسه ، و التي أصبحت لاتخرج عن الفقه و قواعد الدين للعامة و ليس للراغبين في العلم .⁽²⁾

وأهم دور للمساجد في هذا الميدان كان بمنقطة مزاب ، فالتقدم العسكري في الجنوب كان أكثر ببطء مما كان عليه في الشمال [و المزاب لم يقبل بالحوار مع السلطة الإستعمارية إلا في سنة 1857. و قد اعترف الحاكم العام - راندون- بالحكم الذاتي للمزابيين لقاء دفع جزية سنوية ولم يتم ضم المقاطعة إلا بعد عشرين سنة في الثلاثين من تشرين الثاني (نوفمبر) 1892]⁽³⁾ فبقيت مساجدها طيلة هذه الفترة بعيدة عن بطش الإحتلال و تكيله . و كانت غنية جدا ، بالمقارنة مع غيرها في أنحاء الوطن، في برنامجها التعليمي الذي كان محور التعليم الثانوي وأساسه بالمنطقة ، فقد اشتمل-من جهة العلوم الدينية -على الدراسات في الفقه و أصوله و التفسير والحديث و الفرائض... و على العلوم العقلية كالنحو والبلاغة والعروض والمنطق والحساب...⁽⁴⁾ و كان التلاميذ يواظبون على الدروس في المساجد التي كانت مجانية لهم ، فساهم بذلك مساهمة فعالة في الحفاظ على الثقافة الجزائرية و النهوض بها ، بحيث مثلت منطقة مزاب بؤرة من بؤر إنطلاقة النهضة الفكرية و الدينية في الجزائر خلال العشرينيات من القرن الماضي.

* التعليم في الزوايا :

كانت هذه المراكز منتشرة في معظم نواحي الوطن، في المدن والأرياف والصحراء مثلها مثل بقية المؤسسات الدينية والتعليمية الأخرى، لكنها اكتسبت شهرة خاصة نظرا لإرتباطها بحركة المرابطين وتصوفهم في حياتهم ، و بأضرحتهم بعد مماتهم ، و بالجهاد في سبيل الله... و ارتبطت كذلك بالتربية و التعليم و " بإنشاء شباب صالح مثقف عامل شجاع يضحي بنفسه في سبيل الدين وفي سبيل أمته الإسلامية"⁽⁵⁾ . و تساوي الزوايا في أعمالها و مهامها دور الجمعيات الخيرية اليوم⁽⁶⁾ لإهتمامها لما هو خير للعامة وصلاح للأمة ؛ فكانت تهتم بكفالة اليتامى و إيواء المساكين

(1) عبد الحميد زوزو : نصوص وثائق في تاريخ الجزائر المعاصر (1830- 1900) ، ص 20 .

(2) أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 3 ، ص 59 .

(3) عبد القادر جغلول : الإستعمار و الصراعات الثقافية في الجزائر ، ص 11 .

(4) أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 3 ، ص 62 .

(5) محمد علي ديبوز : نهضة الجزائر و ثورتها المباركة ، ج 1 ، ص 39 .

(6) نفسه ، ص 39 وما بعدها .

حسن والضيافة للمسافرين و ابن السبيل ، وكانت تكفل التلاميذ وطلاب العلم وتكفيهم كل المؤمن حتى يبلغوا غايتهم في العلم (1) .

و أثناء الإحتلال تطورت الزوايا إلى نوعين ، يكاد يقتصر النوع الأول على ممارسة البدع والشعوذة و إقامة(الزردات والحضرة)، واستغلال جهل الناس لإبتزاز أموالهم أما النوع الثاني فيقوم إلى جانب نشاطه التعبدى الدينى بخدمة العلم و نشره بين العامة و الخاصة ، فكان هذا الصنف من الزوايا بمثابة مدارس ثانوية، يتم فيها التلاميذ المتخرجون من الكتاتيب والمدارس القرآنية تعليمهم الثانوي. على أن هذا العلم لا يخرج في شكله و جوهره عن الإطار الدينى .(2)

ولم يكن الإستعمار ليرضى بوجود مثل هذه المعالم الثقافية، لكن سياسته نحوها اتسمت بنوع من المرونة، فتميزت بالمدّ تارة و بالجزر تارة أخرى ، ففي المرحلة الأولى أين كان هدف الإستعمار هو الإخضاع بالحديد والنار و بالتدمير الكامل للبنى الثقافية و الإجتماعية ، تعرض عدد كبير منها- بخاصة زوايا المدن- إلى الهدم و التدمير و التحويل عن الغرض... ، أما في المراحل التالية، فقد عملت الإدارة على استمالة و استدراج شيوخها بالإغراء التوظيف و الزواج المختلط (3) لكي تكسبهم في صفها و تربحهم كقوة موالية لها في البلاد . و ذلك ما قام به فعلا الحاكم العام جول كامبون في سياسته الجديدة نحو الزوايا ، أثناء ولوجه منطقة الصحراء .(4)

وخلال ذلك بقيت بعض الزوايا المنتشرة هنا و هناك ، وبخاصة في الأرياف و في منطقة زواوة و الجنوب ، تواصل أداء مهمة التعليم بما أتيح لها من وسائل ورغم قساوة الظروف المحيطة بها؛ فكانت تحفظ طلبتها القرآن، و تفسره، و تدرس كل ما يستلزمه من علوم شرعية وتاريخية و لغوية.... وبغض النظر عن المستوى الفكرى الذى كانت عليه دروس هذه الزوايا فقد أفادت إفادة عظيمة حيث مثلت حصنا منيعا للثقافة الإسلامية ، ومنهلا غنيا للغة العربية ، و يرى

(1) المرجع السابق نفسه.

(2) أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافى ، ج3 ، ص 171.

(3) نفسه ، ص 172 .

(4) Octave de pont et Xavier Copolani : Les confreries religieuses musulmans , p VVIV .

أحمد توفيق المدني أن لها مزية تاريخية لا ينكرها حتى المكابر ، فلولاها و لولا جهود رجالها لما كنا نجد الساعة أثرا للعروبة و لا لعلوم الدين .⁽¹⁾

كما مثلت هذه المراكز من جهة أخرى مدخرا أمداً المدارس الحرّة في الجزائر ، و زود المعاهد و الجامعات العربية و الإسلامية ، المغربية منها و المشرقية بخيرة طلابها، فكانت أرضاً خصبة احتضنت أولى بذور النهضة ، و رحما ترعرع فيه صناعاتها، و يكفي القول أن الأمير عبد القادر و الشيخ الحداد و الشيخ بوعمامة و الشيخ مبارك الميلي و الشيخ العربي التبسي ...⁽²⁾ كانوا جميعهم - و غيرهم كثير- خريجي هذه المراكز، لندرك حقيقة الدور الذي قدمته لخدمة العروبة و الإسلام خاصة في بدايات الإحتلال . و من بين هذه الزوايا الصالحة ، نذكر زاوية الهامل، و زاوية علي بن عمر ، و زاوية سيدي خالد و زاوية أولاد جلال.....⁽³⁾

* التعليم في البيوت :

حين أصرت إدارة الإحتلال على تدمير التعليم الأصلي ، حمل الآباء على عاتقهم مسؤولية تعليم أبنائهم القرآن و تحفيظه لهم ، و تعليمهم ما تيسر من مبادئ اللغة العربية . و كان لذلك دور كبير في تثبيت عناصر الشخصية الجزائرية في نفوس الناشئة ، لأن هذه النمط من التعليم هو التعليم أولي لم تستطع إدارة الإحتلال أبداً أن تصل إليه ، فكم من المثقفين الجزائريين يذكر أنه تلقى أولى مبادئ تعليمه ، وهي في الأساس اللغة العربية و القرآن الكريم ، على يد والده ثم يواصل مسيرته بعد ذلك في المساجد و الزوايا أو المدارس الحرة أو المدارس الحكومية، أن تيسر له ذلك .

(1) أحمد توفيق المدني : كتاب الجزائر ، ص 375

(2) محمد نسيب : زوايا العلم و القرآن بالجزائر ، ص ، ص : 33 ، 34 .

(3) نفسه .

ب- موقف الجزائريين من المدرسة الفرنسية :

قاطع الجزائريون المدرسة الفرنسية في أول الأمر ، و امتنعوا من الذهاب إليها والدراسة في مقاعدها، بل ونظروا إليها نظرة العداوة و الخوف لدرجة أن الآباء الأغنياء كانوا يقدمون الرّشوة لكي لا يسجل أبناءهم بالتعليم الحكومي. أما الفقراء فكانوا يقيمون المآتم في أول السنة الدراسية إذا هجمت الشرطة على ديارهم و جروا أبناءهم إلى المدارس الحكومية (1) ويورد شارل روبير أجرون أن الأرقام المثيرة للسخرية لإحصائيات التعليم الفرنسي تفسر أولا و قبل كل شيء برفض الأهالي لهذا التعليم (2). بينما يفسر ابن حبيلس ذلك بقوله أن المجتمع الجزائري في بداية الإحتلال لم يكن باستطاعته الإستجابة لنداء الإدارة إلى التعليم بسبب مشاعره العدائية نحوها (3).

لكن مقاطعة الجزائريين للتعليم الفرنسي كانت في الواقع بسبب إدراكهم أن غرض الإستعمار منه هو هدم الدين وصبغ الأبناء بالصبغة الفرنسية، و تمكين نفوذ الإستعمار في الجزائر بنشر لغته، وإعداد الجزائريين بما يعرفونه من اللغة ليكونوا جنده و خدما له ... (4) فالمقاطعة إذا لم تكن للمدرسة الفرنسية أوللتعليم في ذاته بقدر ما هي مقاطعة بل مقاومة للفرنسة و التنصير ؛ ففي نظرهم أن السلطة التي استطاعت أن تنصّر المسجد بجعله كنيسة لا يعجزها أن تنصر الأطفال الذين يأتون إلى مدارسها ، و السلطة التي هدمت المدارس القرآنية و الزوايا ... لن تتوانى في هدم الدين و اللغة في قلوب و ألسنة الأطفال (5).

ولم يزل هذا التخوف من التعليم الفرنسي عن قلوب الجزائريين إلا بعد إحساسهم بالحاجة الملحة إلى التعليم و لو كان ذلك عن طريق المدرسة الفرنسية، مادامت هي المتوفرة في هذا المجال . يذكر ابن حبيلس أن الأهالي وبعد ثلاثين سنة من المقاطعة ، بدأوا يظهرن نوعا من الإستجابة و قبول التعليم الفرنسي، و أن التخوف من الدروس الفرنسية بدأ يزول شيئا فشيئا تاركا مكانه لمشاعر أقل عدائية بل لمشاعر أكثر ودا و احتراما (6). و هي استجابة في الحقيقة تبقى في حدود معينة ولم تتسع لتشمل كافة أبناء المجتمع ، نظرا لعدم جدية هذا التعليم و عدم موضوعيته

(1) محمد علي ديبوز : نهضة الجزائر الحديثة و ثورتها المباركة ، ج 2 ، ص 5.

(2) AGERON Charles Robert : Histoire de l'algérie comlemporaine , T2 , p 153.

(3) Cherif Ben Hbiles : L'Algérie Française vue par un undigène , P23.

(4) محمد علي ديبوز : نهضة الجزائر الحديثة و ثورتها المباركة ، ج 2 ، ص 5 .

(5) أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 3 ، ص 322.

(6) Cherif Benhabiles : L'Algérie Française vue par un indigène , p 26

و استغلاله لأغراض استعمارية بحتة. ومن جهة أخرى كان انتشار المدارس العربية الحرة بعد العشرينيات من القرن الماضي و تطورها شكلا وروحا و هدفا، دافعا قويا إلى توجه أبناء المجتمع إلى مقاعدها و في إلتفافهم حولها و حول الهدف الاصلاحى عموما .

4- انعكاسات سياسة الإحتلال في الميدان الثقافي على الشعر :

كان لهذا الظلام الثقافي أثره السيئ على الأدب عموما و الشعر على وجه الخصوص، على اعتبار أن الشعر ظاهرة ثقافية تأخذ الصفات والمميزات و تتأثر بالظروف نفسها التي تتأثر بها الثقافة في البلاد عموما. فسياسة التجهيل والهدم الثقافي التي مارستها إدارة الإحتلال في الجزائر كقيلة بأن تجعل الأدب يفتقر إلى أدنى شروط تكونه ووجوده ، لأن الأدب وإن كان منطلقه الموهبة والفطرة الإنسانية ، فإن شروطا عديدة تتضافر في تنشأته و تطويره ، منها الحصول على قدر معين من المعرفة بفنون اللغة و آداب التعبير ، و نسبة معينة من التجارب الأدبية السابقة التي تتوصل في ملكة الأديب لتخرج في أسلوب أدبي خاص به ، و إلى وعي بأمور الحياة و ظروف الواقع للتأمل فيه و التأثير بتغييراته ، و إلى بيئة تكون فيها أسباب توفر كل هذه الشروط موجودة ولو بشكل نسبي . ويبدو أن الإحتلال عمل على إعدامها جميعا ، فكانت البلاد على شفا الفراغ من الظاهرة الأدبية و الشعرية، و إن وجدت فهي كما يصفها الإبراهيمي « مجرد سفاسف من لغو الحديث لا تثير ذكرى و لا تذكي حماسا و لا تهز عاطفة. »⁽¹⁾

لقد أدى ضعف التعليم و انحباس الثقافة بين جدران الزوايا و المساجد إلى تردي النتاج الشعري في الجزائر كمّا و نوعا ، بل و كاد أن يفقد ماهيته شكلا و مضمونا ؛ فمن ناحية المضمون نجده قد نزع إلى أغراض دينية بحتة ، تتجه معظمها إلى المدائح و التصوف نتيجة ارتباطه الوثيق بالزوايا و المساجد ، حيث كان معظم الشعراء طلاب مساجد و أتباع طرق وطلاب زوايا، وكذا لأن الشاعر من هؤلاء « قد وجد في الدين باعتباره قوة حفظت للشعب عقيدته ، ملاذ الذي يلتجئ إليه ، و وجد في التصوف راحته مع الظلم الذي يعم البلاد . »⁽²⁾ وما خرج من الشعر من هذه الدائرة الدينية المغلقة ، كان يعالج أغراضا تافهة كأن يتغنى بميلاد مولود أو مناسبة عيد أو تهنئة بترقية أو تنعي وفاة قريب أو تعزية مصاب ... إلى غير ذلك من المناسبات الإجتماعية التي كثيرا ما تغيب فيها العاطفة الصادقة ، و يكثر فيها التكلف و المجاملة⁽³⁾ . و إذا تناول الشعر غرضا من أغراض الشعر القديمة، كالغزل أو المدح أو الفخر، فهو غالبا ما يكون غزلا متصنعا أو مدحا متكلفا متملقا أو فخرا يقوم على أساس التباهي بالأنساب

(1) محمد البشير الإبراهيمي : آثاره ، ج 1 ، 164 .

(2) عبد الله الركبي : الشعر الديني الجزائري الحديث : ص : 32 .

(3) محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث إتجاهاته و خصائصه الفنية (1925-1975) ، ص : 19 .

والأجداد... وكثيرا ما تكون معانية مبتذلة ركيكة منحطة، تزحف كالسلحفاة على حد تعبير أحد الدارسين (1).

كما شاعت المنظومات العلمية في النحو و البلاغة و الفرائض... و أخذ العلماء يتنافسون في طولها حتى اشتهر العديد منهم بمنظومة إلتصقت بإسمه و أخذت تنصدر ترجمته في كل كتاب (2) وتكاد تخلو هذه المنظومات، بل تلك القصائد جميعها، من الملامح الجمالية الفنية للشعر ويكاد الشعر يفقد فيها ماهيته الفنية من ناحية الشكل؛ فقد جاءت لغته مشربة بأقيسة الأصول ونكهة الفقه وصوره البلاغية خالية من البيان والبديع... وحتى أوزانه و بحوره فقدت الكثير من معانيها ومسمياتها حيث كان بعض الشعراء يزئونَ قصائدهم ببعض المنظومات التي يقرؤونها في المواسم و الأعياد و مجامع الأذكار، فيقول مثلا هذه القصيدة من بحر الهزمية أو بحر البردة (3)

لقد أصبح الشعر عموما و نتيجة للواقع الثقافي الذي تتخبط فيه البلاد مثلما وصفه البشير الإبراهيمي حين قال : « و قد اطلعنا على أكثرها فإذا هي من لون واحد مصروفة في الغالب إلى مدح المشايخ والكبراء و إذا هي أخت الأشعار الملحونة الرائجة في السوق لأنها منقطعة الصلة بالشعر في أعاريضه و أضربه و منقطعة الصلة بالعربية في ألفاظها و معانيها و منقطعة الصلة بالخيال في تصرفه و انتزاعه » (4). و يورد أحد الأدباء الغربيين المعاصرين لزمان الإحتلال في الجزائر، أن الشعر الجزائري قبل 1920 يكاد يكون معدوما و إن وجد فهو شعر مضجر حقا (5). وفي مقابل ذلك راج الشعر الشعبي المشافه : بالعربية الدارجة أو الأمازيغية واستقطب التعبير الأدبي في تلك الفترة؛ (6) فقد كان المخرج الذي وجدت فيه الموهبة الشعرية و الفطرة التعبيرية متنفسا لها، و الطريق الذي لقيت فيه النفس الشاعرة مجالا أرحب للتعبير عن خلجاتها وترجمة مآسيها، و إسماع صوتها في الوقت الذي حاصرت فيه سلطات الإحتلال كل أساليب

(1) المرجع السابق نفسه ، ص : 20 نقلا عن سعد الدين بن أبي شنب ، النهضة العربية في الجزائر ، مجلة كلية الآداب ، ع 1 ، 1964 ، ص 58 .

(2) نفسه

(3) عبد الله حمادي : أصوات من الأدب الجزائري الحديث ، ص 16.

(4) محمد البشير الإبراهيمي : آثاره ، ج 1 ، ص 71، ص 72.

(5) هو المؤلف و الشاعر الاسكتلندي توماس كامبل ، صاحب كتاب رسائل من الجنوب ، الذي كتب فيه عن الثقافة و الأدب الجزائريين في مطلع القرن 19 . أبو القاسم

سعد الله : دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، ص : من 11 إلى 13.

(6) Ahmed Lanasri : Mohamed Ouled Eheikh , Un romancier algeriein des années 30 , P : 26.

التعبير الأدبي الفصيح . وقد كانت الأسواق و المحافل و الأعياد و المناسبات العائلية المكان
الرحب الذي ينشط فيه قائلوا هذا النوع من الشعر ؛حيث كان معظمهم من "القوالة" " Diseurs
أو"المداحة" "Les Meddahs". وقد وصف إنتاجهم بأنه قريب جدا من حقيقة الروح الجزائرية
الشعبية⁽¹⁾.

أما مواضيعه فقد تناولت على وجه الخصوص المدائح و التوسلات، ومدح الفرسان
والأبطال، والشكوى من الزمان و أهله و من الظلم و الحرمان و سياسة الإحتلال⁽²⁾ .و مثل كل
من الإسلام و الإستعمار أهم المواضيع التي تمحورت حولها قصائد الشعر الشعبي⁽³⁾ حيث كانت
في أغلبها تتغنى بأبطال الإسلام و فرسانه و غزواته و تمجيد الماضي من خلالهم، أو تبكي أيضا
هذا المجد الضائع الذي ما وصل إلى هذه الدرجة من الضياع إلا بسبب الإستعمار، الذي حل
بالبلاد فدمر و هدم و خرب⁽³⁾.

و لم تكن سلطات الإحتلال غافلة عن هذا الأدب أيضا ، بل حاربت المداحة و القوالة و
راقبت نشاطهم، و منعت كل أنواع التجمعات الشعبية مند سنة 1843⁽⁴⁾ ،ثم أخذ العلماء
الفرنسيون وبعض الضباط المستعربين ، والمستشرقون يهتمون بهذا الأدب لأنه يعبر في نظرهم
عن حقيقة الروح الجزائرية ، و لأنه يحتوي على رموز و تلميحات تاريخية و سياسية معادية
لفرنسا .هذا بالإضافة إلى اعتباره مصدرا لغويا و اجتماعيا و أدبيا مفيدا لا بد من دراسته
وتحليله. و قد وردت دراسات عديدة لمفكرين أجانب تختص بهذا اللون من الشعر تلتها بعد ذلك
دراسات الجزائريين أنفسهم لهذا الإرث الثقافي الشعبي⁽⁵⁾.

و تبقى صفات الضعف و التخلف و الجمود هي الصفات التي ميزت الشعر و الثقافة
عموما إلى غاية العشرينيات من القرن العشرين ، وابتداء هذا التاريخ أي منذ العشرينيات من
القرن العشرين انتقل الشعر نقلة نوعية إلى مرحلة تغيرت فيها كل المقاييس و تبدلت الأوضاع
وتطورت القيم و الأهداف و الغايات إلى رحاب أخرى، و ذلك هو موضوع دراستنا اللاحقة في
الفصل الموالي من هذا البحث .

(1) Ibid , P 29

(2) أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 8 ، ص : 307 .

(3) Ahmed Lanasri : Mohamed Oued Eeikh , Un romancier algeriein des années 30 , P : 29.

(3) Ibid

(4) Ibid , P 27 .

(5) أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 8 ، ص 307 .

الفصل الثاني

النهضة الفكرية والأدبية الحديثة بالجزائر

1- بدايتها

2- أسبابها

3- مراحلها

4- اهتماماتها

5- دور التعليم العربي الحر في تفعيل النهضة

6- دور الصحافة العربية .

1- بدايتها :

كانت فترة العشرينات من القرن العشرين نقطة تحول كبرى في تاريخ الجزائر في ظل الإستعمار وبخاصة في المجال الثقافي. ففي هذه المرحلة بدأ يلوح في أفق الثقافة الجزائرية شيئاً من بصيص النور، وأخذت عناصر الثقافة العربية الإسلامية تنبض بالحياة من جديد ، لتنهض من سباتها الطويل وتستعيد مكانتها و تنفض عنها شيئاً من غبار الضعف و التخلف. إن ما ميز هذه الفترة ، و التي كانت منعطفا هاما في تاريخ الجزائر الثقافي ، هو قيام نهضة ثقافية عمادها الإصلاح، و محركها الأدب ،وأساسها محو الجهل و القضاء على الأمية، و هدفها تغيير الوضع الثقافي الذي هو أساس كل تغيير اجتماعي أو تطور حضاري .

لقد أجمع معظم دارسي الأدب و التاريخ و الثقافة الجزائرية عموماً أن النهضة الفكرية والأدبية في البلاد إنما انطلقت في العشرينات من القرن العشرين فجميع مظاهرها لم تتبلور سوى في هذه الفترة ، و الوسائل التي تدفع الأمم إلى اليقظة و المساهمة الفعالة في بعث وتطوير الحركة الفكرية من تعليم و صحافة و حركة تأليف و إنشاء نواد و جمعيات ... لم تظهر في البلاد بصفة ناضجة سوى مع مطلع العشرينات من القرن العشرين⁽¹⁾. وما وجد من هذه الوسائل قبل هذه الفترة لم يكن باستطاعته أن ينهض بالجزائر أو يحدّ من حدّة البؤس الثقافي الذي عانت منه نظراً لقلته أو ضعف نوعيته أو خضوعه لسيطرة إدارة الإحتلال .

ولهذا التحديد الزمني أسباب ومبررات أخرى أهمها :

■ إن الهدف الإصلاحي الذي نادى به بعض الجزائريين المتتورين قبل العشرينات كان لا يزال هدفاً جديداً، غريباً، لم يكن يفهمه أغلبية الجزائريين⁽²⁾ وكان لا بدّ من مرور الوقت الذي عدّه مالك بن نبي أساساً هاماً من أسس الحضارة،⁽³⁾ لكي تتضح معالم هذا الهدف الإصلاحي ويتمكن الجزائريون من فهمه و استيعاب نتائجه ، ثم تطبيق مبادئه على أرض الواقع .

(1) محمد بن سميحة: النهضة الأدبية الحديثة بالجزائر، بدايتها - مؤثراتها - مراحلها ، ص 77 .

(2) Ali Merad : le réformisme musulman en Algérie, p 27.

(3) MALEK Bennabi : les condition de la renaissance problème d une civilisation, p24

▪ إن التعليم الإصلاحى الذى ارتكزت عليه النهضة الفكرية و الأدبية كان

لا يزال قبل هذا التاريخ " بذرة " قد زُرعت و تحتاج إلى الوقت لتتضج و تُثمر .⁽¹⁾

▪ و الأسباب و الدوافع التى أدت إلى تبلور النهضة الثقافية الحديثة كانت قبل 1920

فى مرحلة التفاعل : فالحرب العالمية الأولى انتهت سنة 1918 ، أحداث تركيا 1908 ، أحداث تونس 1911 – 1912 ...

▪ كما عرفت الفترة السابقة للعشرينيات عودة بعض المثقفين الجزائريين الذين هاجروا

إلى تونس و المشرق قصد إتمام الدراسة بجامعاتها . لكن عودتهم إلى البلاد فقط ليست السبب الكافى لتقوم نهضة فكرية على كواهلهم ، إذ لابد أن يلتقى هؤلاء أو يتعارفوا⁽²⁾ لتلتقى الأدمغة وتتلاقح الأفكار و تجتمع روافد التأثير بالنهضة المشرقية فى مصب واحد.

▪ وبعد المشاركة الفعالة للجزائريين فى الحرب العالمية الأولى إلى جانب الجيوش

الفرنسية ، رأت فرنسا و من باب ردّ الجميل أنه لا بدّ من فعل شيء للجزائريين و لو من قبيل ذرّ الرماد فى العيون ، فأصدرت قانون 4 فيفري 1919 الذى احتوت بنوده على بعض الإصلاحات كان من بينها إلغاء العديد من قوانين الأندجينا و المساواة بين الجزائريين فى الضرائب ، و زيادة عدد الناخبين الجزائريين بعد أن كانوا فى دائرة ضيقة و خاصة جدا لا تضم سوى التجار و أصحاب الأملاك⁽³⁾. لكن هذه الإصلاحات فى الحقيقة جاءت مخيبة لآمال الجزائريين الذين

انتظروا تحقيق فرنسا و عودها بالنصر و العدالة و المساواة ، وبخاصة بعد ما قدموه من تضحيات جسيمة فى سبيل تحقيق النصر الفرنسى . لكن و بالرغم من ذلك كانت هذه الإصلاحات سلاحا بحدّين بالنسبة للإدارة الفرنسية ، فمن جهة كانت حافزا للجزائريين لأن يعملوا لإصلاح ذواتهم دون الإعتماد على الإدارة الفرنسية بعد اقتناعهم بعدم قيامها بذلك أبدا ، و من جهة أخرى كانت هذه الإصلاحات صفقة سياسية حصل الجزائريون بعدها على بعض الحقوق التى كانوا محرومين

(1) Ali Merad : le réformisme musulman en Algérie, p,p : 18,19

(2) Ibid

(3) أحمد توفيق المدنى : هذه هى الجزائر ، ص 164 .

منها، و ألغت بعضُ القوانين الجائرة. وفي هذا الجو الذي اتسم نوعا ما بالاسترخاء⁽¹⁾ وجد المصلحون الفرصة مناسبة للعمل الإصلاحي، فاستهلوه بإنشاء بعض المدارس (ابن باديس بقسنطينة ، الإبراهيمي بسطيف والعقبى ببسكرة)⁽²⁾ كانت منطلق العمل الإصلاحي و النهضوي بالجزائر .

و على هذه الإعتبارات جميعا ، تتحدد بدايات النهضة الفكرية والأدبية بالجزائر في العشرينات من القرن العشرين و كان تاريخ صدور جريدة " المنتقد " التي صدر العدد الأول منها بمدينة قسنطينة في الثاني من جويلية سنة 1925 هو تاريخ الإنطلاقة الرسمية للحركة الإصلاحية سواء في نظر المجتمع الجزائري أو في نظر الإدارة الإستعمارية⁽³⁾ فهي أول جريدة وطنية إصلاحية حرة، جمعت على صفحاتها الأقلام الإصلاحية للشباب المثقف ، العائد من الجامعات والمعاهد العربية بعد الحرب العالمية الأولى إلى أرض الوطن .لذا قال عنها مؤسسها عبد الحميد بن باديس أنها لسان حال الشباب الناهض في القطر الجزائري⁽⁴⁾ . كان شعارها " الحق فوق كل أحد و الوطن قبل كل شيء " ⁽⁵⁾ أما مبادئها فقد صنفها مؤسسها إلى مبادئ سياسية وتهديبية وانتقادية وشرح كل مبدأ منها على حدا في افتتاحية العدد الأول منها .⁽⁶⁾

وقد تميزت مقالاتها وقصائدها من الجانب الأدبي، عما سبقها من الصحف، بمتانة اللغة وسلاسة الأسلوب وعمق الأفكار، وكانت صدرا رحبا احتضن نتاج خيرة الأقلام العربية الجزائرية وإبداعاتهم، كتابا كانوا أو شعراء⁽⁷⁾، ومجالا فسيحا لإستقبال انتقاداتهم الأدبية والإجتماعية و السياسية ... فانتعش الأدب على أيدي هؤلاء لغة و فكرا ، شعرا ونثرا، و أخذ يكسر قوقعة الجمود وينطلق في نهضة وجد مقوماتها وعوامل تطورها على صفحات المنتقد: جمهور النقاد وجمهور القراء.

وإن تأخرت النهضة في الجزائر عن مثيلاتها في المشرق إلى هذا التاريخ فذلك راجع إلى عدة أسباب أهمها :

(1) Ibid.

(2) Ibid

(3) Ibid

(4) محمدناصر :الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939 ، ص 54

(5) المنتقد العدد الأول 1925/07/02 ، ص 6 .

(6) نفسه ، ص 6 وما بعدها .

(7) محمد ناصر : الصحف العربية الجزائرية ، ص 54 .

- ♦ إن للجزائر سبق في تعرضها للإستعمار الأجنبي (1830) هذا إذا استثنينا حملة نابليون على مصر (1798) التي كانت حملة استكشافية آنية « سرعان ما نكص القائمون بها وولوا على أعقابهم مدبرين » ⁽¹⁾ .بينما كان الإستعمار الفرنسي في الجزائر استعمارا استطانيا عسكريا استهدف الأرض و الشعب و الثروات و الحضارة و الثقافة و الهوية .. منتهجا سياسة الإخضاع الجبري والغزو الفكري و الطمس ... قرابة القرن والنصف من الزمن .
- ♦ طبيعة الإستعمار الفرنسي في حد ذاته ، فهو لم يكن أبدا عاملا من العوامل المساعدة على اليقظة مثلما كان كذلك في بعض البلدان العربية (مصر مثلا على عهد محمد علي 1842 - 1870) ⁽²⁾ بل كان معول هدم وأداة دمار و عامل عزل لكل ما من شأنه أن يحدث يقظة أونهضة في المجتمع الجزائري .
- ♦ إن العلاقة بين الثقافة الغربية الغازية و الثقافة العربية المغزوة لم تكن قائمة على الإحتكاك و التلاقح المثمر الذي يولد من فاعليه عملية التأثير و التأثير الإيجابي بين الثقافتين كما كان من المفروض أن يحدث في الجزائر خلال الإستعمار . لكنها كانت قائمة أساسا على الظلم و الإنكار والتعالي و الإرغام من جهة المستعمر ⁽²⁾ بينما كان في المشرق من هذا التفاعل و التلاقح ما غدى العقول وشحذ الهمم ودفع المجتمعات إلى التقدم و التطور و النهضة .

(1) محمد بن سمنية : النهضة الأدبية الحديثة بالجزائر ، بدايتها - مؤثراتها - مراحلها ، ص 8 .

(2) نفسه ، ص 90 .

(2) نفسه ، ص ، ص 90 ، 91 .

2- أسبابها :

يقول مالك بن نبي أن النهضة مثل قرص الشمس، متى تحين مواقيت الإشراق تسطع على الأرض فيستيقظ النيام من سباتهم الطويل،⁽¹⁾ ومواقيت الإشراق إنما يتحدد بتوفر أسباب النهوض في المجتمع ، متى امتلكها أطلت عليه شمس النهضة بأنوارها . و على هذا يمكن تصنيف أسباب النهضة الفكرية و الأدبية في المجتمع الجزائري إلى أسباب داخلية و أخرى خارجية .

أ - الأسباب الداخلية :

وهي الحوافز التي تتبع من عمق الأمة الجزائرية لتدفعها إلى اليقظة و السير إلى الأمام وهي :

* تردي الأوضاع الثقافية و الفكرية :

فالجزائر قد وصلت إلى أدنى درجات الضعف والتخلف على حد تعبير المولود بن موهوب⁽²⁾ وبخاصة في المجال الفكري. فبعد سقوط الدولة الزيانية في 1235هـ -1554م نضبت مجاري الثقافة وجفت روافد الفكر و الإبداع وهوت الجزائر بعدها من سلم الحضارة إلى هوة التخلف ، وبخاصة بعد دخولها تحت جناح الخلافة العثمانية التي أتمت السنة بالنوم العميق مهددة في آذان الجزائريين أغاني الغفاء ليناموا ويحل الهدوء الجميل !. لقد خلق هذا الوضع الثقافي المتردي والذي تبعه ضعف في كافة مجالات الحياة، القابلية للإستعمار لدى المجتمع الجزائري ، لأن الإستعمار كما يقول عبد العزيز الخالدي في تقديمه لكتاب مالك بن نبي "شروط النهضة" ، لم يكن مجرد عارض ، لكنه في الحقيقة نتيجة حتمية لانحطاطنا⁽³⁾ .

إن إرتكازية الإيجابيات وتراكمها في العالم الأوروبي (تطور ، رفاهية ، تضخم في الإنتاج ، تضخم مالي ...) أدت في الأخير إلى نتيجة سلبية على العالم ، تمثلت في ظاهرة الإستعمار و استغلال الشعوب المستضعفة لاستغلال ثرواتها وضمائها سوقا لمنتجاتها ، كما أدت كذلك ارتكازية السلبيات وتراكمها في العالم العربي - الجزائر أنموذجا - (تخلف فقر ، جوع جهل ، ضعف ...) إلى نتيجة إيجابية تمثلت في قيام النهضة بها لمحاولة تغيير هذه الأوضاع بما هو خير و أفضل .

(1) MALEK Bennabi : les condition de la renaissance problème d une civilisation, p24

(2) Chérif Ben Habiles : l'Algérie Française vue par un indigène, P 22.

(3) مالك بن نبي : شروط النهضة ، ص:9

* فشل المقاومة المسلحة :

بعد أن أتمت فرنسا استعمارها بقوة الحديد و النار ، وفشلت جميع الثورات المناهضة لها عاد المجتمع الجزائري إلى ذاته يستبطنها ونفسه يسألها، و إلى ماضيه يذكره ، و أخذ يحلل أسباب فشل هذه الثورات، و يقيّم بعين النقد و التبصّر موازين القوى بين المجتمعين الفرنسي و الجزائري فأدرك أن أسباب فشل هذه المقاومات هي ذاتها الأسباب التي أوقعت البلاد في آفة الإستعمار، و من تم على المجتمع الجزائري أن يتخلص أولاً من عوامل القابلية للإستعمار لكي يتخلص من الإستعمار ذاته. و عملاً بمغزى الآية الكريمة ﴿ لَا يُغَيِّرُ اللَّهُ مَا يَفْعَلُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (1) غير المجتمع الجزائري أساليب كفاحه بأساليب جديدة يقوم فيها ذاته ويرم انتقاصاته و يصلح أموره

لقد قامت جميع الثورات الشعبية الأولى في الحقيقة على أساس نظرة بطولية للأوضاع حيث كان زعماءها يقومون فيها بأدوار بطولية ملحمية، يهدفون من وراءها، إما لإرضاء العقيدة بغرض طرد " الكافر " الذي عاث في الأرض فساداً و تخليص البلاد المسلمة و الإسلام من طغيانه و كفره ، مثلما كانت مقاومة الأمير عبد القادر و المقراني و الشيخ الحداد وغيرها و إما لتحقيق طموح شخصي في اكتساب المجد و الشهرة ، كما كانت مقاومة أحمد باي التي يقال أنه طمح فيها إلى وراثة الداوي حسين و تمثيل السلطة العثمانية في الجزائر (2) - رغم أن هذا الطرح لا يلغي بسالته وقيمة الثورة التي قادها - . و من طبيعة هذه النظرة البطولية أنها لا تلتفت إلى حل المشاكل الجوهرية التي أدت إلى الإستعمار (3) بل تواجه هذا الأخير كقوة معادية لها فحسب. و قد حان الوقت وبخاصة بعد فشل مقاومة 1870 وما خلفته من خسائر فادحة في الأرواح و الممتلكات، لتوجيه طاقة الشعب إلى أهداف أكثر واقعية ، فعهد الملاحم و البطولات قد ولى (4) بل وما عاد يجدي نفعاً أمام مستوى تطور المستعمر الفكري و الحضاري و المادي إذ لا بد من لفت انتباه المجتمع الجزائري وفتح عيونه على الواقع المعاصر، بتعليمه أصول الحضارة الجديدة و دفعه إلى إيجاد وسائل حديثة يواجه بها الإستعمار

(1) سورة الرعد : الآية 11 .
(2) جوانب مضبوطة من كفاح الأمير عبد القادر: مقال لوداد الصيد، مجلة " الدولة الجزائرية بين الأمير عبد القادر و الحاج أحمد باي " منشورات جامعة قسنطينة، ص 191
(3) مالك بن نبي : شروط النهضة ، ص 19 .
(4) نفسه .

*الاستعمار الفرنسي :

يعد الإستعمار الفرنسي أهم سبب لقيام النهضة الفكرية بالجزائر والتي كانت في الواقع نتيجة من نتائج الضغط الذي مارسه هذا النظام . وكانت سياسته في الميدان الثقافي أكبر دافع لينهض الجزائريون بثقافتهم و يتلمسون أسباب رقيها وازدهارها حتى تقف من جديد و تثبت وجودها و تواجه الإستعمار و تتغلب عليه . فسعي الإستعمار في تحقيق مقاصده الصليبية و التغريبية يستلزم في المقابل القضاء على الإسلام و على الثقافة العربية، ومكانة الإسلام والعروبة لدى الجزائريين مثل مكانة الروح من الجسد ، ومن ذا الذي يبقى ساكنا إذا استهدفت روحه؟! لقد أدرك الجزائريون أن حماية الإسلام و الثقافة العربية من الهجمات الخارجية تتطلب تقويتها وتعزيزها من الداخل ، فالتفتوا إلى الإسلام يحاربون ما التصق به من بدع وخرافات، محاولين الرجوع به إلى نقاوته و عصوره الأولى. ثم إلى العربية يبعثونها من مرقدها و يفكون قيود الضعف و الجمود عن مفرداتها و معانيها . و عملوا من جهة أخرى على بث هذه الإصلاحات في أوساط المجتمع وفي نفوس الناشئة ، لتهيئة جيل قادر على حماية دينه و ثقافته و بلاده من كل هجمة خارجية .

إن الإستعمار في الحقيقة قد هلك من حيث أذنب ، فسياسته هي التي حالت دون دوامه واستمراره في البلاد يقول محمد علي دبور " أنه من حسن حظ المجتمع الجزائري أن ابتلي باستعمار أبله " على حد تعبيره، يضرب في الأمة مواطن اليقظة فتستيقظ لتواجهه ، و يجردها إلى اللحم النئ في جسم الأمة الجزائرية وهو الإسلام ، فتثور وتشعر بخطر الأعداء و تجادلهم⁽¹⁾ وكان المعمرون أكبر خطأ في الجهاز الإستعماري، فقد كانوا كما وصفهم دبور، من الدخلاء واللقطاء الذين لم تكن تعنيهم مصلحة فرنسا بالقدر الذي يهمهم ملء البطون و الجيوب من خيرات البلاد و ما يهبونه من سكانها . فلو كانوا من الأصلاء لعملوا على أن تبقى البلاد هادئة في أيديهم بمعاملتها على حساب مزاجها و مداواتها في دهاء و جعلها تنام في هدوء.⁽²⁾ لكن معاملة المعمرين للجزائريين كانت مبنية على الطمع و التعالي و الحقد ، فسببت رفضا و ضغطا داخليا لدى الآخر الذي حاول الوقوف لإثبات ذاته و الذود عن حقوقه و ممتلكاته المادية منها والمعنوية .

(1) محمد علي دبور : نهضة الجزائر الحديثة و ثورتها المباركة ج2، ص،ص: 3 ، 4

(2) نفسه

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كان للوسائل و التقنيات الحضارية المتطورة التي يمتلكها الإستعمار الفرنسي الدور البارز في قيام النهضة في الجزائر ، فالصحافة و المطبعة مثلا قد عرفتا طريقهما إلى الجزائر مع الاحتلال ، كما أن ملامح التجديد في الجهاز التعليمي دخلت الجزائر مع المدرسة الفرنسية العصرية . و ليس معنى ذلك أن فرنسا أرادت تمدين البلاد، لكن النخبة الجزائرية التي احتكت بهذه الوسائل وتعاملت معها مباشرة، لم تتركها تمر مرور الكرام دون الاستفادة منها، بل استغلتها لتطوير المجتمع الجزائري و ترقية ثقافته؛ حيث تنبعت النخبة إلى أن هذه الحضارة الجديدة الوافدة تختلف تماما في فكرها ووسائلها و أهدافها عن الحضارة العربية الإسلامية التي استنفذت كل ما لديها من وسائل ومقومات ووقفت عاجزة عن صدها، وأدركت أن هذا الوافد الجديد إنما يمتلك مقومات السيطرة مادياً و معنوياً⁽¹⁾.

وقد يكون من الغريب القول أنه حتى الجيش الفرنسي كان منجما هاما للمتقنين الجزائريين⁽²⁾ فبالرغم من أن العسكريين الجزائريين النظاميين كانوا أداة نشطة في الدفاع عن الإمبراطورية الفرنسية و نصرتها ، لم تتولد لديهم أيديولوجية موالية للنظام الإستعماري ، و لم يكن لهذا الارتباط العضوي بالجهاز الاستعماري تأثيرٌ سياسي أو ثقافي يئسم بالصمت و الخنوع والتبعية⁽³⁾ ، بل قد تدربوا أسرع من سائر فئات الإنتلجنسيا ، على سلوك جديد و قيم جديدة تميز الدولة الوطنية⁽⁴⁾ . وبما أنهم يخدمون الإمبراطورية الفرنسية ويشكلون جزءا هاما من الآلة العسكرية، فقد كانوا يتمتعون بحرية أكبر في التعبير نظرا لبعدهم عن دائرة الشك و بعدهم بالتالي عن الإزعاج⁽⁵⁾ . وسرعان ما أثبت هؤلاء وجودهم في الفلك الثقافي و الأدبي و السياسي ، فكان لبعضهم قلما هاما على صفحات المجلات و الدوريات الفرنسية مثل ابن داود وابن التونسي...⁽⁶⁾ يكتبون دراسات متعددة الإتجاهات و مقالات تقترح إصلاحا سياسيا و أخلاقيا للمجتمع⁽⁷⁾ . وكان لبعضهم تأليف في مجالات ثقافية متعددة مثل إسماعيل حامد بن أحمد الذي ألف في الأدب

(1) عبد الله الركبيبي : الشعر الديني الجزائري الحديث، ص، ص: 12، 13 .

(2) عبد القادر جغلول : الإستعمار و الصراعات الثقافية ، ص 100 .

(3) نفسه ، ص 101 .

(4) نفسه

(5) نفسه .

(6) نفسه ، ص 102

(7) نفسه .

والتاريخ السياسي والإجتماعي، و النقيب ابن شريف الذي افتتح رسميا الأدب الروائي في اللغة الفرنسية،⁽¹⁾ و يكفي عن كل ذلك دليلا نشاط الأمير خالد السياسي مع مطلع العشرينات الذي يمثل بحق منطلق الحركة الوطنية في المجال السياسي .

ومن عوامل قيام النهضة المرتبطة بالإستعمار أيضا، نجد مجيء الحاكم العام "جونار" إلى الحكم مجددا سنة 1903 و الذي كان قد وعد بحكم إصلاحية أثناء فترة حكمه الأولى سنة 1901⁽²⁾ و كان هذا الحاكم من أنصار فكرة "الجزائر المستعمرة" التي تبقى محتفظة بخصوصياتها المتميزة عن المتربول ، رافضا فكرة الإدماج الكلي والتام بفرنسا الذي تفقد فيه الجزائر خصوصياتها وتذوب شخصيتها في شخصية "المتربول"⁽³⁾ لذلك اتسمت سياسته الجديدة بنوع من التعاطف مع الأهالي، و تشجيع تطورهم وبخاصة في الجانب الثقافي، فأمر بنشر أعمال جزائرية إسلامية وقررها على المدارس التابعة لفرنسا ، و خصص مساعدة مالية لمطبعة فونتانا لتتمكن من تغطية عجزها المالي وتواصل نشاطاتها في طبع الكتب العربية و نشرها. كما أمر أيضا حكام الأقاليم ونوابهم على دفع الجزائريين لحضور دروس المساجد التي كان يشرف هو بنفسه على تنظيمها وتعيين موظفيها و كان يشجع فن العمارة الإسلامي وبعث التراث المكتوب ، و يتقرب من المثقفين التقليديين ويشجعهم على القيام بمهمتهم التقليدية كإقامة الدروس في المساجد ونحوها. وقام بتجديد برامج التعليم في المدارس العربية الإسلامية. و من جهة أخرى كان جونار من أنصار نشر الثقافة الفرنسية في الجزائر لتعزيز النظام الإستعماري بالغزو الفكري ،فهو القائل " المدرسة الفرنسية الإبتدائية...هي أساس سيطرتنا بالجزائر " وكان يهدف من وراء هذه السياسة المزدوجة إلى استمالة طبقة المثقفين وجعلها أداة إيجابية في بث النظام الإستعماري لترسيخ السيطرة الفرنسية على الجزائر في جميع جوانبه.⁽⁴⁾

ومهما يكن فقد كان لسياسة " جونار" دور هام في دفع مسيرة الحياة الثقافية و تفعيل حركتها وساهمت في تكوين النخبة و شجعت إسهاماتها في الميادين الفكرية و الثقافية . ولعل ذلك ما دفع

(1) المرجع السابق نفسه

(2) شارل روبيير أرجون : تاريخ الجزائر المعاصرة ، ص 111 .

(3) عبد القادر حلوش : سياسة فرنسا التعليمية بالجزائر ، ص 211 .

(4) نفسه ص، ص 210 ، 211 .

أحد الشعراء الجزائريين وهو أبو القاسم الحفناوي إلى مدحه و الثناء عليه بمناسبة إنجازه للمدرسة الثعالبية في قصيدته التي يقول في بعض أبياتها⁽¹⁾

في كل جيل من الأجيال أختيار و خيرهم من له في العلم أخبار

بالعلم شاد بنو اليونان دورهم إلى أن يقول:

وهذه آية العرفان مشرقة

شيدت وتاريخها لجنسنا فتحت وذو الولاية نجم العصر جوار

ب - الأسباب الخارجية:

كان لقيام النهضة الفكرية و الأدبية في الجزائر، إلى جانب هذه الحوافز الداخلية ، مؤثرات و عوامل خارجية ساهمت في إحداثها و تفعيلها بشكل كبير، فالجزائر ورغم سياسة العزل التي مارسها الإحتلال فيها لم تكن معزولة فعلا عن العالم الخارجي ، هذا العالم الذي يتصنف بحسب تواصل الجزائريين معه في تلك الفترة إلى عالم عربي إسلامي ، و عالم غربي . و على أساس هذا التصنيف يمكن تقسيم الأسباب و العوامل الخارجية إلى عوامل عربية إسلامية و أخرى غربية

ب1 - العوامل و الأسباب العربية الإسلامية :

و نقصد بها الحركات و الأحداث العربية التي ساهمت من بعيد أو من قريب في يقظة المجتمع الجزائري ؛حيث يجمع أغلب دارسي التاريخ المعاصر أن النهضة في الجزائر كانت صدى لمثيلتها في المشرق، تفندي بما فيها من أفكار و اتجاهات ، وبما يحدث بداخله من هزات قومية سواء أكان عمادها الماضي و مجده أم الحاضر في قلقه و تحفيزه⁽²⁾ ، ويمكن القول أيضا أن النهضة الجزائرية ليست سوى الجزء المكمل لتلك الحركة الثقافية والفكرية و الإجتماعية العامة التي هزت الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه و امتدادا لها، باعتبار أن الجزائر ليست سوى جزء من هذا الكل المترامي الأطراف من الخليج إلى المحيط، تتأثر بما يعتريه من هزات وتغيرات وتؤثر فيها أيضا وتتمثل أهم الأحداث الفاعلة فعلها في انطلاقة النهضة الفكرية في الجزائر فيمايلي :

(1) الحفناوي ، أبو القاسم: تعريف الخلف برجال السلف ،ص4
(2) أبو القاسم سعد الله : دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، ص 25.

* انتشار أفكار جمال الدين الأفغاني و تلامذته من بعده كمحمد عبده و محمد رشيد رضا حيث كانت أفكار هؤلاء المصلحين الأوائل البواعث الأولى للنهضة المشرقية عموما - وللنهضة الجزائرية على وجه الخصوص - إذ كانت كلمات جمال الدين الأفغاني كما يقول مالك بن نبي كالمحراث شقت طريقها في الجموع النائمة فأحيت موتاها، و ألفت وراءها بذور أفكار النهوض فأنت أكلها في الضمير الإنساني ضعفين، و أصبحت قوية فعالة غيرت ما بأنفس الناس من تقاليد و بعثتهم إلى أسلوب جديد في الحياة (1).

و حين بدأت إرهابات الحركة الإصلاحية في الجزائر بدأت تقتفي آثار جمال الدين و تلامذته من بعده ، فالمبادئ التي قامت عليها هي ذات المبادئ التي نادوا بها (2) : وهي تطهير العقيدة من كل الشوائب ، و تزكية النفس ، و إصلاح الخلق ، و نشر التعليم الصحيح و تعميمه بإنشاء المدارس الكثيرة، و إحياء اللغة العربية قوية سليمة و تشجيع استعمالها، و محاربة الاستعمار و أنابته و إحباط مشاريعه الإدماجية، و إعداد الأمة إعدادا نفسيا للثورة. (3) و يذكر محمد البشير الإبراهيمي في سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين ، أن أفكار محمد عبده كانت من بين العوامل الأولى في تكوين الحركة الإصلاحية بالجزائر، و أن لها تأثيرا إيجابيا في نفوس الجزائريين الذين كانوا يرغبون في تبديل الأوضاع الحالية بما هو خير و أفضل (4) و يسرد ما خلف في نفسه لقاءه الشخصي بالشيخ محمد رشيد رضا من أثر طيب بقوله : " ... و أشهد أنها كانت ليالي ممتعة يغمرنا فيها الأستاذ رشيد بفيض من كلامه العذب في شؤون مختلفة . و إن أنس فلا أنسى إحسانه في التنقل و لطف تحليله في الخروج لنا من آية إلى شأن من شؤون المسلمين العامة " (5) .

أما ابن باديس فكان يقرأ لطلبته سيرة جمال الدين و فصول صحيفته " العروة الوثقى " و جعلها في برامج دروسه للطلبة. (6) و يذكر عن تأثير الجزائريين الشديد بهؤلاء المصلحين أن إسم جمال و محمد عبده قد شاع بين الجزائريين و بخاصة بعد انتشار الحركة الإصلاحية. أما كتبهم "كتفسير

(1) مالك بن نبي : شروط النهضة ، ص 22 .

(2) دور الأفغاني في بقطة الشرق : مقال لأحمد حماني ، مجلة الثقافة ، العدد 38 ، ربيع الثاني / جمادي الأولى 1397 ، أبريل / ماي 1977 ، ص 100

(3) نفسه .

(4) محمد البشير الإبراهيمي : سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين، ص 47

(5) نفسه ، ص 45 .

(6) دور الأفغاني في بقطة الشرق : مقال لأحمد حماني ، مجلة الثقافة ، العدد 38 ، ربيع الثاني / جمادي الأولى 1397 ، أبريل / ماي 1977 ، ص 101 .

المنار" و"العروة الوثقى" و "رسالة التوحيد" و "حياة الأستاذ الإمام" و"حياة جمال الدين" فكانت مما لا يكاد يجهره مثقف بالجزائر. (1)

و يعد الأمير شكيب أرسلان أيضا أحد رجال الفكر العربي الذي كان لهم تأثير خاص على الفكر الجزائري في الميادين السياسية والثقافية ، فهو الذي أدخل مفاهيم جديدة عن القومية العربية أثرت في الحركة الإصلاحية (2) ووجهت الحركة السياسية، وزادت من عزيمة الجزائريين في التمسك بقوميتهم العربية الإسلامية و الإعتزاز بها والدفاع عنها .

* زيارة بعض المفكرين والمثقفين والمصلحين العرب إلى الجزائر : لقد فتحت هذه الزيارات مجالا أرحب للتواصل بين العالم العربي والجزائر ونقلت إلى البلاد الأفكار الإصلاحية والنهضوية الرائجة. و لا شك أن الجزائر بمحنتها نالت اهتمام المفكرين و المصلحين العرب والمسلمين الذين كان همهم الوحيد تخليص الوطن العربي وتحريره من هيمنة الأجنبي. و يمكن أن تكون الجزائر قد حظيت بزيارة المصلح جمال الدين الأفغاني حين كان هو ومحمد عبده يجوبان أقطار العالم العربي و الإسلامي (3) لتوطيد أركان الجامعة الإسلامية و نشر مشاريعها الإصلاحية حيث تذكر مجلة "La correspondance Parisienne" الفرنسية أن جمال الدين كان قد صرح لصحافي أنجلوسكسوني بأنه قد رأى الجزائر و رأى أن للحكومة الفرنسية فيها شرطة ترتكب أعمالا تستتكر و يلامون عليها، و أن المكاتب العربية بها قد بلغت وحشية الإنجليز (4) .

و في غياب المصادر و الأبحاث التاريخية التي تؤكد هذه الزيارة و تبرز ملابساتها، يبقى المؤكد أن زيارة زميله في الجهاد محمد عبده في صيف 1903 (5) خلفت آثارا طيبة في نفوس الجزائريين وكانت من الأسباب الفاعلة في قيام النهضة بالبلاد. فرغم أنها كانت محدودة في الزمان و المكان (6) إلا أن أفكاره الإصلاحية امتدت بعد هذه الزيارة إلى قلوب الجزائريين

(1) المرجع السابق نفسه

(2) تأثير جمال الدين الأفغاني على الفكر الجزائري المعاصر مقال لحنفي بن عيسى، الثقافة ، ع 38 ربيع الأول الثانية 1397 ، أبريل / ماي 1977 ، ص 126

(3) دور الأفغاني في يقظة الشرق : مقال لأحمد حماني ، مجلة الثقافة ، العدد 38 ، ربيع الثاني / جمادي الأولى 1397 ، أبريل / ماي 1977 ، ص 7 ، ص 99.

(4) نفسه، ص 100 و ما بعدها .

(5) Ali Merad : le réformisme musulman en Algérie, p 32 .

(6) لم تدم هذه الزيارة سوى أيام معدودة و لم تتعدّ حدود مدينته الجزائر.

وأصبحت مثلاً أعلى، و مبادئ يهتدون بها و يحاولون تعميمها لإحداث نهضة تقوم على هدي من أفكاره و آراءه .

كما زار الجزائر أيضا ثلة من أعلام الفكر و الثقافة و الأدب من أمثال الشاعر أحمد شوقي و الكاتب محمد فريد وجدي ... و كانت هذه الزيارات متفاوتة من حيث التأثير و الأهمية سمحت بالتقاء الأفكار و ساعدت على توطيد أواصر الإتصال بين الجزائر و العالم العربي رغم صعوبة الظروف و محاولات الإستعمار الفرنسي لمنعها.

* الرحلات : و التي كانت تتم من الجزائر إلى دول المشرق أو المغرب العربي لأغراض متعددة. فبعد وقوع نكبة الاحتلال تضاعفت أغراض الهجرة إلى المشرق، و مثلت أحد أشكال ردود الفعل الجزائرية إزاء الإحتلال . فقد كان الجزائريون يهاجرون هروبا بأرواحهم و عائلاتهم و عقيدتهم من بطش الاحتلال و من التجنيد الإجباري، و يهاجرون أيضا لطلب العلم و بخاصة بعد أن أصرّ الإستعمار الفرنسي على تجهيل الشعب ثقافته و عمل على ترويح المفاسد و البدع و الخرافات بالمجتمع. و لعل هذا الدافع للهجرة هو أهم دوافع الهجرة إلى المشرق فيما يتعلق بقيام النهضة لأنه يرتبط مباشرة بالعملية الثقافية. فقد كانت جامعات تونس و المغرب و مصر و الشام و العراق و الحجاز ... و مدارسها و معاهدها محطات تعليم و تنوير للوافدين إليها من طلاب العلم الجزائريين الذين استقر بعضهم في هذه الديار و عاد منهم البعض للإسهام بما تعلموه في ترقية مجتمعهم و تطوير بلادهم في الجانب الفكري و الثقافي . و مثل هؤلاء العائدون أمثال الإبراهيمي و العقبي و ابن باديس و غيرهم القاعدة الأولى التي تأسست عليها النهضة الفكرية و الأدبية في الجزائر .

كما كان السفر لأداء فريضة الحج ذو قيمة ثقافية و فكرية هامة بالإضافة إلى قيمته الدينية، لأن الحج كان في تلك الفترة ملتقى يجتمع فيه رجال العلم و الفكر و الأدب من مختلف أصقاع العالم العربي و الإسلامي، تتلاقح فيه الأفكار و تتحدد الأهداف و الرؤى المستقبلية حول الأوضاع الراهنة للعالم الإسلامي و العربي . وقد سمحت الرحلة إلى الحج للجزائريين أن يعرجوا أيضا في طريق الذهاب و العودة على بعض البلدان العربية فيربطون الصلات الأخوية مع بعض

المتقنين والمفكرين العرب و يجلبون معهم ما يمكن أن يفيدهم في خدمة بلادهم من كتب وصحف ومنشورات... لذا كانت سلطات الإحتلال وفي مناسبات عديدة تمنع أو تضع شروطا قاسية لمنع رخص الحج، بحجة أن العائدين من هناك يرجعون أكثر تعصبا ضد النظام الاستعماري. بل إن العائدين من هناك يرجعون أكثر و عيا و تأثرا بالنهضة المشرقية الغنية بالأفكار و التجارب العقلية و الثورية⁽¹⁾ فيعملون على نقل آثارها إلى البلاد .

* **حركة الشباب التونسي و النهضة الفكرية و الثقافية التي هزت أرجاء تونس في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين؛** حيث ساد تونس هذه الفترة جو علمي و سياسي لم يكن له مثيل في كامل المغرب العربي آنذاك⁽²⁾. و كان لديها مدارس عصرية كثيرة بوسائل حديثة و متطورة في التربية و التعليم ، و نواد سياسية و أدبية و علمية هامة ، و صحافة حرة تواجه الإستعمار و أذنابه ، و كانت صحفها العربية تطلع القراء كل صباح و مساء بمقالات عبد العزيز الثعالبي و مقالات و قصائد الكتاب و الشعراء التونسيين. و زاد في نهضتها جامع الزيتونة الذي يدرس فيه علماء أجلاء و مدرسون فحول يخلصون العلم لله فتتار بعلمهم العقول و القلوب.⁽³⁾ ليس بتونس فحسب، بل جميع الطلبة الوافدين إليه يرجعون و معهم من النور العلمي و الزاد المعرفي ما يجعلهم جند إصلاح و نهضة في بلدانهم. وكم احتضن جامع الزيتونة بل و كم احتضنت تونس الخضراء من طلبة الجزائر الذين رجعوا إلى البلاد فكانوا صناع نهضتها و سواعد بنائها.

* **جهاد الأشقاء في ليبيا و المغرب الأقصى :** كان هذا الجهاد عاملا من عوامل تذكية يقظة المجتمع الجزائري و جراته على الإستعمار؛ فجهاد الأبطال سليمان الباروني و عمر المختار بليبيا، و عبد المالك و عبد الكريم الخطابي في المغرب الأقصى قد هز الجزائر و نبهها إلى ما يمكن أن تحققه قوة المسلمين في مواجهة الاستعمار . وقد أنعشتها نصره الإسلام في هذه الديار و بثت فيها العزم إلى النهوض لينتصر الإسلام بدوره في الجزائر . لذا هب الجزائريون للجهاد في ميادين الإصلاح التربوي و الخلق و الثقافي و الإجتماعي ، لإصلاح النفوس و تربيتها و إعدادها للثورة الكبرى⁽⁴⁾ .

(1) أبو القاسم سعد الله : دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، ص 21 .

(2) محمد علي دبور : نهضة الجزائر الحديثة و ثورتها المباركة ج2 ، ص 14 وما بعدها .

(3) نفسه

(4) نفسه ، ص 36

* حركة الشباب التركي : و كان لهذه الحركة هي الأخرى فعلها في تحريك مشاعر الجزائريين ودفعهم إلى التغيير، فيذكر مالك بن نبي أن أخبار "مصطفى كمال" كانت مما لا يخفى على الجزائريين و كانت صورته تنتشر انتشارا مدهلا بينهم، تقوم بتوزيعها عليهم مكتبة النجاح⁽¹⁾ وكانت أخباره و أخبار الزعيم "عصمت أبنونو" تسري في الضمائر مرادفة لكل معاني التحرر والخلاص و ذلك في سنتي 1921 - 1922 . و يذكر محمد علي دبور أن مصطفى كمال والحزب الوطني الذي أسسه كانا محل تقدير و إجلال من طرف الجزائريين الذين كانوا يقرؤون مقالاته و خطبه ومقالات محمد فريد و عبد العزيز جاويش بكل إعجاب و حماس. و لما نشر علي فهمي كمال، أخو مصطفى كمال، تاريخ أخيه و مقالاته و خطبه في كتاب- وقع في ستة أجزاء وطبع في القاهرة سنة - 1910 سارع مثقفوا الجزائر إلى قراءته مما زاد في حماسهم و إقدامهم على الجهاد الوطني⁽²⁾ .

وبالتالي يصبح الشرق بجميع هذه العوامل مؤثرا فعلا و عاملا حيويا هاما في نشأة وتطور الاتجاهات السياسية و الإصلاحية ، و في تطور الأشكال و الأفكار الأدبية في الجزائر حيث مثل طيلة تلك الفترة قدوة بارزة للأغلبية الساحقة من الجزائريين في أغلب المجالات الثقافية والفكرية⁽³⁾

ب2/ الأسباب و العوامل الغربية :

لعل سمات التنوير التي كانت تهب على البلاد من جهة الغرب كانت أقل تأثيرا من تلك القادمة من الشرق ، و ذلك راجع بالضرورة إلى موقف الجزائريين من سياسة الإستعمار الفرنسي بحيث قامت هذه السياسة على الظلم و الإستغلال و الطمس و الفرنسة و التنصير.... ، فخلقت لدى الجزائريين نزعة المحافظة و الإنغلاق على ثقافتهم و عقيدتهم، وولدت لديهم الإحساس بالخوف والنفور من الإحتكاك بالثقافة الغربية⁽⁴⁾ و ظل التأثير بهذه الحضارة (الغازية في نظرهم) بطيئا متناقلا لا يجد من الأذان الصاغية والقلوب المتفتحة و العقول المستهلكة سوى عددا قليلا من قائمة الشعب الضخمة.⁽⁶⁾

(1) مالك بن نبي : مذكرات شاهد القرن (الطفل) ، ص 102.

(2) محمد علي دبور : نهضة الجزائر الحديثة و ثورتها المباركة ج2 ، ص 33.

(3) أبو القاسم سعد الله : دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، 25

(4) محمد مصايف : النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي ، ص 25

(6) أبو القاسم سعد الله : دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، ص 67.

لكن أخذت الأحداث الغربية الكبرى توجه أنظار الجزائريين إلى الواجهة الغربية وتدعوهم شيئاً فشيئاً إلى الإطلاع و الإستفادة من تجاربها و أفكارها الجديدة ، و التي تختلف في شكلها وجوهرها عن التجارب العربية. و من أهم هذه الأحداث :

* **الحرب العالمية الأولى** : التي كانت أوروبا مسرحاً لها، كانت مؤشراً و عاملاً هاماً في

قيام النهضة بالجزائر ، فقد اقتلعت كما يقول علي مراد ، المجتمع الإسلامي بالجزائر من عالمه الضيق لترميهِ وسط النور ⁽¹⁾ و أدخلت في الساحة السياسية و الثقافية مفاهيم جديدة عن الوطن والديمقراطية و القوميات و الحريات ... يقول البشير الإبراهيمي أن هذه الحرب خلقت لدى الجزائريين تطوراً فكرياً فجائياً كان من آثاره انحطاط المقدرات الوهمية في نظر الكثير من الناس ⁽²⁾ حيث أدى تفتح الفكر الجزائري على التجارب الثورية الغربية ، و على هذه الحضارة التي تتأسس على الثقافة المادية و الفلسفة العقلانية و ثورة الإنتاج ، إلى تحطّم العقلية الخرافية التي عمل على نشرها بعض الدجالين و المرابطين من أصحاب الطريقة المنتشرين هنا وهناك .

كما كان لبنود ولسن الأربعة عشر ومن أهمها حق الشعوب في تحقيق مصيرها أثر عميق في نفوس الجزائريين إذ يذكر مالك بن نبي الذي عاصر هذه الفترة ، أن الجزائريين كانوا يكثرون الحديث عنها و عن حق تقرير المصير ⁽³⁾ وذلك دليل واضح على أن المؤثر الغربي قد بدأ يفرض وجوده على الفكر الجزائري؛ فرغم أن هذه البنود لم يطبق أي منها في صالح المجتمع و الوطن، فإن تجربة الحرب قد أسفرت على نتائج إيجابية في المجالات الفكرية و السياسية في المجتمع الجزائري ؛ حيث كانت تلقياً و تجديداً للحياة فيه، بدليل تلك الحركات و الهزات الفكرية و الثقافية و السياسية التي حدثت في الجزائر مباشرة بعد تاريخ انتهاء هذه الحرب. و بذلك تكون قد صدقت وإلى حد كبير مقولة أحدهم: " ومن الموت توهب أو تسقى الحياة " . ⁽⁴⁾

(1) Ali Merad le réformisme musulman en Algérie . P32

(2) محمد البشير الإبراهيمي : سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين ص48

(3) مالك بن نبي : مذكرات شاهد القرن (الطفل) ، ص 54.

(4) عبد الرحمن بن العقون 1 : الكفاح القومي و السياسي من خلال مذكرات معاصر ، ص 61 .

* هجرة الجزائريين إلى فرنسا :. كانت هذه الهجرة بشكل قوي و متدفق خاصة قبيل وأثناء الحرب العالمية الأولى ، وتتم جبرا و طواعية ، حيث كانت فرنسا تزج بالجزائريين إلى أراضيها للدفاع عنها أو لتعويض العمال الفرنسيين المجندين .⁽¹⁾ كما كان الجزائريون يهاجرون طلبا للرزق أو للدراسة أيضا⁽²⁾ و بخاصة بعدما ساءت الأحوال المادية و الاقتصادية و الثقافية و رفعت فرنسا القيود عن الهجرة بإصدارها لقانون 1914⁽³⁾ . و بحكم إقامتهم في فرنسا، احتك الجزائريون بالمجتمع الغربي، و تعرفوا على مظاهر إجتماعية و عوائد و أنماط جديدة لحياة تختلف عن حياتهم التعيسة. و أدت بهم الحاجة إلى الدفاع عن حقوقهم في إطار العمل ، إلى الانخراط في التنظيمات الثقافية الفرنسية، فتعرفوا على أنظمة جديدة في التعامل. وقد كان عليهم فهم ما يحيط بهم من تجمعات و مظاهرات و ما يجري على الألسنة من شعارات عن الحرية والديمقراطية والشيوعية ... فانتهى الأمر بكثير منهم إلى الانخراط في النقابات والأحزاب السياسية التي كانت تجد صدى في نفوسهم،⁽⁴⁾ و عرفوا بذلك الإضرابات السياسية و الثقافية و حرية الصحافة و حرية الرأي و حرية تكوين الأحزاب السياسية، و من تم كانوا الطليعة الأولى للحركة الوطنية الجزائرية⁽⁵⁾ والأسس التي ارتكزت عليها النهضة الفكرية و الأدبية في الجزائر فيما بعد.

(1) عبد الحميد زوزو : الهجرة و دورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين (1919-1939)، ص: 15 .

(2) نفسه ، ص من 14 ألى 51 .

(3) نفسه ، في سنة 1874 صدر مرسوم فرنسي يقيد الهجرة إلى فرنسا بالحصول على إذن بالسفر ، و لم يُلغ هذا القرار حتى عشية الحرب بقانون يرفع هذا القيد وذلك بتاريخ 1914/07/15 .

(4) عبد الحميد زوزو : الهجرة و دورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين، ص من 14 ألى 51

(5) تركي رابح : الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح و التربية في الجزائر ، ص 33.

3- مراحلها :

يقسم محمد علي ديبوز النهضة الفكرية في الجزائر زمنيا إلى ثلاثة مراحل أو أدوار كما يسميها: دور النشوء و دور الشباب و دور النضج. و يحدد دور النشأة من النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى غاية بداية الحرب العالمية الأولى. و يجعل المرحلة الثانية تتحدد بفترة ما بين الحربين. أما الثالثة فهي الفترة التي تعقب نهاية الحرب العالمية الثانية إلى غاية انتهاء الحرب التحريرية الكبرى⁽¹⁾ و من الدارسين من يتفق معه في هذا التقسيم ومنهم من يخالفه . و سنحاول على ضوء ذلك، و من منظور طبيعة الأحداث، تقسيم النهضة الثقافية بالجزائر و تطورها إلى أربعة مراحل .

أ - المرحلة الأولى :

- **مرحلة العمل الفردي :** و هي التي يسميها بعض الدارسين بمرحلة الإرهاصات و عند ديبوز هي دور النشأة. وقد أطلقنا عليها مرحلة العمل الفردي لأن طبيعة الدعوة إلى التغيير و العمل في سبيله كانت تتم بصورة فردية ، حتى وإن ائتملت جماعة من المثقفين في إنجاز عمل ما، كبناء مدرسة أو إنشاء جريدة أو ناد، فإن ذلك العمل لم يخرج كثيرا عن إطار تلك الجماعة ، ولم يتعدّ الحدود الجغرافية للمنطقة التي ظهر فيها أو يتخذ طابع الشمولية و الإجتماع على نطاق أوسع. و ذلك أمرٌ طبيعي في الحقيقة، لأن أي بنية مهما كانت تتشكل أولا من خليه مفردة، تجتمع شيئا فشيئا بخلايا من نفس جنسها ، تتحد فيما بعد بفعل عوامل أخرى لتتشكل في الأخير البنية النهائية. بهذه الصورة تشكلت النهضة في الجزائر من أصوات فردية، قال عنها مالك بن نبي أنها مناجاة ضمير لصاحبه لم يصل صداها بعد إلى الضمائر الأخرى ليوقظها من نومها، اجتمعت هذه الأصوات فيما بعد بعامل الزمن و تطور الأحداث، لتشكل الضمير الجمعي الذي أيقظ الأمة و بعثها من نومها⁽²⁾ .

لقد انطلقت النهضة أصواتا متفرقة ، منعته سياسة الاستعمار من تكبير النضوج و الإتحاد وتحديد المعالم و الأهداف دفعة واحدة كما حدث في المشرق مع محمد عبده و جمال الدين الأفغاني . وكانت أصوات ينتابها النقصان سواء من ناحية الفكر أو الاتجاه أو الشكل . ورغم ذلك

(1) محمد علي ديبوز : نهضة الجزائر الحديثة و ثورتها المباركة ، ج2 ، ص 01.

(2) مالك بن نبي : شروط النهضة ، ص23

استطاعت أن تكشف جزءاً من واقع الجزائر المظلم ، و تساهم بالدعوة و الممارسة في نشر الأنوار، وتكون القاعدة الأولى التي انطلقت منها الحركة الإصلاحية و النهضة في القرن العشرين. و يمكن أن نذكر من بين هذه الأصوات: الصالح بن مهنا و عبد القادر المجاوي والمولود بن موهوب و عباس بن حمانة وعمر بن قدور و عمر راسم ومحمد بن رحال ... وحتى نشاط بن باديس ابتداءً في هذه المرحلة بشكل فردي إلى غاية 1920 و على ضوء ذلك يمكن تحديد هذه المرحلة زمنياً من حوالي النصف الثاني من القرن 19 حتى العشرينيات من القرن 20.

ب- المرحلة الثانية :

مرحلة العمل الجماعي : و تنطلق هذه المرحلة من سنة 1920 إلى 1931 ، حيث بدأت إرهاصات الدعوة إلى الإصلاح تتطور و أصوات التجديد تجتمع ، لأنها أدركت أنها من طينة واحدة ، و أنها قامت للهدف نفسه، فلم لا تتحد لتشكل قوة تتركب صهوة التغيير على نطاق أوسع و أشمل، و تتحدى عراقل الإستعمار بعزيمة أكبر . لقد بدأ المثقفون العائدون من رحلة طلب العلم بعد الحرب العالمية الأولى، و في طليعتهم ابن باديس و البشير الإبراهيمي والطيب العقبي والعربي التبسي ،ينشطون حركة إصلاحية في عمل جماعي موحد ، يسعون إلى نشره و توسيعه في كامل أنحاء البلاد كلما أتاحت لهم الفرصة في ذلك، ويسهمون في تطويره بحسب تطور الأحداث و حاجة المجتمع الجزائري. فعملوا على نشر التعليم العربي و توسيع نطاق المدارس الحرة عبر مختلف جهات الوطن، و جعلوا أفكارهم الإصلاحية تنتشر بين جماهير الشعب بواسطة الصحافة و النوادي و دروس الوعظ و الإرشاد في المساجد ... و من تم تحولت الأصوات الفردية إلى خطب و مقالات و محادثات و مناقشات و استيقظ الضمير الجماعي الذي أخذ يتساءل: كيف نمنا طويلاً ؟ وهل استيقظنا حقا ؟! و ماذا يجب أن نفعل ؟! ⁽¹⁾ وكانت الإجابة عن السؤال الأخير بتنظيم العمل الجماعي في هيئات ومنظمات خاصة. و من هنا تبدأ المرحلة الثالثة .

ج- المرحلة الثالثة :

مرحلة العمل الجماعي المنظم : و تمتد هذه المرحلة من سنة 1931 إلى غاية نهاية الحرب العالمية الثانية، أي منذ تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى غاية أحداث الثامن من

(1) المرجع السابق نفسه ، ص : 24 .

ماي 1945 . فإذا تطور العمل الجماعي الذي ابتداء مع ابن باديس و الإبراهيمي وغيرهما، بنفس المبادئ و لنفس الغايات و الأهداف ، كان عليه أن ينتظم و يتبلور في شكل هيئة أومؤسسة أوجمعية تسهر على السير الحسن و البناء لنشاطهم الإصلاحية، و كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هي الهيئة التنظيمية التي تأبطت أغلبية النشاط الفكري و التربوي و الثقافي و الأدبي و عملت على تسييره و برمجته و منهجته بما يتماشى و متطلبات العصر و خصوصيات المجتمع الجزائري الثقافية .

ثم كانت احتفالات الإستعمار بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر وما ظهر فيها من مظاهر الإستهزاء بالشخصية الجزائرية و بالدين الإسلامي و مشاعر الرغبة الشديدة في ترسيخ دعائم الجهاز الإستعماري، حافزا قويا لتعزيز نشاط المصلحين و تقويته و تنظيمه في إطار هذه الهيئة التي يمكن القول أنها قامت مقام الدولة الإسلامية في عنايتها برعاية المسلمين و شؤونهم الخاصة .

وقد عرفت هذه الفترة أيضا على الواجهة السياسية تبلور أغلب التشكيلات السياسية في شكل أحزاب وطنية تحددت برامجها و أهدافها و أدبيولوجياتها * والتي وإن اختلفت فإنها كانت تعمل جميعا في سبيل تغيير أوضاع البلاد بما هو أحسن، سواء عن طريق نشدان الإستقلال التام عن الدولة الفرنسية أو عن طريق السعي إلى تحقيق العدالة و المساواة بين سكان الجزائر من أجل الوصول إلى التقدم و الرقي بمساعدة الدولة الفرنسية.

ولم تكن أحداث الثامن ماي سنة 1945 لتضع حدا لهذا العمل التنظيمي، لكنها غيرت مساره و حددت هدفه و وجهته و من هنا تبدأ المرحلة الموالية.

د- المرحلة الرابعة:

مرحلة ما بعد النهضة :وتبتدىء من حوادث الثامن من ماي 1945 إلى غاية اندلاع ثورة التحرير الكبرى. و تعد هذه الفترة منعطفا حاسما في تاريخ النضال السياسي و الثقافي الجزائري، فقد أثبتت فرنسا بشكل قوي و عنيف أنها لن تتنازل عن الجزائر بسهولة، و عن السلطة المطلقة على أرواح الجزائريين و ممتلكاتهم، ولن تغير من سياستها الترهيبية الجبرية القهرية، بل أثبتت مرة أخرى أنها لا تزال مصرة على ما أقدمت عليه منذ 1830، في تحويل الجزائر إلى قطعة فرنسية الأرض

* تأسس حزب الشعب سنة 1936 الذي أصبح فيما بعد يسمى بحركة انتصار الحريات الديمقراطية و تأسست جمعية النواب تحت زعامة فرحات عباس 1935

والشعب والحضارة و السياسة والإقتصاد، والدوس بنعال اللامبالاة على كل ما يميز هذه الأرض من قيم مادية ومعنوية.

لقد أدرك الجزائريون بعد أحداث ماي الدامية أن ما أخذ بالقوة لن يرد بالمهادنة، وأن المراهنات السياسية لن تجد نفعا أمام إصرار المستعمر وتعنته، لذا كانت الفترة فترة تخمر الإستعدادات الثقافية والسياسية، وتفاعلها فيما بينها لتغيير سبل النضال والعمل لا من أجل تثبيت أركان الشخصية الوطنية في النفوس ولكن لإسترجاع سيادة هذه الشخصية في البلاد. فالمرحلة إذن مرحلة انطلاقة جديدة في مواجهة المستعمر بحيث وفرت المراحل السابقة من النهضة للمجتمع الجزائري ما كان ينقصه من وعي ونضج فكري لفهم واستعاب إيديولوجية المستعمر، ومنحته القدرة على استخدام أسلحته و تحديد نقاط ضعفه، فلم تعد تشكل المواجهة ضده ضربا من المخاطرة والجنون كما سبق وصرح والد الأمير عبد القادر ⁽¹⁾ بل أصبحت تتطلب التخطيط والتنظيم والدقة والإحكام. لذا تميزت الفترة بالإستعدادات الثقافية والسياسية والتهيئة النفسية لخوض معركة المصير. وكانت الدعوة على الصعيد الأدبي والثقافي دعوة إلى الإتحاد وإلى الجهاد والأخذ بكل ما تقتضيه الحاجة لخوض معركة ناجحة ضد الإستعمار. وما هي إلا تسع سنوات حتى انطلقت رصاصة ثورة التحرير الكبرى في الفاتح من نوفمبر 1954 تستقطب جميع الحركات الثقافية والسياسية وتصبها في بوتقتها، معلنة الدخول في معركة جديدة هي مرحلة الجهاد.

(1) يقول محي الدين والد الأمير عبد القادر " أمام وضع كهذا تصور معركة منصوة ضد الكفار يكون حماقة ، أما المحاولة فقد تكون جنونا .. " عبد القادر جغلول : الاستعمار و الصراعات الثقافية في الجزائر ، ص 35 .

4/ اهتماماتها:

قامت النهضة في الجزائر بغية بناء الداخل لمواجهة الداخل، أي إصلاح الأمة وتقويتها من الداخل لتتمكن من مواجهة الخطر الخارجي الذي يهدد كيانها. ويتركز هذا البناء على الأسس التالية:

* تصحيح العقيدة وتطهير الدين الإسلامي مما التصق به من شوائب وبدع كرسيتها الطرقية، هذه التي يعزي إليها أغلب مظاهر التخلف والجمود بخاصة حين حولت الدين إلى طقوس تحت على الشعوذة والخرافات والتعلق بالكرامات وتقديس الأولياء، وتغرس في المجتمع روح الإتكالية مع ترك العمل والجهد.

* ترسيخ دعائم الإسلام الصحيح في المجتمع بكل ميراثه الروحي والحضاري والثقافي والأخلاقي.

* إصلاح اللغة العربية من حيث هي لغة القرآن ولغة الحضارة التي تنتمي إليها البلاد، ووعاء الثقافة وترجمان الأفكار.... إذ لن يتم تقديم أي خطوة في مجال الإصلاح والبناء الحضاري دون بعثها وتطويرها.

* إصلاح الفرد الجزائري وتنمية قدراته الذاتية وتوعيته وتقويم أخلاقه وكشف مواهبه الأدبية.

* إصلاح المجتمع وتطهيره وترقيته فكريا وثقافيا واجتماعيا.

* تدعيم أركان الشخصية الجزائرية وبعث الأمة بعروبيتها وإسلامها وتاريخها.

* بعث الأدب وتطويره لغة وفكرا ليساهم بدوره في بناء الأمة وتطويرها.

* تهيئة المجتمع الجزائري للعمل من أجل التخلص من آفة الإستعمار وتحرير البلاد من ظلمه

وسلطانه. وعلى هذه الأسس كانت اهتمامات النهضة تتمحور حول مايلي:

أ- التعليم:

يعد التعليم بمثابة بوابات النور التي تفتح مشرعة على المستقبل والتي بدونها يصبح

مستقبل الأمة مظلمًا لا تستطيع أن تتبين فيه خطاها أو تلمس سبيلها. ويمثل كل من التربية

والتعليم في نظر الإمام محمد عبده، رائد الإصلاح والتجديد في العالم العربي الإسلامي، السبيل

الأقوم للنهوض بالمجتمعات الإسلامية وتكوينها تكوينًا قويًا لا يستطيع معه المستعمرون

أن يسيطروا عليها أو يستمروا في احتلال أوطانها ونهب ثرواتها. (1) أما في نظر البشير

(1) تركي رابح : الشيع عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح و التربية في الجزائر . ص 240 .

الإبراهيمي فالتعليم أساس أي نهضة مهما كانت طبيعتها ومستواها، فرغم أن الأمم المتقدمة قد حققت تقدمها ورقيا بالعلم الإختباري التطبيقي فإن أساس هذا العلم ومهما ارتفع مستواه: القراءة والكتابة أي "ألفبا" ⁽¹⁾. هي حقيقة أكدها ابن باديس قولا وعملا حين رأى أن إصلاح أمور التربية والتعليم هو أساس الإصلاح والمنشود في البلاد والنهضة المقصودة... ⁽²⁾ فبنى نهجه الإصلاحي على ضوء هذا الرأي.

ويعد عبد الحميد بن باديس رائدا للإصلاح التعليمي والتربوي في الجزائر بلا منازع فهو أكثر من صدق الإيمان بالعمل، والنظرية بالتطبيق، والأفكار بالممارسة. وقد جمع حوله ثلة من العلماء والمصلحين والأدباء يدعمونه بالفكرة والكلمة، ويؤازرونه بالعمل، في نشاط دائم لا يعرف الكلل والإحباط رغم عراقيل الإستعمار. ولعل هذين العاملين: الإصرار والعمل الجماعي هما اللذان كلا سعي ابن باديس بالنجاح والإنتشار رغم قساوة الظروف المحيطة به. فالمحاولات التي سبقته كانت كلها محاولات جزئية فردية وغير شاملة، ⁽³⁾ يشبه الفرق بينها وبين برنامج ابن باديس الإصلاحي، إلى حد كبير، الفرق بين تلك الثورات الشعبية المتفرقة التي اندلعت في القرن التاسع عشر في كامل القطر الجزائري عبر أزمنة متعددة، وبين وثورة التحرير الكبرى؛ بحيث كانت هذه الثورات جميعها، وعلى كثرتها يعوزها التنظيم والشمولية على عكس ثورة التحرير. كذلك أكتسبت الثورة الفكرية التي خاضها ابن باديس طابع التنظيم المحكم والتخطيط والشمولية فحققت نجاحا باهرا في المجال الثقافي، وأدخلت الجزائر في حركة النهضة الإسلامية العامة ⁽⁴⁾

لقد استهل ابن باديس نشاطه التربوي بصورة فردية مند سنة 1913 إلى سنة 1920، وكان يدرس بمساجد قسنطينة ⁽⁵⁾ ويعد أول من ابتدأ حركة التعليم في المساجد للصغار. ⁽⁶⁾ و بعد عودة الإبراهيمي والعقبي من المشرق في نهاية الحرب العالمية الأولى ابتدأت معهم مرحلة العمل الجماعي، فاستقر الإبراهيمي في سطيف والعقبي ببسكرة ثم بالعاصمة بعد ذلك، وابن باديس

(1) محمد البشير الإبراهيمي : آثاره ، ج 1 ، ص 192 .

(2) تركي رايح : الشيع عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح و التربية في الجزائر : ص 241 .

(3) تأسست أول مدرسة عصرية بمدينة تبسة سنة 1913 ، أسسها عباس بن حمادة وهو من المصلحين الأوائل بالمنطقة ، مالك بن نبي : مذكرات شاهد القرن "الطفل" ص 30 ، كذلك محمد علي ديبوز : نهضة الجزائر الحديثة و ثورتها المباركة ، ج 2 ، ص 262 و ما بعدها .

(4) عمار طالبي : ابن باديس حياته و آثاره ، ج 1 ، ص 71 .

(5) استهل التدريس بالجامع الكبير بقسنطينة ثم رابط في الجامع الأخضر أكثر من ربع قرن . ومن أهم المساجد التي درس فيها أيضا مسجد سيدي قموش و مسجد سيدي بومعزة و مسجد سيدي عبد المومن . سليمان الصيد : نفع الأزهار عما في مدينة قسنطينة من الأخبار ص 196 و ما بعدها .

(6) كانت مساجد قسنطينة من قبله مقصورة على دروس الوعظ و الإرشاد ، للكبار أما الصغار فكان يتم تعليمهم في الكتاتيب و لما جاء ابن باديس أخذ يعلم الصغار في المساجد في الفترة الصباحة و فترة بعد الظهر أيضا . تركي رايح : الشيع عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح و التربية في الجزائر ، ص 353 .

بقسنطينة والشرق كله. وقد اجتمعوا كلهم على حركة إصلاح شامل أساسه تعليم النشء التعليم الجاد النافع وتربيتهم التربوية الصالحة بالتدريس و الوعظ والإرشاد في المساجد، وبتأسيس المدارس العصرية التي تتماشى ومستوى التعليم الحديث بطرقه العصرية ومناهجه الحديثة. وكانوا في ذلك كله متشبعين بروح العمل الجاد، هدفهم إنشاء جيل واع مثقف تتكئ عليه الأمة في نهضتها وتعتمد عليه في الخروج من محنتها.

ولما تأسست جمعية العلماء المسلمين سنة 1931، اندرج تحت لوائها أغلبية نشاط العلماء والمصلحين الثقافي والفكري، فأصبحت بالتالي هي المؤسس والمخطط والمنظم والمشرف والموجه لمعظم حركة التعليم العربي الحر في الجزائر، منذ تأسيسها وحتى اندلاع ثورة التحرير الكبرى، وتعتبر جهودها في الميدان الثقافي من أكبر الجهود أثرا و أهمها فعالية، فقد أسست وأشرفت على عدد لا بأس به من المدارس الحرة التي نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: مدرسة دار الحديث بتلمسان ومدرسة الفلاح بوهران ومدرسة التربية والتعليم بقسنطينة ومدرسة العلمة ومدرسة حسين داي بالعاصمة ومدرسة الفتح بسطيف ومدرسة رسوطة بطولقة⁽¹⁾ وقد قدرت مجلة الشهاب مدارس الجمعية في الفترة ما بين 1934 - 1935 بسبعين مدرسة ذات القسم الواحد أو القسمين تدرس حوالي ثلاثة آلاف تلميذا.⁽²⁾ أما السيد مطران Mautran رئيس الوفد الفرنسي الذي زار مدينة الجزائر سنة 1954 فقد أورد في إحدى تقاريره أن هذه الجمعية كانت تشرف على مايزيد عن المائة والخمسين مدرسة تعلم بها قرابة الخمس والأربعين ألفا من البنات والبنين⁽³⁾. وكان مطران شديد التقدير لجهود الجمعية حيث أورد في أحد تقاريره: " ونحن لا يسعنا إلا أن ننثي الثناء الحار على هذا المجهود الصالح الذي تقوم به هذه الجمعية"⁽⁴⁾.

وكانت مدارس الجمعية تتميز بطراز عمراني رفيع وموحد تجمع فيه بين ذوق العصر ومتطلبات التعليم الحديث والفن المعماري الإسلامي، مكونة في مجموعها وحدة منسجمة تهدف إلى تكوين أجيال جزائرية منسجمة في أذواقها وتفكيرها و متحدة في اتجاهها الوطني والقومي⁽⁵⁾

(1) تركي رايح : التعليم القومي و الشخصية الوطنية ،ص375 وما بعدها .

(2) نفسه : ص : 232 .

(3) نفسه .

(4) نفسه . ص 217 .

(5) نفسه .

وكانت الجمعية تشرف على كل ما يتعلق بالحركة التعليمية من مناهج ومضامين وتمويل وتعيين المعلمين والعاملين وتنظيم الطلبة وسير الإمتحانات.... كما كانت تشرف على دروس المساجد وبعض الجمعيات وتنظيمها. وأصبحت من هذا المنظور الهيئة الرسمية التي تهتم بجميع شؤون التعليم العربي، وتعد مكانتها في ذلك الوقت كمكانة وزارة التربية والتعليم في عصرنا الحالي. بل إن جهودها كانت أكثر تركيزا وكثافة من جهود تلك، وأكثر حماسا وصدقا، بل وأكثر قلقا على تغيير الوضع الثقافي من منطلق تعليمي تربوي أصيل ومتين.

ورغم أن جهود الجمعية قد عمت على أغلب النشاط التعليمي والتربوي، فذلك لا يلغي إسهامات الجهات أخرى في الميدان سواء أكانت تابعة لهيئات أخرى أو كانت مبادرة شخصية من طرف بعض الأفراد أو الجماعات. و نذكر على سبيل المثال معهد الحياة بالقرارة الذي أسسه والد الشيخ إبراهيم بيوض وأوكل مهمة التدريس فيه إلى ابنه ⁽¹⁾ مدرسة الشبيبة الإسلامية التي تأسست في حي باب الجديد بالعاصمة سنة 1927 ثم نقلت بعد بضع سنوات إلى حي الثعالبي وشارك في إدارتها كل من عمر بن قدور ومصطفى حافظ و محمد الهادي الزاهري ومحمد العيد آل خليفة ⁽²⁾ ومدرسة السلام أيضا في المنطقة نفسها برئاسة السيد عمر إسماعيل... ⁽³⁾ و أيضا بعض المدارس التي تأسست تحت لواء " حزب الشعب" والتي من بينها مدرسة الرشاد بالعاصمة ومدرسة القل ومدرسة سطيف.... ⁽⁴⁾

ب - تأسيس النوادي والجمعيات:

وقد ازدادت الحاجة إلى تأسيسها خاصة بعد تبلور النهضة في البلاد؛ فالمجتمع الجزائري إنما يتكون من ثلاث فئات: صغار تضمهم المدارس و كبار تجمعهم المساجد، وشباب يمكن أن تتخطفهم الأزقة وأماكن الخمر و الفجور فتدفعهم إلى طريق الانحراف. ⁽⁵⁾ لذا تأسست النوادي وكانت وسائل هامة لحمايتهم وتثقيفهم وتوعيتهم، ولتنمية أذواقهم وصقل مواهبهم من جهة أخرى.

(1) محمد علي دبور : نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة ج3 ، ص 14 و ما بعدها .

(2) تركي رايح : التعليم القومي و الشخصية الوطنية ، ص: من 240 إلى 251 .

(3) أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج3 ، ص: 248 ، 249 .

(4) تركي رايح : التعليم القومي و الشخصية الوطنية ، ص: من 240 إلى 251 .

(5) نفسه : ص 229 .

وكان الطابع العام لهذه النوادي والجمعيات جميعا هو العروبة والاسلام، حتى تلك التي يشرف عليها جزائريون مثقفون بغير الثقافة العربية واللغة الوطنية كالجمعية التوفيقية و الجمعية الرشيدية ... (6) وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على مدى إنتقاء الإتجاهات الفكرية في بوتقة واحدة إذا ما تعلق الأمر بالجانب الثقافي البحت الذي لا بد أن يكون عربيا إسلاميا (1) وقد نشطت هذه المؤسسات بصورة ملفتة للإنتباه قبل وبعد الحرب العالمية الثانية رغم أن أصولها تمتد في الزمن إلى ما قبل ذلك (2) وكان نشاطها يتمحور حول تربية الشباب وتثقيفهم وتشجيعهم على العمل الصالح والمفيد لصالحهم وصالح مجتمعهم، وقد مثلت من ناحية أخرى مراكز لإجتماع العلماء و المصلحين والأدباء، ينظرون في الأوضاع التي آلت إليها البلاد ويتبادلون الآراء والأفكار.... ومن بين أهم هذه النوادي والجمعيات: نادي الترقى الذي تأسس سنة 1927 و نادي السعادة الذي أسسه حمزة بوكوشة في نفس الفترة و نادي السلام الذي تأسس سنة 1934 بتيزي وزو والجمعية الإسلامية بباتنة 1937، و نادي الإرشاد بسطيف الذي ترأسه فرحات عباس سنة 1935... (3)

ج- الصحافة:

دخلت الجزائر مرحلة العشرينيات برصيد لا بأس به من الصحف العربية والفرنسية اللسان. (4) ووجد من الصحفيين اقتنعوا بأن الصحافة رسالة حضارية (5) ذات دور فعال في إيصال أصواتهم وتبليغ أفكارهم والمطالبة بحقوقهم....وكانت لهم فيها على اختلاف أسنتهم ومنطلقاتهم الفكرية والإيديولوجية آراء مختلفة حول القضايا الإجتماعية والسياسية والثقافية والإقتصادية.... لكن تبقى هذه الصحف خاصة العربية منها، وعلى تفاوتها فيما بينها قوة وضعفا يعوزها النضج وتحتوي على العديد من العيوب والنقائص سواء ماتعلق منها بالجانب اللغوي أو الفني أو الفكري أو الادبيولوجي. وكانت عليها أن تنظر فترة العشرينيات لتفاعل عناصر

(6) عمار هلال : أبحاث و دراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830 – 1962) ص : 261 .

(1) المرجع السابق نفسه : ص 262 .

(2) نذكر مثلا نادي صالح باي بقسنطينة سنة 1907 و الجمعية الرشيدية سنة 1902 و التوفيقية 1908 ... عبد الكريم بوصفصاف : الفكر العربي الحديث والمعاصر - ص 168 كذلك Ageron Charles R : L'histoire de l'Algérie Contemporaine, P : 134 .

(3) عمار هلال : أبحاث و دراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830 – 1962) ص : 270 و ما بعدها .

(4) عرفت الجزائر الصحافة عن طريق الاستعمار لكن سرعان ما تنبه إليها الجزائريون و إلى مزاياها فأسسوا صحافة خاصة بهم ، عن الصحف الجزائرية التي ظهرت قبل 1920 ينظر محمد ناصر : الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939 . ص : 9 وما بعدها كذلك : Zahir Ihaddaden : l'histoire de la presse indigène p,p13 , 14 .

(5) Cherif Ben habilesse : l'Algérie Française vue par un Indigène . p 11 .

تطورها وتكتمل عوامل نضجها من تطور التعليم وانتشاره وعصرنته، لتظهر في صورتها الناضجة فكرا وشكلا وفنا ولغة، وقد حصل ذلك فعلا سنة 1925 مع جريدة المنتقد.

وبذلك يعد ابن باديس من البناة الأوائل للصحافة العربية في الجزائر، ومن الذين أرسوا دعائمها على أسس متينة من الإيمان بالمبدأ والوطنية وتطبيق التقاليد الصحفية العالمية. (1) وهو أحد الذين عملوا فيها عملا جادا طويلا (2) يتسم بالصدق والعزيمة والثبات رغم ما كان يتلقاه وصحافته من مضايقات من طرف الإستعمار الفرنسي. (3) لقد أراد ابن باديس أن يطبع عمله الإصلاحى بطابع الشمولية حين يكسبه القدرة على تجاوز الحدود الجغرافية التي يتواجد فيها ويعمل فيها هو شخصيا، لينتشر في كل مكان تصل إليه صحيفته وإلى كل قارئ تقع أعينه على ما كتب على أعمدته. لقد تعاطى ابن باديس ومن اجتمع حول مشروعه الاصلاحى الصحافة وجعلها من اهتماماته بغرض التقرب من الجزائريين، لا من هم في محيطه فقط بل من هم في مساحة راحت تتسع أكثر فأكثر (4) يبيث فيهم آراءه ويغذيهم بأفكاره الإصلاحية ويفتح لهم باب المشاركة لطرح تصوراتهم وإبداعاتهم وآرائهم النقدية.

وتعد جريدة المنتقد الأنموذج المكتمل والأول للجريدة العربية الإصلاحية الوطنية الحرة وكان ابن باديس رئيس تحريرها وبوشمال مديرها الإداري. وقد كانت جريدة لاذعة اللهجة شديدة الإنتقاد لتصرفات الإدارة الإستعمارية - كما يشير اسمها - ولأوضاع المجتمع الجزائري ولأصحاب الطريقة... تعرض إلى مواطن النقص التي دفعت بالبلاد إلى الهاوية وتقترح في الوقت ذاته طرق إصلاحها. بل وكان شعارها في حد ذاته يتألف من كلمتين هما من أبغض ما يتلقاه الإستعمار من المجتمع الجزائري: الحق والوطن. (5) ورغم ما جاء فيها من تمويه بأنها جريدة وطنية تعمل على سعادة الأمة الجزائرية بمساعدة فرنسا الديمقراطية، فان هذه الأخيرة لم تتوانى في كشف أهدافها الحقيقية ومبادئها فسارعت في تعطيلها بعد صدور 18 عدد فقط منها أي في 25 / 10 / 1925 . (6)

(1) تركي رايح : الشيع عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح و التربية في الجزائر ،ص 188 .

(2) كان أول اتصال لابن باديس في الصحافة في جريد النجاح ثم انفصل عنها لخلاف حول نهجها الإصلاحي فيما يبدو .

(3) تركي رايح : الشيع عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح و التربية في الجزائر ، كذلك رشيد الداودي : رواد الإصلاح ، ص 124 .

(4) الجيلالي صاري ، محفوظ قداش : المقاومة السياسية (1900 - 1954) الطريق الإصلاحي و الطريق الثوري ، ص 245

(5) عمار طالبي : آثار بن باديس ، ج1، ص 83 .

(6) محمد ناصر : الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939 ، ص : 54 .

وبعد مضي ثلاث عشرة يوما فقط من تعطيل المنتقد سارع ابن باديس إلى إصدار جريدة أخرى تحمل اسم الشهاب (1) التي تفتني آثار المنتقد في المبادئ والشكل والأفكار والمضمون، وتحمل الشعارات ذاتها التي دبجت بها تلك. لكنها صدرت بلهجة تتسم بالمرونة والمواربة لتتحاكى مضايقات الإستعمار، فاستطاعت بذلك أن تعمر أكثر من الأولى إذ استمرت في الصدور بشكل دائم إلى غاية اندلاع الحرب العالمية الثانية سنة 1939. كما كانت جمعية العلماء المسلمين في الوقت ذاته تصدر جرائدها الصحفية التي تجعلها لسان حالها وترجمان مبادئها وأسسها الإصلاحية، من بينها "السنة" (2) و"الشريعة" (3) و"الصراط" (4) والتي قامت بتعطيلها جميعا إدارة الإحتلال الواحدة تلو الأخرى.

ولعل الصحيفة الوحيدة التي استطاعت أن تصمد وتستمر في الصدور في جعبة جمعية العلماء المسلمين هي صحيفة "البصائر" (5) والسبب في استمراريتها يرجع إلى رحيل الحاكم العام "جاننت ميرانت" الذي كان معروفا بسياسته المعادية للإصلاح، بحيث سبق وأن أصدر قرارا يمنع الجمعية من إصدار أي جريدة أخرى بعد الصحف الثلاث التي أوقفها، ودام هذا التحجير مدة سنتين (6) ولما جاء المدير الجديد "ميو" اتصل به علماء الجمعية وعملوا على تحسين علاقتهم به وتظاهروا بنوع من الولاء له و لحكومته، وعبروا له عن مقصد الجمعية وهو العناية بتربية الشعب وتهذيبه، وتعليمه لغته ودينه، وابتعادهم كليا عن السياسة ودروبها، فرخص لهم بإصدار هذه الجريدة. (7)

وبالإضافة إلى جرائد وصحف جمعية العلماء ، كان تاريخ الجزائر الثقافي في الفترة ما بين 1925 إلى غاية اندلاع ثورة التحرير حافلا بالأسماء الصحفية اللامعة من جرائد ومجلات والتي أذكت فعاليات النشاط الثقافي وجمعت على صفحاتها ألمع الأعلام الأدبية والإصلاحية، فعبرت

(1) برز العدد الأول منها في 12 نوفمبر 1925 وكانت تصدر مرة كل أسبوع ثم أصبحت مرتين في الأسبوع ، محمد ناصر : : الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939 ، ص 58 .

(2) صدر العدد الأول منها في 01 مارس 1933 و أوقفتها السلطات الفرنسية في 01 جويلية 1933 نفسه ، ص: من 130 إلى 132 .

(3) صدرت بتاريخ 17 جويلية 1933 و توقفت في 28 أوت 1933 . ص: ص: 150 ، 151 .

(4) صدرت بتاريخ 11 سبتمبر 1933 و توقفت في جانفي 1934 ، نفسه، ص: 181 .

(5) صدرت في 27 ديسمبر 1935 و توقفت أثناء الحرب التحريرية الكبرى ، نفسه، ص: ص: 190 ، 191 .

(6) محمد ناصر : : الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939 ، ص 191 .

(7) نفسه .

بصدق عن حركية ثقافية لم تعدها البلاد من قبل، بصرف النظر عن اتجاهاتها ونزعاتها والتي كانت في أغلبها إصلاحية وطنية. ومن بين هذه الأسماء نذكر على سبيل المثال لا الحصر: "صدى الصحراء" التي أصدرها أحمد بن العابد العقبي ببسكرة سنة 1925 (1) وادي مزاب التي أصدرها أبو اليقظان بالعاصمة سنة 1926 و توقفت في سنة 1929. (2) "الحق" التي أصدرها علي بن موسى العقبي ببسكرة سنة 1926 وانقطعت عن الصدور في نفس السنة لمشاكل مادية. (3) "البرق" التي أصدرها محمد السعيد الزاهري بقسنطينة سنة 1927، و عطلت في نفس السنة بقرار حكومي (4) "الجزائر" التي أسسها محمد السعيد الزاهري أيضا بالجزائر سنة 1925 و لم يصدر منها سوى 3 أعداد فقط. (5) ... وقد ناضلت هذه الصحف جاهدة لكي تؤدي دورها ورسالتها الحضارية على أتم وجه، وأصر صناعها على الكفاح مهما كانت الظروف والعوائق ورغم ما كان يصادفها من عراقيل وعقبات.

د- حركة التأليف:

لم تكن حركة التأليف في الجزائر تلك الحركة الواسعة الشاملة والفعالة التي يمكن الإعتماد عليها في الترقية الفكرية والثقافية والأدبية للمجتمع الجزائري بل كانت تسير بوتيرة بطيئة جدا إذا ما قورنت بما هي عليه في البلدان المجاورة و يرجع ذلك إلى قلة المطابع العربية (6) وإلى الرقابة الشديدة التي سلطتها الإدارة الإستعمارية على النتاج الفكري والثقافي. لكن ما ألف من كتب في هذه الفترة كان على درجة كبيرة من الأهمية في توعية المجتمع الجزائري وتفعيل حركيته الثقافية والأدبية.

وقد أولى الجزائريون عناية فائقة بالتأليف في مجال التاريخ، و الذي جاء الاهتمام به كرد فعل على سياسة الإحتلال التي استهدفت تاريخ الأمة بالتشويه والتزييف والتزوير، ولأهميته أيضا ودوره الفعال في تكوين الشخصية القومية والوطنية للجزائريين. وقد ألف بعض المصلحين كتبا

(1) المرجع السابق نفسه ، ص 62 .

(2) نفسه : ص 65 .

(3) ، نفسه ، ص:ص: 79 ، 80 .

(4) ، نفسه ، ص:ص: 83 .

(5) نفسه

(6) إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية كان يوجد بالجزائر المطابع التالية : المطبعة الثعالبية بالعاصمة ، مطبعة جريدة النجاح بقسنطينة، المطبعة الإسلامية (مطبعة مجلة الشهاب) بقسنطينة ، مطبعة جريدة البلاغ بالعاصمة ، المطبعة العربية الحديثة بالعاصمة لصاحبها أبي اليقظان ، تركي رابح : الشيع عبد الحميد بن باديس راند الإصلاح و التربية في الجزائر ، ص 120 .

تاريخية قيمة تناولت بالعرض والتسلسل الزمني تاريخ الجزائر في مختلف عهودها، يكشفون فيها للمجتمع عراقة ماضيه وبطولات آباءه وأمجاد أجداده، وتحفز الجيل الصاعد للعمل على كسب استحقاقية وراثة هذا الإرث واحتضانه (1) فألف مبارك الميلي سنة 1928 كتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" (2) وألف أحمد توفيق المدني "كتاب الجزائر" (3) سنة 1931، وكلاهما الميلي والمدني، من الرواد الأوائل لجمعية العلماء المسلمين. وقد بينا دوافعهما لهذه التأليف وأوضحاها في مقدمة كل من الكتابين؛ فالميلي يعرف التاريخ في مقدمة كتابه بأنه: مرآة الماضي ومصعد الحاضر، وشهادة حياة الأمة، وسجل أعمالها الشريفة، وتذكارات عبقريتها، ورباط وحدتها وميزان تقدمها (4) وهو تعريف لا يخلو من الإثارة وبعث الحمية في نفوس الشباب القارئ لتاريخ وطنه، بينما دمج أحمد توفيق المدني كتابه بالشعار الذي اتخذته الحركة الإصلاحية مبدأ لها: "الإسلام ديني والعربية لغتي والجزائر وطني" (5) ثم يعالج في مقدمة كتابه مشكلة الفراغ الذهني التاريخي لدى الشباب الجزائري الذي ينقسم في نظره إلى طائفتين، طائفة ذات ثقافة فرنسية ممزقة بين انجذاب إلى تاريخ الدخيل ونفور من تاريخها المشوه، وأخرى ذات ثقافة عربية خانها المرجع الذي يربطها بماضيها بأصالتها ونزاهته. (6) وقد دفعه قلقه على المستقبل القومي للشباب إلى محاولة تعريفه بتاريخه وتخليط الضوء على ماضي أجداده وتراثهم. وفي الميدان الأدبي ألف الكاتب والشاعر محمد الهادي السنوسي الزاهري كتاب "شعراء الجزائر في العصر الحاضر" الذي يعد نقلة نوعيه في الشعر الجزائري الحديث والمعاصر بما تميز به من ملامح التجديد في الشكل والمضمون واللغة والأسلوب. فهو عبارة عن ديوان شعر جمع مجموعة من القصائد لبعض شعراء تلك الفترة، ويقع في جزئين طبع الأول سنة 1926 والثاني سنة 1927 بتونس، تميز بنظام خاص؛ حيث أرفق كل مجموعة شعرية بترجمة خاصة لشاعرها بلسان هذا الشاعر ذاته، إلا من أوكل هذه المهمة للزاهري. ووضع صورة فوتوغرافية لكل شاعر من شعراء الكتاب ما لم يكن معهودا من قبل في الكتب والدواوين. (7) والجديد في الكتاب أيضا أن الزاهري اشترط في أغراض القصائد أن تبتعد عن أغراض الهجاء والمدح

(1) صالح خرفي: الشعر الجزائري، ص 98.

(2) يقع في جزئين، ظهر الأول في سنة 1928 والثاني في سنة 1932 وكان ينوي صاحبه استكمال حلقات دراسته بجزء ثالث، لكن المرض والمنية لم يسمحا له.

(3) تناول تاريخ الجزائر في عدة عصور و عدة مجالات.

(4) مبارك الميلي: تاريخ الجزائر القديم والحديث، ص 11 وما بعدها.

(5) أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، ديباجة الكتاب.

(6) نفسه، ص 2 وما بعدها، كذلك صالح خرفي: الشعر الجزائري، ص 99.

(7) محمد الهادي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر: ج 1، ص 9.

والرثاء، باستثناء رثاء أو مديح في الرجال العظماء، وذلك لما يوجد من هوة -كما يقول - بين هذه الأغراض والأوضاع المزرية التي تعيشها البلاد آنذاك. وتلك في الحقيقة دعوة إلى الكتابة في الأغراض الوطنية والإجتماعية التي يعبر فيها الشعراء عن هموم وطنهم وآلام مجتمعهم ويسهمون في استنهاض الهمم وبعث المجتمع إلى اليقظة والنهضة.

وفي سنة 1931 طبع أبو اليقظان ديوانه الشعري الذي جمع فيه قصائده التي أنتجها منذ انبثاق فجر النهضة. وكانت معظمها ذات أغراض إصلاحية إجتماعية وطنية، مثلت بدورها وسيلة من الوسائل الثقافية الهامة التي استفادت منها الحركة الإصلاحية ووظفتها في خدمة المجتمع الجزائري ثقافيا وفكريا. كما ظهر في هذه الفترة أيضا وعلى يد النخبة ذات الثقافة الفرنسية، نوع من الكتابة الأدبية ذات اللسان الفرنسي، سماها أحمد العناصرى بالأدب الإجتماعي - السياسي (1) وهو أدب يترجم هموم الشعب ويعبر عن اهتمامات هذه الإنتلجنسيا واتجاهاتها الثقافية (2) فبعد كتاب الشريف بن حبيلس الجزائر " الفرنسية من وجهة نظر أهلي " « L'Algérie Française vue par un indigène » ألف فرحات عباس كتاب الشاب الجزائري « Le jeune Algérien » و ألف الأمير خالد كتاب "وضعية مسلمي الجزائر " « La situation des musulmans d'Algérien » . (3) وقد كانت في مجملها دراسات للأوضاع الراهنة في المجتمع الجزائري.

وابتداء من العشرينيات انطلقت براعم من الكتابات الروائية والقصصية باللغة الفرنسية، فتحت بغض النظر عن مستواها الفكري والفني، نافذة جديدة للأدب الجزائري على نمط جديد من التعبير النثري استطاع أن يخطوا بعد الحرب العالمية الثانية خطوات جبارة، حيث أنتج في فترة الأربعينيات ما يقارب من اثني عشرة قاصا ما يقرب من الخمسين قصة أو رواية (4) برعوا في التعبير فيها بلغة المستعمر واستوفوا فيها الشروط الفنية للنثر القصصي و الروائي، تناولوا فيها أغراضا تعبر جيدا عن المشاكل والآفات الخاصة بتلك الحقبة كالعنصرية والإستلاب الثقافي والبحث عن الهوية والأصول والأجداد.... (5) أما ما ظهر من هذا النمط الكتابي في فترة

(1) Ahmed Lanasri : Mouhamed oueld Cheikh , un romancier Algérien des années trente , p 34 .

(2) Ibid , p 35

(3) Ibid ,p: de30à 36 .

(4) جيلالي صاري و محمود قداش : المقاومة السياسية (1900 - 1954) الطريق الإصلاحي و الطريق الثوري ، ص 203 .

(5) نفسه.

العشرينيات والثلاثينيات فنذكر على سبيل المثال: قصة zohra la femme du mineur التي ألفها الحاج حموعبد القادر سنة 1925 ورواية ELEUGDJ CAPTIF Meriem DANS التي ألفها شكري خوجة سنة 1929 ورواية les palmes التي ألفها محمد ولد الشيخ سنة1936....⁽¹⁾.

هـ - العلماء:

يشكل العلماء، أو المتقنون وذلك بعبارة أكثر شمولية، إحدى البنى الأساسية التي تتألف منها الأمة، فبهم يصنع ماضيها ويحدد حاضرها ويرسم مستقبلها، و بصلاحيهم يصلح المجتمع ويفسد بفسادهم، يتقدم بما يقدمون من جهود ويتخلف بما يظهر منهم من علامات التواني والتقصير ويحدد المستوى العلمي الذي يبلغونه دورهم في المجتمع ومدى قدرتهم على تغيير أوضاعه ومصيره. وقد قامت النهضة الفكرية والأدبية في الجزائر على كواهل علمائها و متقفيها إذ كانوا من يقف خلف كل الممارسات الفكرية والأدبية والثقافية من صحافة وتعليم وحركة تأليف وإنشاء نواد وجمعيات.....

و خلقت ظروف الإحتلال وسياسته في الميدان الثقافي نخبا متنوعة الأفكار والبرامج والإيديولوجيات، اتفقت جميعا على ضرورة الترقية الفكرية والثقافية للمجتمع. فظهرت النخبة ذات الثقافة الفرنسية، وهم جماعة من الجزائريين ساعدتهم الظروف للإلتحاق بالمدرسة الفرنسية وبجامعاتها ومعاهدها، أطلقت عليهم الصحافة والدوائر السياسية الفرنسية اسم النخبة " ELITE " تمييزا لهم عن بقية أفراد المجتمع، وتشجيعا لهم على مواصلة السير في طريق إدماج الجزائر بفرنسا. وفي سنة 1911 عرفهم أحد المنتمين إليهم وهو الشريف بن حبيلس أنهم تلك الثريا من الشباب المتخرجين من الجامعات الفرنسية، والذين استطاعوا السمو بأعمالهم على الجماهير وأن يكونوا في مصاف ناشري حضارة حقيقيين.⁽²⁾ وحسب بن حبيلس، تضم هذه الفئة أقلية من الشباب الجزائري الذين تلقوا تعليما جيدا بالمراكز التعليمية الفرنسية، والذين يشغلون مناصب في السلك الوطني أو المحاماة أو التعليم أو القضاء الإسلامي.⁽³⁾

(1) Ahmed Lanasri : : Mohamed oueld cheikh un romancier Algérien des années trente : p 35 .

(2) Cherif Ben Habiles : L'Algérie Française vue par un Indigène, p 107.

(3) Ibid ,p 110

ويطلق عليهم شارل أندري جوليان إسم " المتطورين " ويقول أنهم كانوا : " مناهضين للإستعمار وإصلاحيين، ينتظرون من فرنسا تدابير تطابق المبادئ التي لقتهم إياها في المدرسة الفرنسية" (1) ، وتعد جهودهم في الميدان الثقافي على جانب كبير من الأهمية، فقد كانوا دعاة تفكير وتجديد واجتهاد، تبنوا الفكر الغربي ودعوا إلى الإعتماد على أسس الحضارة الغربية والإستفادة من علومها الحديثة وتكنولوجياتها المتطورة، مؤمنين في ذلك بأن النهضة التي لانقوم على أساس تعليم جاد عصري ونافع لن تقوم أبدا. وقد كانوا من المبادرين للإشتغال بالصحافة وتأسيس النوادي والجمعيات ذات الطابع الإجتماعي والثقافي. وتعد إسهاماتهم بمثابة النواة الأولى لقيام النهضة الثقافية بالجزائر، بحيث سميت حركتهم بحركة " الجزائر الفتاة" على غرار تركيا "الفتاة" أو مصر "الفتاة" أو تونس " الفتاة ". (2) ومع مرور الزمن أصبحت تشكل هذه النخبة مصدر تخوف السلطات الإستعمارية خاصة وأنها في نظرهم بدت وكأنها تتبنى الفكرة القومية أو الوطنية. (3) ولكن ما يعاب على هذه الفئة هو عدم انطلاقها من عناصر الثقافة الوطنية ما جعلها تتعزل قليلا عن المجتمع؛ حيث يورد عبد الكريم بوصفصاف أنها إلى سنة 1909 كانت شريحة فضفاضة من المتعلمين المتخرجين من المدارس الفرنسية المتفرقة في الأقاليم الجزائرية والمفتقرة إلى وسائل العمل الجماعية والعلمية الفعالة (4) لذا كان الدور الأكبر في تفعيل النهضة منوطا بالفئة الثانية.

أما الطائفة الثانية فهم ذوي الثقافة العربية الإسلامية أو العلماء، والذين يعود أصولهم ما قبل الحرب العالمية الأولى- حين كان مصلحون من رجيل آخر أمثال عبد القادر المجاوي و عبد الحليم بن سمايه والمولود بن موهوب والصالح بن مهنا، يخوضون في المسائل الثقافية والإجتماعية. وقد تكوّنوا في المدارس القرآنية والمدارس العربية الإسلامية والمدارس الرسمية ثم في بعض جامعات الشرق الأدنى. (5) لكن الحركة الباديسية التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى، غطت على جهودهم و استقطبت أغلبية النشاط الثقافي والفكري والأدبي في البلاد، ويرجع السبب في ذلك إلى الشخصية المتميزة لإبن باديس نفسه، وإلى تعاون عدة شخصيات ثقافية معه

(1) شارل أندري جوليان : إفريقيا الشمالية تسيير ، ص 149 ، إلى 151 ..

(2) تسمية " الفتاة " أو " الشبان " عرفت اول ما عرفت في أوروبا خلال القرن التاسع عشر مثل إيطاليا "الفتاة" و ألمانيا "الفتاة" و يقصد بهذا المصطلح حركة الجيل الجديد أو حركة التحديث. و انتقل هذا الأنموذج الثقافي أو السياسي إلى المشرق ، عبد الكريم بوصفصاف : الفكر العربي الحديث و المعاصر ، محمد عبده و عبد الحميد بن باديس نموذجا ، ص 156 ، نقلا عن AGERON Charle Robert : Le mouvement jeune Algérien

(3) عبد الكريم بوصفصاف : الفكر العربي الحديث و المعاصر محمد عبده و عبد الحميد بن باديس نموذجا ، ص 154.

(4) نفسه ، ص 159.

(5) أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 2 ، ص 154.

كالإبراهيمي والعقبي... وتظافر جهودهم جميعا في مصب واحد. ضف إلى ذلك تميزهم بصفات خاصة كللت جهودهم وأعمالهم بالنجاح والتوفيق.ومن بين هذه الصفات نذكر مايلي:

* **السعي في طلب العلم :** والإجتهاد في تحصيله، إذ على رغم عراقيل الاستعمار وعمله على سد جميع منابع المعرفة في وجه الجزائريين، فقد كان لدى بعضهم نهم كبير في التعلم ورغبة شديدة في تحصيل المعرفة، وقد دفعهم شغفهم بتكوين أنفسهم تكوينا علميا وثقافيا حقيقيا، إلى تجاوز حدود البلاد والإلتحاق بجامعات الشرق و معاهده والحصول منها على الشهادات العالية، ثم العودة إلى الوطن والعمل على إنهائه وإصلاح أوضاعه.

* **الإيمان بالرسالة:** أي أنهم لم يجدوا في تحصيل العلم ويبلغوا فيه المستويات العالية قصد تحقيق أهداف شخصية كالطمع في الشهرة أو المجد أو لإقتناء وظيفة تعينهم في كسب عيشهم....لكنهم كانوا أصحاب رسالة آمنوا أن العلم و بخاصة في تلك الظروف العصيبة من تاريخ الأمة مسؤولية يلتحم فيها الهدف الخاص بالهدف العام، وتذوب الغايات الفردية وسط الغاية الوطنية الكبرى.

* **تصديق الإيمان بالعمل :** فجهودهم لم تقف عند حد الدعوة إلى التغيير دون المساهمة في إحداثه أو توضيح سبل النهوض دون المشاركة في فعاليتها، بل كانوا دعاة النهضة وصناعها في الوقت ذاته، والمشرع والمنفذ فيها أيضا. يقول المستشرق الإنجليزي " جيب" في "كتابه " الاتجاهات الحديثة في الإسلام" أن العلماء الجزائريين قد ذهبوا إلى أكثر مما ذهبت إليه جماعة " المنار" لأنهم بدأوا، بالإضافة إلى أعمالهم المطبوعة والشفوية، في إحياء المدارس القرآنية في جميع أنحاء البلاد للتأثير على الجيل الصاعد، وأن مساعيهم كللت بالنجاح إذا أخذت بعين الاعتبار الحواجز والعراقيل التي صادفوها. لذلك امتازت الحركة الإصلاحية التي قادها ابن باديس عن الحركة الإصلاحية الكلامية المجردة التي قادها محمد عبده، رغم أن هذا الأخير كان القائد الروحي للأول⁽¹⁾

(1) عبد الكريم بوصفصاف : الفكر العربي الحديث و المعاصر محمد عبده و عبد الحميد بن باديس نموذجا ، ص 440.

* **الإصرار والثبات والصبر** : فالقوانين والإجراءات التعسفية التي انتهجتها إدارة

الإحتلال في حق العلماء وحركتهم لم تحبطهم أو تحد من عزيمتهم في النهوض، بل كانوا دائماً يجدون سبل تجاوز الحواجز وتحدي العراقيل، بالإصرار والصبر على المكاره، وانتهاز الفرص لتعويض ما نقص وانتهاج سياسة الملاينة والمواربة مع الإدارة... فابن باديس مثلاً قد تلقى من الإضطهاد والإيقافات والمظالم إلى درجة أنه لقب " بابليس " عوض ابن باديس، وكل ذلك لم يحد من نشاطه أو يحبط عزيمته، بل كان يردد دائماً مقولته الشهيرة " تستطيع الظروف أن تكيفنا ولا تستطيع أن تقهرنا" (1) وذلك شأن كل من آمن برسالته من المصلحين والكتاب والشعراء....

* **تحييدهم للعمل الجماعي وتعاونهم في البأساء والضراء** وتقاسمهم المسؤولية الملقاة على

كاهلهم. فقد كان كل واحد منهم يمسك من هذه المسؤولية بطرف في تشاور حكيم واجتماع مثمر ولا يخفى على أحد مدى ما يحققه العمل الجماعي الذي تتحد فيه المبادئ والمناهج والغايات، من فوائد تكون أضعافاً مضاعفة عما تحققة الأعمال الفردية .

* **اشتغال الفرد الواحد منهم في عدة ميادين ثقافية** ، لأن الظروف آنذاك لم تكن تسمح

بالاختصاص الذي يعني التفرغ بالفكر والعمل في ميدان فكري أو أدبي دون آخر. ربما السبب في ذلك قلة المثقفين والفراغ الكبير الذي أحدثه الإستعمار في الهياكل والميادين الثقافية إذ أصبح يتطلب أمر تعبئتها جهداً مكثفاً. أو ربما تكون هذه الميزة من مخلفات العهود السابقة حيث كان العالم منهم يتصف بالفكر الموسوعي فيجمع بين علوم مختلفة كالفقه والحساب واللغة والفلك.... ومهما يكن السبب فقد كان الواحد من هؤلاء المصلحين يشتغل في التدريس والصحافة والأدب والشعر وإقامة الدروس في المساجد والنوادي.... وإن مال بعضهم إلى مجال من هذه المجالات دون آخر فبحكم الطبيعة والموهبة.

وبالإضافة إلى هذه الميزات جميعاً فقد ركزوا في أعمالهم على بعث عناصر الثقافة الوطنية

من عروبة وإسلام وتاريخ، وكانوا ذو سلوك مستقيم وطباع حسنة وخلق طيب وورع في الدين وذكاء حاد....تمكنوا بفضل جهودهم من إنشاء جيل واع مثقف حمل المسؤولية وعمل على بعث

(1) رشيد الداودي : رواد الإصلاح ، ص ، ص: 109 ، 110 .

الأمة الجزائرية، استشرافا لتثبيت أركان الدولة الجزائرية. (1) و ما جهاد الشعب الجزائري في ثورة أول نوفمبر إلا ثمرة لهذه الجهود و خلاصة لنضالهم.

5- دور التعليم العربي الحر في تفعيل النهضة الفكرية والأدبية.

ويمكن إبراز هذا الدور من عدة زوايا أهمها:

* أنه أخرج التعليم في الجزائر من أنظمتها القديمة ومناهجه التقليدية ومضامينه الجامدة ومراكزه العتيقة التي تكبح حركية الفكر وتكبل حرية التفكير. فهذا التعليم التقليدي الذي يتصف بالضعف والجمود وتقديس المنقول على حساب المعقول (2) لن يصمد طويلا في مواجهة الحضارة الغربية الغازية التي تتأسس على تشجيع العقل المنتج، والفكر الخلاق، وتحاول في كل مرة تطوير الوسائل اللازمة لفرض سيطرتها على البلاد في مختلف الميادين. لذا كان من أولويات العمل الإصلاحي تطوير طرق التعليم، وإنشاء مدارس عصرية متطورة من حيث المكان، والأثاث، والوسائل والإدارة، والبرامج، والمنهج والمضمون الفكري، يساير ولو بدرجة ما، هذه الحضارة أو على الأقل يساعد الفرد والمجتمع على فهمها وإدراك أسسها ومقاصدها وأهدافها.

* لقد كان هذا التعليم رد فعل على سياسة الاحتلال في الميدان الثقافي والتي قامت أساسا على التجهيل وإبعاد الجزائري عن منابع التقيف والمعرفة. فما أشرفت عليه الإدارة من تعليم رسمي ضربت فيه عرض الحائط متطلبات المجتمع الجزائري الثقافية والفكرية، حتى يتم لها تخذير العقول وإتمام الغزو العسكري بالغزو الفكري والروحي. لذا كان التعليم العربي الحرّ في الجزائر سلاحا بحددين بالنسبة لإدارة الاحتلال؛ فمن جهة عمل على تعويض الفراغ الذي أحدثته الإدارة في مجال التعليم، وعلى تلبية حاجات المجتمع و خدمته في هذا الميدان، ومن جهة أخرى كان حاجزا أمام السيطرة الإستعمارية على المجتمع الجزائري في المجال الفكري و الحضاري باستمالاته طبقات الشعب إلى هياكله و أهدافه و مقاصده و تسليحهم به لإفشال مخططات المستعمر .

(1) حميد عبد القادر : فرحات عباس رجل الجمهورية ، ص 47 .

(2) أحمد توفيق المدني : كتاب الجزائر ، ص 89 .

* عمل على تثبيت مقومات الشخصية الوطنية ودعائم الهوية جعل هذه المقومات

عمدة التعليم و محوره في جميع مستوياته. فالتعليم بصفة عامة يعد إحدى الوسائل الهامة التي تقوي اعتزاز الفرد ، ومن خلاله الجماعة ، بأواصر هويته ودعائم شخصيته ؛ فهو الكفيل يتلقين الأجيال لغة الجماعة و تاريخها و آدابها و فنونها ، وهو الذي يحافظ على التراث الثقافي للأمة عن طريق ضمان تواتره من جيل إلى جيل ، و يغرس في نفوس النشء حب هذا التراث والإعتزاز به و بمقومات الشخصية الوطنية فينشأوا بكل ذلك في نفوسهم ، و يبقى للمجتمع كيانه الخاص وتماسكه القومي و شخصيته المميزة عن بقية المجتمعات. (1) و في ظل الظروف التي مرت بها الجزائر ، والتي عمل الإستعمار فيها، عن قصد و إدراك تام لدور التعليم، على فسم أبناء المجتمع عن أواصر هويتهم و منعهم من التشبع بها ، أخذ التعليم العربي الحرّ على عاتقه هذه المسؤولية ، فكانت اهتماماته تتمحور أساسا حول تثبيت المحاور الكبرى للشخصية الوطنية إسلاما و عروبة و تاريخا. وكان القائمون به يهدفون إلى تصحيحها و تطويرها وترسيخها في المجتمع بصورة يحافظون فيها على الكيان الجزائري بتميز حضارته و استقلالية خصائصه .

* عمل على بث الوعي في أوساط المجتمع الجزائري لتمكينه من استيعاب مفاهيم الإصلاح

و التغيير ، و تطبيق مبادئ التطور، و تنويره أيضا إلى إدراك أوضاعه و استخلاص المسببات والنتائج، و دفعه إلى تطوير ذاته و الإسهام في تغيير هذه الأوضاع بما يتاح له من وسائل. فالتعليم يساعد الفرد و الجماعة على التحرك إلى أعلى و تحرير إمكاناته ، فهو " مرجع المجتمع لأن يرى نفسه، و يراجع ذاته، و يبحث أوضاعه سعيا إلى التجديد و القوة و هو مقياس و عي الجماعة بنفسها و بمطالبها و بآمالها، و بمواطن قوتها و ضعفها، و بماضيها و حاضرها كما تراهما في مستقبلها". (2)

* كما كان أيضا من العوامل الهامة التي ساعدت على صقل المواهب الشابة و كشفها و على

تنمية قدرات المبدعين في الميدان الأدبي على وجه الخصوص فالقائمون به كانوا يهتمون بشدة بنشر اللغة العربية و إرجاع مكانتها إليها و تعويد الألسن و الأذهان عليها و تحبيبهم فيها. ويعتمدون في ذلك على القرآن الكريم و الحديث الشريف بتعليمه و تفسيره و تحفيظه و على

(1) تركي رابح : التعليم القومي و الشخصية الوطنية ، ص 45

(2) نفسه ، ص 48 . عن محمد الهادي عفيفي : التربية و التغيير الثقافي الأنجلو المصرية سنة 1964 ، ص 163 .

الثرات الأدبي شعرا و نثرا بالدراسة والحفظ أيضا . فساعد ذلك على التحكم في اللغة العربية وامتلاك ناصيتها ، و على تطوير الملكة الأدبية لدى أدباء الجزائر. و بفضل هذه الأشواط الجبارة التي قطعها التعليم العربي الحر في الجزائر استطاع أن يبرز إلى الوجود شعر جزائري متطور شكلا ومعنى و مساير للواقع الاجتماعي مساهم في تغييره و تطويره .

6- دور الصحافة العربية في تفعيل النهضة الفكرية والأدبية :

يتمحور هذا الدور أساسا في كون الصحافة أهم وسيلة للإتصال بال جماهير ، و أسرع أداة لنشر الأفكار بينهم . لذا فإن دورها يكمن فيما تقدمه أعمدتها من مواضيع ، و ماتطرحه صفحاته من أفكار و ما تعالج من قضايا . وفي مدى تأثير و فعالية ما تنشره على المجتمع . و يمكن أن نتناول دور الصحافة العربية سواء المشرقية أو المغربية الوافدة أو الجزائرية الحرة من جانبيين : جانب فكري و آخر فني .

* فالصحافة العربية الوافدة و على الرغم من محاولات الإستعمار في منع دخولها إلى البلاد كانت دائما تجد طريقها إلى الدخول ، مع الحجاج أو مع طلاب العلم أو بطرق أخرى . وكانت لها من الأثر الفكري و المعرفي ما هيا لقيام نهضة فكرية و أدبية في الجزائر ، إذ كانت مدرسة تتلمذ على صفحاتها الفكر الجزائري المعاصر بأرائه و ممارساته ، فحين كانت تعالج قضايا العالم العربي و الإسلامي و مشاكله الراهنة بالدراسة و التقصي و البرهان ، مثلت مرجعا فكريا خصبا عادت إليه نخبة الجزائر للنظر في مشاكل البلاد الخاصة و تطبيق مبادئها عليها . كما فتحت عقول الجزائريين على مفاهيم جديدة للإصلاح و التغيير ، و طرحت حلولا جذرية للأزمة سار على نهجها كل من طمح في الخروج من محنته . و بالجملة وضعت هذه الصحف الوافدة من أقطار العالم العربي الأسس والقواعد لنهضة الجزائر الفكرية و الأدبية .

هذا من الناحية الفكرية أما من الجانب الفني ، فقد مثلت القدوة و الأنموذج ، و المثل المحتذى في التعامل مع الفن الصحفي ، بما يتطلبه من خصوصية و ما يتميز به من مميزات خاصة و الذي كان لايزال يعد لونا جديدا من ألوان التعبير بالنسبة في ذلك الوقت إلى الجزائريين . و نستطيع القول أن هذه الصحافة ساعدت على تبلور الصحافة العربية الحرة الجزائرية و رسمت لها خطوطها العريضة و بينت لها أسسها الفنية ؛ حيث أمدتها بالأفكار التجديدية الإصلاحية وأفادتها بما تحمله من أفكار و تجارب عن العلم العربي و الإسلامي ، و طبعت أسلوبها ببيان رفيع سلس و لغة حية متينة ⁽¹⁾ ، لما تميزت به مقالاتها من متانة في اللغة و رقي في الإسلوب و رصانة في التعبير و دقة في تحديد الهدف

(1) محمد ناصر الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939 ، ص 8

وتأتي العروة الوثقى لمؤسسها جمال الدين الأفغاني في طليعة هذه الصحف. وهي التي قال عنها الأمير شكيب أرسلان وعن مؤثراتها في العالم العربي "بلغت من إيقاظ الشرق وهز أعصاب العالم الإسلامي ما لم تبلغه جريدة سيارة قبلها وبعدها"⁽¹⁾. ولا تقل الصحف الأخرى كالمنار والرسالة واللواء والهلال والمقتطف و الزهرة والنديم و الوزير... أهمية في تحقيق الأثر الفني والفكري لنشوء وتطور الصحافة العربية الحرة في الجزائر، بل ولتبلور الفكر والثقافة بصورة عامة.

و بالنسبة للصحافة الجزائرية العربية اللسان، فإن دورها من الناحية الفكرية يكمن في تنوير الراي العام الجزائري و نشر الأفكار الإصلاحية في أوساط المجتمع، وإيقاظ الشعب وتنبيهه إلى الأخطار المحدقة به من سلخ وإدماج واستلاب. فدعت إلى إحياء اللغة والدين والتاريخ القومي والإسلامي، ونشر التعليم على هذه الأسس وإلى محاربة الطرقية واجتتاب بدعهم وخرافاتهم من جهة، ومحاربة المعمرين وأعوان الإدارة من جهة أخرى. أي أنها اهتمت بمعظم الشؤون الفكرية و الثقافية والسياسية و الأدبية والإقتصادية ماجعلها تكون ذات فاعلية كبيرة على بعث النهضة وبلورتها في الجزائر.

* ومن الناحية الفنية أعطت هذه الصحافة الحافز المعنوي للكتابة و الإبداع الشعري و النثري حين وفرت فضاءات و صفحات خاصة للكتابة و الإبداع و لتسجيل الآراء و الإنتقادات والمبادلات و المناظرات بين الأدباء. كما وفرت أيضا جمهور القراء و جمهور النقاد بحيث يعد كلا منهما عاملا في نضوج الإنتاج الأدبي و تطوره فكريا و فنيا. و شجعت المنافسة بين المبدعين على تطوير المنتج الأدبي و خلقت لدى المبدعين الصغار الرغبة في الإقتداء والإحتداء و محاولة بلوغ درجة أعلى فنيا وبخاصة و أن تلك الصحف - الشهاب و البصائر على وجه الخصوص - قد استقطبت أهم الأقلام الإصلاحية و الأدبية آنذاك من بينهم محمد البشير الإبراهيمي و عبد الحميد بن باديس و مبارك الميلي و حمزة بوكوشة و أحمد بن عابد الجيلالي

(1) دور الأفغاني في يقظة الشرق مقال لأحمد حماني، مجلة الثقافة، عدد 38 ربيع الثاني-جمادي الأولى 1397/أفريل ماي 1977، ص 101

كما فرضت بما تتميز به من خصوصية نمطا جديدا من التعبير الأدبي يتصف بالدقة و التركيز و الإقناع الغائية، ويبتعد عن الإطناب والإسهاب و الحشو و التتميق الذي لا فائدة منه

بحيث يجب أن يكون ما يكتب موازيا للمساحة المخصصة له في الصحيفة، على اعتبار أن الصحف تكاد تكون الوسيلة الوحيدة التي ينشر فيها الأدباء نتاجهم، وهي الوحيدة التي فتحت صدرها للمبتدئين و المقتدرين على حد سواء ، فبفضل الصحافة إذن ظهر فن المقال في الجزائر و تعددت أغراضه و مضامينه ، فبفضلها أيضا يكاد يكون عهد المنظومات و القصائد المطولة قد انقضى ليفسح المجال أو لتكون أحد الأسباب و الدوافع الهامة لظهور شعر جزائري معاصر متطور في فكره و لغته و أسلوبه و هدفه .

و على العموم فإن دور الصحافة سواء من ناحية الشكل أو الفكر في النهضة كان كدور العجلة في العربة، لن تتقدم بدونها و لن تصل أو تحقق أي من النتائج و الأهداف التي بلغتها إن غابت عنها هذه الوسيلة .

الدعوة إلى العلم في الشعر الجزائري الحديث دراسة موضوعاتية

I - موضوع العلم في الشعر الجزائري الحديث :

- 1- مفهوم الشعر لدى شعراء النهضة
- 2-ارتباط الشعر بالحركة الإصلاحية
- 3-مفهوم العلم في تصور الشاعر الجزائري:
 - أ - ربط العلم بالحضارة الغربية:
 - ب- ارتباط مفهوم العلم بالمقومات الأساسية للشخصية الوطنية:
 - ب1- الدعوة إلى تعلم الدين الإسلامي:
 - ب2- الدعوة إلى تعلم اللغة العربية ونشرها وتطويرها:
 - ب3- الدعوة إلى دراسة تاريخ الأمة وإحياء تراثها:
 - ج- ارتباط الدعوة إلى العلم بالمدرسة:
 - د- ارتباط الدعوة إلى العلم بالدعوة إلى النهضة:

II - طرق الدعوة إلى العلم :

- 1 - الدعوة إلى العلم بطريقة مباشرة:
- 2 - الدعوة إلى العلم بأسلوب غير مباشر:

I - موضوع العلم في الشعر الجزائري الحديث :

1- مفهوم الشعر لدى شعراء النهضة :

إنه مع مطلع العشرينيات من القرن العشرين أو قبل ذلك بقليل أخذ الشعر الجزائري يمزق جلده شياً فشيئاً ليتحرر من ضعفه و ضيق نظرتة ومحدودية هدفه ويرفرف كفرشة بجناحيه متخذاً من قضايا الوطن زهوراً يتغذى من رحيقها فينبض بالحياة. وأولى نبضات الحياة فيه تتمثل في تغيير نظرة الشاعر إلى الشعر وتغيير الهدف من ممارسته وإنشاده؛ فلم يعد الشاعر ذلك البوق الذي ينفخ من أقبية الطرق، ولم تعد القصيدة تلك البضاعة التي توزن بكثرتها، وتلمع كلما أكثرت الزحف على أرضية الزوايا، وتمرغت بتراب أضرحة الأولياء، بل أصبح الشعر في تقدير زعماء النهضة كاهلاً تحمل عليه مسؤوليات الخلاص، فعاد ليلتحم بجسم الأمة، يعانق همومها ومشاكلها محاولاً إعطاء الحلول والبدائل.

ولم يتغير المفهوم الفني للشعر في تقدير زعماء النهضة وشعرائها، عما وضعه العرب القدامى له ولم تخرج أحكامه النقدية لديهم عما سطره قدامة بن جعفر وابن قتيبة والجاحظ وآخرون (1) بل حتى أنهم لم يفتقروا طويلاً في تحديد ماهية الشعر وشروطه الفنية، واكتفوا بتعاريف النقاد القدامى وسلموا بها دون محاولة الإضافة إليها أو مناقشتها. (2) ولعل السبب في ذلك راجع إلى أن هؤلاء لم يصلوا بعد إلى درجة النضج الفكري والتشبع الفني، ولم يتلقوا بعد بروافد الآداب الجديدة ومذاهبها العصرية حتى يتجاوزوا البناء الفني والمفهومي للقصيدة العربية القديمة .

ولكننا نجدهم في المقابل يولون عناية كبيرة لوظيفة الشعر ودوره في المجتمع، ويحددون مهمة الشاعر ورسالته في التوجيه والتوعية. (3) وفي هذا المنحى لم يكونوا مقلدين بل حاولوا تكييف ممارسة الشعر بحسب الظروف السياسية والاجتماعية التي تمر بها البلاد ، وربط مفهومه بالوظيفة الاجتماعية التي عليه أن يؤديها. فحين يلمح محمد الهادي السنوسي الزاهري إلى دور الشعر في الثورة الفرنسية، وكيف كان شعراء أمثال فيكتور هيجو ولا مارتين ، قدوة في الدفاع

(1) محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته و خصائصه الفنية 1925 – 1975 ، ص 66 .

(2) نفسه ، ص 68 .

(3) نفسه : ص ، ص : 72 ، 73 . كذلك عبد الله حمادي : أصوات من الأدب الجزائري الحديث ، ص 41 .

عن الحقوق والعدالة والمساواة فهو يقترب كثيرا من الوعي الوطني،⁽¹⁾ الذي يجسده أكثر فأكثر في مصنفاته الشعرية التي تضمنها كتابه " شعراء الجزائر في العصر الحاضر" بجزأيه، حيث اشترط فيما يختاره من قصائد إبعاد أغراض المديح والرثاء والهجاء " لما بين هذه الأغراض -كما يقول - وبين الحقيقة اليوم من التباين...وهي لا تفيدنا معنى اجتماعيا...وعلى الأخص في بيئتنا".⁽²⁾ ذلك أن البلاد في تلك الفترة في أمس الحاجة إلى شعر يبعثها إلى اليقظة ويحثها على النهضة ، لذا يجب أن يكون الشعر الذي يتضمنه الكتاب "كل جديد في الحكمة والرحمة وغيرهما مما أصبحت الإنسانية تتطلبه، والعربية تتعشقه ونهضة اليوم في الشرق تدعو إليه".⁽³⁾

والشعر عند أبي اليقظان لسان الإنسان الذي يذوذ به عن الحمى ويرفع صوته إلى عنان السماء فيرن صدها متموجا في الهواء إلى أن يسمعه الصم وينطق به البكم ويبصره أهل العمى⁽⁴⁾ فمن امتلك موهبة الشعر، في رأيه، كانت له سلاحا قويا حادا يستعمله في "درء مفسدة أو للدفاع عن مصلحة"⁽⁵⁾ لذلك فإن لفن الشعر وظيفية إصلاح المجتمع ومهمة بعث الأمة من مرقدتها خاصة إذا كان القصد منه: " إيقاظ الاحساس وتنبيه الشعور وتنمية العاطفة وتربية الوجدان وتتوير العقل وتهذيب النفس وكبح جماحها وحملها على أغراض شريفة بأقصر طريق وأطف إشارة".⁽⁶⁾ وهي الوظيفة التي يدرجها محمد الطرابلسي ضمن الإطار الديني الإصلاح العام؛ حيث يرى أن الشعراء لن يكونوا جديرين بهذا اللقب (شاعر) إلا إذا اتصفوا بعزة في النفس ذائدين عن حياض الدين ، سالكين بأمتهم سبيل النجاة ، ناهجين منهج الأخوة ، متحدين على إعلاء كلمة الله....."⁽⁷⁾

كذلك لا يخرج الشاعر محمد بن دويذة عن هذه الرؤية لدور الشعر ومهمة الشاعر في الإصلاح والبناء فيرى أن الشعر خير كفيل بالرقى إلى أفق الكمال ، وباستطاعة الشاعر أن يثير

(1) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 1 ، ص 10 .

(2) نفسه

(3) نفسه ، ص 07 .

(4) أبو اليقظان : الديوان ، ص 09 .

(5) نفسه .

(6) نفسه ، ص : 10 .

(7) محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته و خصائصه الفنية 1925 - 1975 ، ص : 72 ، عن جريدة وادي ميزاب ، عدد 22 .

الحماسة، ويحرك الجماد، ويسمو بالبلاد إلى مراتب المجد يقول في إحدى قصائده التي نظمها تكريماً للأمير الشعراء أحمد شوقي (1)

الشعر خير كفيل بالرقى إلى
الشعر وحي الشعور الحي تحمله

إلى أن يقول (2)

كم أمة قام فيها شاعر فطن
فانظر إلى الشرق في إبان نهضته
وما دام الشعر في تصور كل هؤلاء وغيرهم رسالة، وأداة للإصلاح الإجتماعي فقد ارتبط ارتباطاً شديداً بالفكر الإصلاحى . فماذا عن ذلك ؟

1 ارتباط الشعر بالحركة الإصلاحية:

لقد احتضنت الحركة الإصلاحية التي انطلقت منذ العشرينيات، الثقافة العربية في الجزائر من لغة ودين وتاريخ وتأبّطت حركيتها الفكرية، فالتعليم بجميع مستوياته وأطواره كان تحت جناحها، وأغلب ما ظهر من صحافة عربية ظهر من زاوية الإصلاح وخلال جميع هذه الممارسات كانت تعمل في سبيل المحافظة على الكيان وتثبيت المقومات الأساسية للشخصية الوطنية، فعملت على نشر اللغة العربية وتحريرها من الجمود في صيغها وتعابيرها، وتخليص الدين من البدع والخرافات وإحياء التراث القومى، فكان من الطبيعي أن يقف الشعر إلى جانب هذه الحركة، يؤازرها ويستمد مواضيعه من صراعاتها، يعبر عن أهدافها ومراميها ويزدهر في رحابها، (3) ضف إلى ذلك أيضاً أن معظم شعراء فترة النهضة خاصة في مراحلها الأولى كانوا ضمن الهيكل الإصلاحى؛ حيث عملوا فيه كمدرسين أو أئمة أو صحافيين، فمن الطبيعي أن يكونوا صدى لهذا الهيكل الذي نشأوا وترعرعوا وعملوا فيه.

في حين لم يرتبط الشعر بالأحزاب السياسية لأن هذه الأخيرة قد كثفت جهودها في الميدان السياسى، مطالبة بالحقوق والعدالة والمساواة عند فريق، وبالحرية والإستقلال عند فريق آخر (4)

(1) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 2 ، ص : 223 .

(2) نفسه .

(3) عبد الله الركيبى : الشعر الدينى الجزائري الحديث ، ص 559 .

(4) نفسه : ص : 561 .

ولم تعمل في سبيل نشر التعليم العربي أو إنهاض الثقافة الجزائرية أو إحياء التراث القومي، بينما رأى رجال الإصلاح أن لا تقدم للجزائر بغير مقوماتها الأساسية من لغة وتاريخ ودين وحضارة،⁽¹⁾ فتجاوب الشعر مع هذه الحركة أكثر من غيرها.

والحركة الإصلاحية في مجملها حركة سلفية تتوجه إلى الماضي الذي يمثل النموذج المحتدى ، فشعارها في حد ذاته برنامجا كاملا يبرز اتجاهاتها بكل وضوح: " لا يصلح آخر هذه الدنيا إلا بما صلح به أولها" ⁽²⁾ ومعنى ذلك العودة بالدين واللغة والثقافة عموما إلى ما كانت عليه من قوة وازدهار في العصور السالفة . ففي تصورهم أن المجتمع الجزائري إن كان قد وقع في التخلف المادي والمعنوي فليس ذلك بسبب عجز أو قصور ذاتي، لأنه في عصور مضت كان مجتمعا متقدما بحضارته العربية الإسلامية وثقافته المشرقة ، فلغته العربية كانت أداة حية احتضنت وسايرت تطوره وتطور علومه وفنونه وآدابه، ودينه الإسلامي كان قوة روحية ومبادئ اجتماعية وإنسانية دفعت بعجلة التقدم وكرست تفوق المجتمع الحضارية والثقافية. كذلك بلغ الأدب العربي ما بلغته هذه الحضارة من رقي، في شكله وأسلوبه ومعناه.

ومن تم اتجهت هذه الحركة إلى الماضي، إلى الأصول الحضارية والثقافية للجزائر لتأصيلها من جديد والبحث فيها عن مواطن القوة لمواجهة السيطرة الأجنبية ورد مخططاتها. فكانت العناية أولا بتحفيظ القرآن الكريم وتفسيره وشرح معانيه، وتدريسه على أصوله الحقه، وعن ذلك يؤكد ابن باديس أن المبدأ الأول لحركته هو تنشئة جيل واع بأصول دينه مدرك لأحكام القرآن فيه يقول : " إننا والحمد لله نربي تلامذتنا من أول يوم على القرآن ، ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم ، ومن أول يوم ، وغايتنا التي ستتحقق أن يكون القرآن رجالا كرجال سلفهم ، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها"⁽³⁾ وقد كان للقرآن الكريم أثر كبير في أفكار الشعراء ونتاجهم الشعري ، فقد أكسبهم متانة في اللغة وقوة في التعبير وجزالة في الأسلوب . والملاحظ أن أغلب الشعراء الذين ترجم لهم

(1) المرجع السابق نفسه .

(2) هذه الكلمة منسوبة إلى الإمام مالك بن أنس في آثار المصلحين الأوائل أمثال ابن باديس والعقبي والبشير الإبراهيمي ... محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925 - 1975، ص : 40 .

(3) محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925 - 1975، ص 43 .

الهادي الزاهري في مصنفه يعترفون بفضل القرآن عليهم، في تكوينهم الثقافي ورصيدهم اللغوي (1)

كما اعتمدت الحركة الإصلاحية على العودة إلى الأدب العربي القديم شعره ونثره في إطار العناية بالتراث وإحيائه ودرسه، ففي رأي رجال الإصلاح عموماً أن اللغة العربية المضطهدة في الجزائر لا يمكن لها أن ترقى إلا إذا تشربت من " فحول الأدب العربي القديم ، من أمثال عبد الحميد كاتب وابن العميد والجاحظ والحريري والبحتري وأبي تمام ، والمتنبي... " (2) لذا كانوا حريصين غاية الحرص على النهل من هذا المعين وتدارس فروعهِ وعلومهِ وفنونه وعلى تدريسه لتلامذتهم بالمدارس. وقد كانوا ينسجون على منوال النماذج الشعرية الجاهزة فجاء شعرهم ذو نزعة تقليدية محافظة ظلت مسيطرة على الساحة الشعرية منذ فجر النهضة وحتى الخمسينيات، رغم وجود التيار الرومنسي الوجداني الذي لم يكن بنفس القوة والسيطرة التي كان عليها تيار المحافظة والتقليد (3).

ومن نتائج ارتباط الشعر بالحركة الإصلاحية أن جاءت مواضيعه استجابة طبيعية لهذه الحركة وإحتياجات المجتمع الجزائري في الجانب الثقافي والاجتماعي على الخصوص، حيث كان الشاعر مدفوعاً بحكم هذا الارتباط بل ومتحمساً إلى التعبير عن كل ما يبعث على اليقظة ويثير الحماسة ويحي البلاد من مرقدتها، فمثل بالتالي موضوع الدعوة إلى العلم والتعليم ومحاربة الجهل وآثاره السيئة أحد المواضيع التي امتلأت بها جعبة الشعر الإصلاحي الجزائري الحديث، حيث لانكاد نجد شاعراً من شعراء النهضة إلا وله إلتفاتة في هذا المجال.

3- مفهوم العلم في تصور الشاعر الجزائري:

لقد جعلت السياسة التجهيلية التي مارستها سلطات الاحتلال على المجتمع الجزائري الجهل يتوطن الجزائريين من جوانب عدة ، فهو جهل بالعلوم والمعارف وتقنيات الحضارة الجديدة و جهل بالمقومات الأساسية للثقافة الجزائرية، و غياب للمدارس ومراكز التعليم و ضعفها وانحطاطها.... لذلك تعددت تصورات الشاعر الجزائري للعلم وارتبطت دعوته إليه بهذه المجالات الثقافية المتعددة، فهو السعى في تحصيل قواعد الحضارة الجديدة واللاحق بركبها، أو هو معرفة

(1) المرجع السابق نفسه ، ص 45 .

(2) نفسه ، و هذا القول منسوب لمحمد الهادي الزاهري .

(3) نفسه، ص : 39.

المقومات الأساسية للثقافة الجزائرية من لغة ودين وتاريخ، أو كانت الدعوة إليه دعوة عامة إلى تشييد المدارس وتطويرها والإلتحاق بمقاعدتها.....

ب - ربط العلم بالحضارة الغربية:

إن احتكاك المجتمع الجزائري المباشر بالحضارة الغربية جعله يتعرف عن قرب على ماوصلت إليه هذه الحضارة من تقدم ورقي . بل أن طبيعة هذا الإحتكاك دفعته إلى البحث في أسباب قوتها و تفوقها ، ليدرك ما يمكن أن تقع فيه الأمة الجاهلة ، الراكدة ، المتخلفة ، عن الركب من أزمت. وكان للمخترعات الحديثة التي أخذت تظهر في البيئة الوطنية وصحبها المستعمرون معهم ، أثر في توجيه شعراء الجزائر إلى الحديث عن هذه الحضارة يضربون بها الأمثال لأبناء وطنهم ، ويفتحون عيونهم عليها قاصدين أخذ العبرة منها ⁽¹⁾ فتحدثوا عن إنجازاتها وعن إختراعاتها وإبتكاراتها و أشاروا إلى أن للعلم الفضل في كل ما وصلت إليه. نقرأ ذلك في قصيدة محمد العلمي التي يدعو فيها أبناء وطنه إلى النظر إلى المجتمعات الغربية ، وكيف كان اهتمامهم بالغا بالعلوم والمعارف ، حيث زهت مدارسهم بكل فنون العلم والحكمة ، وأبهروا العالم بما حققوه من إنجازات واختراعات؛ ببواخر تشق البحار ومناطيد تحلق في الهواء ، ووسائل إتصال متطورة تقرب المسافات البعيدة وتجعل صائت الغرب يسمعه من في الشرق. يقول: ⁽²⁾

| | |
|-----------------------------|-------------------------------|
| أنظر إلى شعبهم تجد مدارسهم | زهت بكل فنون العلم و الحكم |
| أشجارها أينعت بالعلم بلسطة | سبحان من يخرج الإنسان من عدم |
| بواخر في عباب البحر تمكره | وفي السماء ترى المنطاد كالرخم |
| وصائت الغرب من بالشرق يسمعه | عجائب تبهر الأبواب بالنظم |

ويشير في قصيدة أخرى إلى أن جميع هذه الإنجازات إنما أساسها العلم والتعليم. فبفضله

ولجوا البر والبحر والسماء و أبدعوا في الصناعات التي عادت عليهم بخير وفير. يقول: ⁽¹⁾

| | |
|--------------------------------------|----------------------------------|
| فبالعلم والتعليم في كل ملة من كل ملة | أنالو مفاتيح الكنوز بلا عسر |
| وبالعلم والتعليم شادو مراكبها | فحارت لها الأبواب في البر والبحر |
| فلولاه ما المنطاد كان مسخرها | ولولاه لم يوجد (تلفون) في قطر |
| ولولاه لم تظهر صناعة صانع | ولولاه لم تخرج منابع في الصخر. |

(1) عبد الله الركبيبي : الشعر الديني الجزائري الحديث ، ص 581 .

(2) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج2، ص186

(1) إلى النجاح: قصيدة لمحمد العلمي ، النجاح ، عدد 299 ، الجمعة 08 ذو القعدة 1345 / 21 ماي 1926 .

ثم يعود الشاعر إلى تدارك العلاقة بين العلم والتقوى، ويرى أن العلم مهما تطور وارتقى لا بد له من اللجام. فكما هي الحياة ذميمة بدون علم كذلك العلم بلا تقوى سراب لا فائدة ترجى منه. وفي ذلك دعوة إلى عدم تقبل كل ما يفد من الغرب إلا وفق ما يتماشى وتعاليم ديننا الحنيف. يقول: (2)

| | |
|--------------------------------|--------------------------------------|
| حياة بلا علم حياة ذميمة | وعلم بلا تقوى سراب على القفر |
| فمن يجهل التعليم مات بغمه | فيا ضيعة الأعمار تمشي على خسر |
| فما العلم إلا العلم في كل وجهة | و ما الدين إلا النصح في النهي والأمر |
| و ما للهدى نور سوى بمحمد | فواضب عليها تحظ بالذخر والأجر |

وبدوره يلفت الشاعر أحمد بن يحيى الأكل انتباه الشباب الجزائري في قصيدة "حنيني إليها وأنيبي عليها" إلى ما وصل إليه الغرب بفضل تفوقه العلمي حيث سخر به ما لم يكن في الحسبان فقد حلقت مناطيده كالنسور في السماء وغاصت مراكبه بالبحر كالأسماك...وبه مارس سلطته على الغير ممن هم أدنى منه مستوى في المجال العلمي يقول (3)

| | |
|-----------------------------------|------------------------------|
| فجيرانا فازوا بعلم فسخروا | به كل شيء لا يكون بحسبان |
| فكانوا هم القوم السلاطين في الورى | و ما كان قوم غيرهم بذى سلطان |
| مناطيد في جو السماء كأنها | نسور تحوم فوق أبهج أوطان |
| سفائن غاصت في بحار كأنها | سماك تريد صيد أسراب حيتان |

ويصل الشاعر أحمد كاتب الغزالي إلى حد امتداح الغرب والثناء عليه معددا مزاياه،

هذا الذي أغرب في الإختراع وسخر قوى الطبيعة فكانت له طوعا.يقول: (1)

| | |
|----------------------------|--------------------------|
| أيا غرب أغربت في الإختراع | وقربت للساكين البقاع |
| تسخر قوى الطبيعة لـ | يفتك نفير من الإطـلاع |
| وقد خدمتك السماء و استكانت | لك الأرض فالأمر منك مطاع |

ثم يقارن بينه (الغرب) وبين ما آل إليه واقع الشعب الجزائري الإجتماعي والثقافي لكي

يستنهض هم المسلمين ويدفعهم إلى إقتفاء أثر الغرب في تقدمه. يقول: (2)

(2) نفسه .

(3) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج2 ، ص207 .

(1) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج1 ، ص 165 .

(2) نفسه .

أكب على العلم عشاقه
فهم في الحقيقة أقوم نهجا
ألا ليت شعري ويا ليتني
فنجحي التفكير والإعتناء
ولم نبرح الدهر نهوى القصاع
وهم بالمعارف قوم شباع
أرى العلم دأبا و أبقى متاع
ونعنى بمعرفة واختراع

وهي مقارنة يعقدها محمد اللقاني بن السائح بين الحضارة الغربية وما حققته، وبين حاضر المجتمع الجزائري وما يتخبط فيه. يقول: (3)

الناس بالعلم شقوا الأرض واخترقوا
الناس في الجو طاروا حلقوا وعلوا
الناس بالعلم نالوا كل مكرمة
و شيدوا وبنوا عزا وتمكينا
و نحن نحسبهم جهلا شياطينا
ونحن بالجهل لا يرجى تلاقينا

بل ويصل أبو اليقظان إلى حد القول أن الغرب ما أحكم سيطرته على البلدان الضعيفة واستولى عليها إلا بسبب تفوقه في المجال العلمي. وأي شعب تخاذل عن خدمة العلم وقع فريسة الدول الإستعمارية ورهينة طمعها. يقول (4)

وأي سلاح للشعوب اذا خلت
به ملكوا الأقطار شرقا ومغربا
به استخدموا كل القوى في مصالح
من العلم بل تضحي فريسة عقبان
وساروا إلى القطبين سيرة شمالان
الحياة فسادوا في الورى كل كسلان

ولم يتخلف الشاعر محمد العيد آل خليفة وكذا الطيب العقبي عن هذه الدعوة إلى النظر والتأمل وأخذ العبرة من الحضارة الغربية ، بل وإلى مايمكن أن يحققه الفكر الإنساني إذا استمسك بأسباب العلم ، وكذّ وجدّ في طلب المعارف، فالشاعر محمد العيد نجده يصف في إحدى قصائده مخترعات هذه الحضارة وبنوه بها فيقول، (1)

فبينكم الغربي وهو أخوا العـلا
طوى الريح بالخط الحديدي وانبرى
وأبدع طيار بدون محررك
يجد لإدراك العلا ويوالي
يجول مع الأرياح كل مجال
فهل كان هذا يستقر بيال

ويدعو في قصيدة أخرى إلى اللحاق بركب الحضارة سواء كانت غربية أو شرقية، وإلى

مسايرة نهضتها ومزاحمة من تقدم في تقدمه ورقيه يقول (2)

(3) نفسه ، ص 37 .

(4) أبو اليقظان : الديوان ، ص 90 .

(1) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 1 ، ص 29 .

(2) محمد العيد آل خليفة : الديوان ، ص 147

تركتك جارتك المجددة خلفها فانوى بجارتك اللحاق وأزمعي

كذلك يرى الطيب العقبي أن شريعتنا الإسلامية لا تتنافى أبدا مع مبادئ هذه الحضارة الجديدة إذا كان القصد منها خدمة الوطن وترقية المجتمع. و دعا إلى مزاحمة الغرب في تطوره وازدهاره لتتجدد في البلاد عصور العز والمجد والرقى يقول (3)

تعلموا العلم وامشوا في مناكبها
وزاحموا الغرب في الدنيا ولذتها
ما كان قط حراما في شريعتنا
وجانبوا كسلا أودى بماضيها
وجددوا عصر عز في تعالينا
سيرا بأوطاننا فيما يرقينا

و يمكن أن نسجل الملاحظات التالية عن ارتباط الدعوة إلى العلم بالحضارة الغربية في هذه الأشعار :

* إن الإلتفات إلى الحضارة الغربية كان إلى مخترعاتها ومبتكراتها الإيجابية التي تخدم الإنسانية وتعود بالفائدة والخير على الجميع. فقد تكرر الحديث كثيرا عن المنطاد والباخرة والغواصة والهاتف والقطار... ولم يتطرق أي شاعر إلى المخترعات الحربية والعسكرية، ذلك أن الحديث عن هذه الآليات ينبع من التفكير بالثورة والحرب بينما يركز الإصلاح على الإستفادة من الغرب في ترقية المجتمع بالوسائل السلمية الإيجابية.

* لقد أدرك الشاعر الإصلاحي الجزائري أن وقوع البلاد تحت سيطرة الاحتلال كان من نتائج التفوق العلمي والحضاري من الجانب الغربي، ومن انعكاسات التخلف والركود من الجانب الجزائري، فلما تتخلص الحضارة الراكدة من السيطرة الأجنبية عليها أن تنقوى ذاتيا بالتسلح بالعلم والمعرفة، حتى تتمكن من إدراك مكامن الضعف لديها وتهتدي إلى تحديد هدفها و بلورة غاياتها.

* استعمل الشاعر الجزائري لفظة الغرب للدلالة على الحضارة الغربية رغم أن احتكاكه المباشر كان بالدولة الفرنسية لكنه لم يخص بالذكر لا فرنسا ولا حتى أوروبا، ربما لتحاشي امتداح فرنسا أو الثناء عليها وقد مثلت في البلاد الجانب السلبي من الحضارة .

(3) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 1 ، ص ، ص : 134 ، 135 .

* رغم إعجاب الشاعر بهذه الحضارة في جانبها الإيجابي، فإن دعوته إلى النظر والتأمل كانت من باب التحفيز وأخذ العبرة لا غير، وليس لتقليدها كلية أو الإندماج فيها. وكان يرمي من وراء فتح مجال التأمل، إلى دفع المجتمع الجزائري إلى العمل لبلوغ هذا المستوى من التطور، ولكن بالاعتماد على أسسه الذاتية وعناصره الثقافية. لذا كان يتبع دعوته في كل مرة بالحديث عن الدين والماضي و الأجداد ومآثرهم.....وهذا يحيلنا إلى عناصر أخرى ارتبطت بها دعوة الشاعر إلى العلم وهي الدعوة إلى معرفة عناصر الثقافة الوطنية ومكونات الشخصية الجزائرية من عروبة وتاريخ وإسلام وتراث على أصولها.

ب- ارتباط مفهوم العلم بالمقومات الأساسية للشخصية الوطنية:

ارتبط مفهوم العلم أيضا عند أغلب شعراء فترة النهضة بالمحاور الكبرى للثقافة والشخصية الجزائرية، وهي الدين الإسلامي واللغة العربية والتاريخ والتراث القومي. ذلك أن الإستعمار قد استهدفها جميعا بالتشويه والتجهيل والطمس، والهدم المادي والمعنوي، وتشجيع الدجل والخرافة والطرقية، بحيث أصبحت هذه الأخيرة تشكل في حد ذاتها خطرا داخليا يهدد كيان البلاد ويصيب الفكر فيها بالضعف والهزم والركود. لذا كانت الدعوة إلى العلم لديهم دعوة إلى تعلم عناصر الثقافة الجزائرية على أصولها والتشبع بها، ويأتي في مقدمتها الدين الإسلامي.

ب1- الدعوة إلى تعلم الدين الإسلامي:

إنها دعوة عامة إلى قراءة القرآن وتدارسه وتدارس السنّة النبوية الكريمة، والأخذ بتعاليم الإسلام ومبادئه الحقة. فمحمد العيد آل خليفة يرى في القرآن منجما غنيا بعلوم الدين والدنيا قائما

بأمورهما معا، وقد دعا إلى تربية النشء عليه حتى يتبينوا سبيلهم في الحياة ومنهاجهم فيها
يقول (1)

| | |
|------------------------------|-------------------------------|
| أُتدرون ما تحوي عليه المناجم | ولست أرى القرآن إلا مناجما |
| شهودا و غيبا فهو بالكل قائم | على الدين والدنيا وعلمهما معا |
| به طرق مشروعة و معالم | فربوا عليه الناشئين تلح لهم |

وهو لديه كذلك النور الذي ليس لإشراقه مثل، والكفيل بحماية النشء وصونه من الهوى

يقول (2)

(1) محمد العيد آل خليفة : الديوان ، ص 13 .

وعليكم القرآن فهو من الهوى حام وليس لنوره إشراق
وفي قصيدة " يا معشر الطلاب" (3) يتوجه الشاعر بالنقد إلى الطريقة التي كان يعتني بها
القرآن والتي كانت تتجنب التعمق والتفكر والاجتهاد في أحكامه ومعانيه، جاهلة أنها بهذه الطريقة
تكون قد حكمت عليه بالإعدام، لأنها تصيب الفكر بالتحجر والجمود ، وتدفع النفس إلى التعلق
بالخرافات يقول (4)

| | |
|-----------------------------|-------------------------|
| و لكل شيء في الحياة أذيه | وأذية القرآن من أقوامه |
| عملوا على التحذير من تفهيمه | فكأنهم عملوا على إعدامه |
| هجروا مبادئه العلى وتكبوا | أحكامه والخير في أحكامه |
| زعموا بأن صوابه خطأ وفي | ما يزعمون رزية بكلامه |

و يفرق الشاعر محمد اللقاني بن السائح بين طائفتين من المثقفين الجزائريين، تختلفان في
نظرتهم إلى الدين وتقديرهما لجوهره ودوره و هما شيوخ الزوايا والنخبة المفرنسة؛ فالأولى
تنظر إلى الدين على أنه الزهد والتسليم بما يقوله الشيخ ويفعل . يقول الشاعر (5)

| | |
|-------------------------------|-----------------------------|
| وما كل علم في البلاد أريده | ولا ما هم يدعونه علم زهاد |
| فمن كيدهم للخلق سموه باطنا | فأصبح مبنيا على غير أوتاد |
| وقالوا إذا لم تدرك الأمر سلمن | لمن فتح الرحمن من فيض إمداد |

أما الطائفة الثانية فهم اللذين تطرفوا وحادوا على نهج الحقيقة، فأباحوا ما أحظرته الشريعة
واعتبروا الدين معطلا لهم للسير في طريق التقدم، إذ لم يعد باستطاعته حسبهم مجارة العصر
ومسايرة التطور والرقي الذي بلغته الحضارة الغربية. يقول (1)

| | |
|---------------------------------|-------------------------------|
| ولست أريد علم قوم تطرفوا | وحادوا على نهج الحقيقة فساد |
| أباحوا من المحظور ما لا تستسيغه | من الشرع معلوم ولا قول آحاد |
| وقالوا بأن الدين أصبح عاطلا | عن السير في عصر من النور وقاد |
| وقالوا هدى الإسلام جاء مؤخرًا | لهم عن مجارات الأجانب بعاد ! |

(2) نفسه، ص 94 .

(3) نفسه ، ص 90 .

(4) نفسه .

(5) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 1 ، ص 48 .

(1) المرجع السابق نفسه

والشاعر راغب عن علم هذه الطائفة أو تلك، بل ويحكم على الإتجاهين بالفساد، أما إذا كان مجبراً على اختيار واحدة منهما فإنه أميلُ إلى الطائفة الأولى التي تتمسك بالدين رغم محدودية رؤيتها وضيق نظرتها . يقول (2)

كلا العلمين لا محالة فاسد
لكن بعض الشر أضعف إفساد
فلو كنت مجبوراً على أخذ واحد
لكنت على اختيار أولاهما باد

ثم يحدد بعد ذلك العلم الذي يقصده ويرمي إليه ، وهو في رأيه العلم الذي يقتفي أثر السلف الصالح من الأئمة والعلماء، الذين رفع بهم الرحمن أعلام شريعته ، والذين لا يعتمدون سوى على كتاب الله وسنة نبيه في منهجهم ، وهذا هو العلم الذي يحقق السيادة والسعادة في البلاد. يقول (3)

ولكنما اختار علم أئمة
لهم في مجال سبق وثبة جيد
بهم رفع الرحمن أعلام شرعه
فكانوا له بالحزم أكبر قواد
فلم يجعلوا غير الكتاب شريعة
ولا غير دين الهاشمي بمياد
فهذا الذي أدعوا إليه مواطني
لكي تسعدوا بين الوري أي إسعاد

والدعوة إلى تعلم الدين الإسلامي هي في أهم مظاهرها حرب شعواء خاضها المصلحون عامة، والشعراء على وجه الخصوص ضد الطرقية ورجالها وأنشطتها الخفية والظاهرة. والنماذج الشعرية في هذا المجال كثيرة ومتنوعة ، جسدت حدة الصراع بين هؤلاء وأولئك. وقد كان الشعراء يصفون رجال الطرقية بأسوء الصفات، و يعملون على كشف أهدافهم ونواياهم حتى

يحدوا من تبعية الناس العمياء لهم ، ويوجهوهم في المقابل إلى طرق الإصلاح و إلى مدارس المصلحين ومؤسساتهم الفكرية وهاكلهم الثقافية، ليتعلموا الدين الصحيح، وينهلوا العلم المفيد لحياتهم ومجتمعهم ، فهذا محمد العيد آل خليفة يضع رجال الطرقية في فئة الدجالين الذين يضيقون على الناس سبل العلم الصحيح ويلهونهم عنها بحفظ أذكارهم وأورادهم. يقول (1)

وفشا الدجل في الولاية دعوى
كل ذي سبحة تطول وذقن
وغلا القوم في الولي فظنوا
أنه كالإله يغني ويقن

(2) نفسه، ص 48

(3) نفسه .

(1) محمد العيد آل خليفة : الديوان ، ص 110 .

وأبوا كوثر العلوم عطاشاً طمعا في ورد علم لتدنى

وفي نظر محمد السعيد الزاهري هم زعانف أدعوا بطولة الأسود، حين ظنوا أن السيادة تأتيهم بما يتميزون في مظهرهم ، يتفاخرون بأنسابهم وأجدادهم، ويبدلون الجهد في ملء الجيوب عن طريق ابتزاز أموال الناس الذين أضلوه عن جادة الصواب. يقول (2)

وزعانف زعموا بأن نهم الضراغمة الأسود
ظنوا السيادة في اللحي و بطولهن وبالجعود
أبصرتهم يتفاخروا ن على البرية بالجودود
شغفوا بتعبئة الجيوب فافرغوا فيها الجهودود

وتستلزم مهمة تعليم الدين الإسلامي على مبادئه الحقة تعليم اللغة العربية وتطويرها وتحريرها لأنها اللغة التي نزل بها القرآن الكريم وجاءت بها السنة النبوية الشريفة، وهي التي ترجمت أفكار الدين الإسلامي ومبادئه واحتضنتها.

ب2- الدعوة الى تعلم اللغة العربية ونشرها وتطويرها:

هي دعوة إلى إخراجها من دائرة الجمود الذي وقعت فيه وتحريرها من الركود الذي لحقها ورد الإعتبار لها. فالإستعمار الفرنسي قد جعلها لغة أجنبية في بلادها، وحرماؤها من تعلمها وضيق مجالات استعمالها وحد من نشاطها وحيويتها، وراح يراقب الألسن التي تتحدثها، فبلغت العربية في الجزائر درجة من التدهور جعلت الشاعر المصري (أحمد شوقي) يقول فيها حين زار الجزائر سنة 1905 " عهدت مساح الأحدية فيها يستتكف النطق بالعربية، وإذا خاطبته بها لا يجيبك إلا بالفرنسية" (1) وعلى أنه ليس من الصواب الإستدلال على وضع الأمة الثقافي بلهجة مساح الأحدية، كما علق عن ذلك ابن باديس (2) يبقى في موقف شوقي جانب كبير من الحقيقة المؤلمة والمررة.

(2) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 1 ، ص 83.

(1) عبد الله حمادي : أصوات من الأدب الجزائري الحديث ، ص، ص 19 ، 20 .

(2) نفسه .

وقد أحس شعراء الجزائر بمأساة لغتهم وبمسؤوليتهم إتجاهها، فالتفتوا إليها يبعثون نهضتها ويدعمون يقظتها، عاملين على العودة بها مثلما كانت في سالف عهدها لغة قوية حضارية متينة جميلة... فنجد محمد اللقاني بن السائح يحذو حذو حافظ إبراهيم في قصيدته " اللغة العربية تتعي حظها" ويجعل العربية في الجزائر تتعي مصرعها وتبكي ألفاظها التي امتزجت بألفاظ مشوهة فأصبحت شبيهة بأثواب مرقعة. يقول (3)

ها هي ذي أم اللغى تتعي لمصرعها ها هي ذي ألفاظها تبكي وتبكيينا
خلطتموها بألفاظ مشوهة و لم تقويموا لها يوما موازيينا
صارت شبيهة أثواب مرقعة تضم من خرق طمر ملايينا
لكنها تبقى ربة الحسن والجمال أم لغات الأرض جميعا بعيدة من أن توصف بالعجز أو القصور (4)

بل هي أم لغات الأرض أجمعها كل لها عند ضيق اللفظ يأتينا
وتكررت ظاهرة التألم والحسرة على ما آلت إليه لغة الإسلام في الجزائر لدى العديد من الشعراء، فأحمد سحنون يورد أنها قد سيمت بكساد بعد أن كانت لغة الإعجاز. يقول: (5)

لغة الضاد التي ما برحت لغة الإعجاز سيمت بكساد
ويورد محمد العلمي أنها قد تركت بعد أن كانت مفخرة الأوطان وقدوة الأمم. يقول: (6)
آه على لغة الإسلام قد تركت بعد الفخار وكانت قدوة الأمم

ومنهم من يتجاوز موقف الألم والحسرة ويدعوا إلى تحرير اللغة العربية وتخليصها مما تعانيه. فمفدي زكريا يتوجه إلى الشرق عامة و يحثهم على تحرير لغتهم من أصفاد الجمود الذي

حل بها بسبب تقاعسهم عن خدمتها وتخلفهم عن تطويرها. يقول: (1)

بني الشرق هلا اليوم نظرة راحم إلى لغة أمست رهينة أصفاد
إلى لغة تشكو عقوق رجالها و قد أصبحت للغير كعبة قصاد
ألا ترقبون الله فيها فإنها لسان كتاب من هدى الله وقاد

(3) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج1 ، ص 38 .

(4) نفسه، ص 39 .

(5) أحمد سحنون : الديوان ، ص : 14 .

(6) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج2، ص186 .

(1) نهوضا بني أفريفا من سياتكم : قصيدة لمفدي زكريا ، النجاح، عدد 1357 ، الأربعاء 19 جمادي الأول 1351 / 21 سبتمبر 1932 .

ثم يعدد بعد ذلك محاسنها وفضائلها،
قاصدا فتح عقول الجزائريين لمعرفتها، وقلوبهم
لحبها وتقديرها . يقول: (2)

هي البلبل الصداح من عهد آدم
على الغصن ريان وبالوحي مياد
هي المثل الأعلى وينبوع حكمة
بها ضربت دون اللغات بأسداد
فلا غرو إن أصبحت صبا بحبها
ولا بدع إن أصبحت بلبها الشادي

ويؤكد محمد العيد آل خليفة على ضرورة تدريس النشاء علم النحو حتى يتسنى لهم تعلم
العربية وحفظها بطريقة سليمة، فإذا وصفت اللغة بأنها عقد من الدرّ فائق الرصف، فإن علم النحو
هو الكفيل بسبك نظامها وتنظيم رصفها. ونجده يوجه النشاء في هذه الأبيات إلى دراسة كتاب
"القطر" للمؤلف عبد الله بن هشام، وهو كتاب في النحو وقواعد اللغة العربية يشهد له ابن خلدون
بالتفوق. وقد قيلت هذه القصيدة أساسا في ختم درس كتاب القطر سنة 1928، حيث كان الشاعر
وقتها معلما ببيسكرة. يقول (3)

فكأنما هو عقد ذر فائق
رصفا وعلم النحو سبك نظامه
وكفاكم في النحو قدرا أنكم
راوون علم النحو عن علامه
شهد ابن خلدون له بتفوق
في النحو تخطيطا على إعظامه
فارعوا (لعبد الله) ما أسدى لكم
(في القطر) واغتبطوا بحسن ختامه

ب3- الدعوة إلى دراسة تاريخ الأمة وإحياء تراثها:

لمّا استهدف الإستعمار الفرنسي تراث الأمة وتاريخها بالطمس والتزييف، استهدفه عن
وعي لدور التاريخ في حياة الأمم، وإدراك لفائدة التراث في تحديد شخصيتها وهويتها وبلورة
مسارها نحو المستقبل. خاصة وأنه أراد مستقبلا فرنسيا خالصا يقطع جميع صلاته بالماضي
دفعة واحدة وإلى الأبد. كذلك لمّا إلتفت كذلك الشاعر الجزائري إلى تراث ماضيه وأجداده إلتفت
إليه عن وعي أيضا بأهمية التراث فيما هي الجزائر مقدمة عليه من إصلاح ونهضة؛ فقد ارتبطت
دعوته إلى العلم بالدعوة إلى دراسة تاريخ الجزائر والتفتيح عن أمجاد الماضي وإحياء مآثر
الأجداد، حتى يستفيد الجيل الجديد من التجارب السابقة ويأخذ الخبرة والعبرة منها، ويستعيد ما
كان للبلاد من تقدم وازدهار ورفق. وفي الإهتمام بالتاريخ والتراث أيضا رد على سلطات

(2) نفسه .

(3) محمد العيد آل خليفة : الديوان ، ص 91 .

الإستعمار بتأكيد حضور الأمة الجزائرية في امتدادات التاريخ ، هذا الحضور الذي ما فتئت مدرسة التاريخ الإستعمارية تنفي وجوده وتغمره بالأباطيل

والشاعر الجزائري شديد الإعتزاز بماضيه شديد الفخر بأجداده، فمحمد السعيد الزاهري

يجعلهم أجمل عقد منظوم في جيد الزمن، ويرى أنهم كانوا الحجاج بين الوري. يقول: (1)

كانت أوائلنا عقدا فيا له من عقد نضيد بجيد الدهر منضود
كانوا الحجاج من بين الوري فخلوا فبات ما فعلوا في جوف أخدود

ويشيد بهم أيضا في قصيدة " الجزائر تحيي المتطوعين" قائلا أنهم سبقوا أهل عصرهم في

المكارم وكانوا القوم الأكابر في الوري، ولو أنهم كانوا حضرا في هذا العصر لاهتدوا الى ما اهتدى اليه الغرب اليوم من مخترعات ومبتكرات، ولحلّقوا بالمناطيد في الجو، وشقوا بسفنهم

البحار وغاصوا أعماقها واستخرجوا أغلى الجواهر منها. يقول: (2)

لقد سبقت أسلافنا أهل عصرهم إلى كل شيء في المكارم فاخر

.....

.....

فكانوا هم القوم الأكابر في الوري و ما كان قوم غيرهم بالأكابر
ولو أنهم كانوا في ذا العصر حضرا لكانوا على المنطاد أول طائر
ولاصطنعوا ما يعجز الطير في السماء مداه وكانوا فيه أمهر ماهر

وغاصوا ببطن البحر حوتا وأخرجوا من القعر قعر البحر أغلى الجواهر

ومن جهته ينوه الشاعر محمد العيد آل خليفة ببعض مدن الجزائر ذات التاريخ العريق

والماضي الثقافي المجيد كتلمسان وبجاية وتيارت والقلعة والتي ازدهرت في ماضيها بشتى

الفنون، وكانت معاهدها العلمية و حصونها ملاذا لمهاجري الشرق والغرب. وكان حكامها ملوكا

نوي عزة وبأس، دعموا برها وبحرها بمنشآت عظيمة من مدن وأساطيل، ورعوا شعوبهم بوعي

وساسوها بحكمة وشورى. يقول: (1)

في تلمسان في بجاية في تيهرت في القلعة أزدهى كل فن

(1) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائري في العصر الحاضر ، ج 1 ، ص 89 .

(2) نفسه، ص 75 .

(1) محمد العيد آل خليفة : الديوان ، ص : 109 .

يوم كانت مهاجر الشرق والغـر
وعليها من الملوك ذوي العـز
دعموا البر دعموا البحر بالأعـ
ب مثابا كمعهد أو كحصن
ة والبأس كل سهران فطن
لام من منشآت مدن وسفن

فالأمم المتقدمة اليوم في رأي العقبي والتي أصبحت تفخر بما بلغته من تقدم ورقي ، كانت

في الماضي تنهل العلوم من أجدادنا وتأخذ المعرفة عنهم يقول: (2)

كم أمة أصبحت تزهو بعزتها
وكم قبيل أتى يبغي معارفنا
كانوا يؤمون روض العلم دانية
قطوفه ومعين الفضل يبغونا
كانت لنيل العطا قدما ترجينا
وكم جموع لها كانت توافينا

ويعد الفخر عموما من الأغراض القديمة للشعر العربي، هذا الذي كان المدرسة الأولى التي تتلمذ فيها الشاعر الجزائري وصقلت موهبته اللغوية والفنية والفكرية فيها. وبحكم التأثير الكبير لشعراء الجزائر بالتراث الشعري العربي، نلمس في افتخار الشاعر الجزائري بأجداده صدى لهذا الغرض القديم. لكن الجديد فيه أن فخره لم يكن بنسب أجداده وجاههم وعزهم كما كان الفخر في الماضي، بل بما حققوه في المجال العلمي والثقافي وبإسهاماتهم في صنع الحضارة العربية الإسلامية. كما أنه لم يكن فخرا على أساس التباهي أو التعالي أو للتفاخر في ذاته، بل كان لبث الحماس في نفوس أبناء المجتمع وبعثهم على اليقظة، وحملهم على اقتفاء آثار الأسلاف والإقتداء بهم ، وتهيئة الجيل الجديد ليكون خير خلف لخير سلف. نقرأ ذلك في دعوة محمد اللقاني بن السائح في قوله: (1)

بني وطني هل من نزوع لأجداد
لقد ركبوا اللعلم سهوة منطاد
وحين دعا أحمد بن عبد الرحمن أبناء مجتمعه لكي يدرأوا على أنفسهم وصمة
الجهل، دعاهم إلى الاقتداء في ذلك بالسلف، وان يحذوا حذو الأجداد الذين شيّدوا مفاخر لم تمح
آثارها السنين. يقول: (2)

فقاوموا الجهل بالعلم الصحيح ولا
قوموا له قومة الأبطال واتحدوا
تبقوا له أثرا فالجهل هدام
وذللوا الصعب كي تزال أوهام

(2) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائري في العصر الحاضر ، ج 1 ، ص : 132 .

(1) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 1 ، ص 45 .

(2) الإكتتاب الإكتتاب مواطني الأعراف : قصيدة أحمد بن عبد الرحمن الشاذلي ، النجاح ، عدد 635 ، 23 ربيع الأول 1347 / 7 ديسمبر 1928 .

كونوا كما كان أسلاف لنا عبروا وشيدوا فخرا لا تمحيه أعوام

ويحث محمد الهادي الزاهري على العودة إلى التراث والتاريخ وتربية الصغار عليه، فهو

الشفاء لنفوسهم الكفيل بإعطائهم الدروس والعبر. يقول: (3)

ربوا صغاركم على تاريخهم ذكراهم تشفي الفتى المفؤودا

تاريخهم هو الذي يعطيكم درسا بليغا صالحا ومفيدا

أما حمزة بوكوشة فيضع مهمة العناية بإحياء التراث ضمن مهام الحركة

الإصلاحية، فيتوجه بدعوة رجال الإصلاح إلى إحياء مجد الآباء واقتفاء نهج المصلحين الأوائل.

يقول: (4)

إيه بني الإصلاح والقوم الألى فتحوا البلاد بعزة وإياء

أحيوا لنا مجد الجدود فإنـه نسجت عليه عناكب الجهلاء

واقفوا سبيل المصلحين وطالعوا تاريخ أسلاف مضوا لفناء

وكثيرا ما تختلط مشاعر الفخر والإعتزاز لدى الشاعر الجزائري أثناء حديثه عن التراث

بمشاعر الحسرة والألم والبكاء على هذا المجد الضائع، الذي نسيه أبناء الجزائر اليوم وابتعدوا

عنه، بل ومنهم من تنكر له، ليصبح الحديث عن أمجاد الماضي شبيها بالوقوف والبكاء على

الأطلال، ويفتح مجال المقارنة بين الماضي والحاضر للإتعاض وأخذ العبر، نقرأ ذلك في

قول الطيب العقبي: (1)

قف بنا نندب الأطلال بعدهم فالشعب قر بما أبقوا له عينا

أو في قول محمد العيد آل خليفة: (2)

يالمجد مضيع غير مجد عض كف عليه أو قرع سن

وقد يكون الحديث عن الماضي أيضا حديثا عن الإنتماء إلى العروبة والإسلام، حيث يتعدى

التراث، لدى الشاعر الجزائري، أحيانا حدود الحيز الجغرافي المحلي ليمتد إلى الشرق، الذي مثل

بماضيه وحاضره دائما، المحرك الفعال لكل الهزات والحركات الفكرية والثقافية في البلاد، ومن

(3) محمد الهادي الزاهري: شعراء الجزائري في العصر الحاضر، ج1، ص: 197.

(4) هل في الجزائر من يرق لحالها: قصيدة لحمزة بوكوشة النجاح: عدد 1368، الأربعاء 09 جمادي الثانية 1351 / 12 أكتوبر 1932.

(1) محمد الهادي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ص: 131.

(2) محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص 110.

الطبيعي أن يجعل الشاعر الجزائري ماضيه يمتد إلى الأصل الأول للإسلام، والمنبت الأول للعروبة، وقد دعا مفدي زكريا في هذه الأبيات إلى اقتفاء أثر السلف حيث يقول : (3)

إلى ما الرضى بالدون والعلم صراح بنا نعتلي للعز مقعد أسى—اد
ألم نك أولى الناس بالعز إن—ه وليد حمانا من جدود لأحف—اد
ألم نك أولى الناس بالشمس إنها من الشرق صاف نورها ساطع بادي
أم نك أولى الناس بالخذ أننا بنو الشرق من أرواح خلد وأجساد

كما يتحدث محمد العيد آل خليفة عن قدم وعراقة الحضارة العربية في التاريخ ويرى أن العرب قد سبقوا روما وأثينا في الوعي والحكمة ، فكم حوت الأرض من ملك عاد وشداد وكم ضمت من آثارهم ومخلفاتهم . (4)

إن للعرب في الحضارة قدما قدما للورى عليها استناد
كم وعوا في الحجاز من قبل روما وأثينا من حكمة وأفادوا
وعت الأرض كل ما عاد من عا د عليها وشاده شداد

وعلى العموم يمكن أن نضيف الملاحظات التالية حول ارتباط الدعوة إلى العلم بالعناصر الأساسية للثقافة والشخصية الوطنية:

* إن هذا الارتباط هو خلاصة التلاحم القوي بين الحركة الأدبية والحركة الإصلاحية واتحاد أهدافهما وغاياتهما معا.

* لقد أكد الشاعر من جديد أن دينه الإسلام، ولغته العربية، وأن له تاريخا مشرقا يعتز به ويعتز بانتمائته الحضاري. وحاول من خلال دعوته أن يكرس هذه الحقائق في نفوس أبناء المجتمع ويبث فيهم رغبة التمسك بالأصول والإقتناع بالتميز، فينشأ لهم بصورة تلقائية، إحساس بوجوب الدفاع عن هذا التميز ضد كل من ينوي تحطيمه.

* لا يفصل الشاعر في دعوته بين العناصر الثلاث للثقافة الوطنية، اللغة والدين والتاريخ إلا نادرا. فحين يتحدث عن التراث مثلا أو التاريخ يتحدث عن الإسلام والتاريخ الإسلامي للوطن وحين يتحدث عن الإسلام يتحدث عن ماضيه وأعلامه وأئمته، أو عن اللغة التي نزل

(3) نهوضا بني أفريقيا من سياتكم: قصيدة لمفدي زكريا ، النجاح ، عدد 1357 ، الأربعاء 19 جمادى الأولى 1351 / 21 سبتمبر 1932 .
(4) محمد العيد آل خليفة : الديوان، ص 119.

بها....والسبب في ذلك يرجع إلى عدم وجود حواجز تفصل بين هذه العناصر الثلاث في ذهن الشاعر الجزائري؛ إذ تمثل الثقافة الجزائرية بالنسبة إليه تلك العناصر مجتمعة كلها ودفعة واحدة.

* وحين يتحدث الشاعر الجزائري عن الإسلام، ويدعو إلى تعلمه على مبادئه الحقة، نجده يصدر في ذلك عن نظرة متطورة عن النظرة الدينية السابقة؛ فالشعر الديني الذي طبع الفترة السابقة لإنبثاق النهضة لم يكن سوى مدائح وتوسلات دينية وقصائد في التصوف، التجأ فيها الشعراء إلى الدين باعتباره ملاذهم الوحيد للتفيس عما يعانونه من ظلم . لكن الإسلام أصبح مع شعراء فترة النهضة حافزا لإستهراض أبناء المجتمع، وخطوة أولى في الإصلاح الذاتي، وألّفا التعليم الجديد، وعامل قوة وبناء وتقديم.

* والشاعر الجزائري حين يتحدث عن ثقافته كثيرا ما يجعل حيز ثقافته المحلية يذوب وسط الدائرة الثقافية الكبرى التي ينتمي إليها وهي الشرق بالنسبة إليه،و الذي طالما كان المفاعل الدينامي لأغلب الحركات والهزات الفكرية في الجزائر. وقد يرجع ذلك أيضا الى أن أغلب شعراء الجزائر قد تخرجوا من المعاهد والجامعات العربية، كالزيتونة والأزهر.... وتشبعوا بتعاليمها، لذا نجد الواحد منهم حين يدعو النشء إلى ضرورة تعلم الدين الإسلامي ولغة الضاد، والعودة إلى التراث وتكريس الإنتماء الحضاري، يصدر في ذلك عن الخلفية الثقافية التي جعلت نظرتة إلى كل هذه العناصر تمتد إلى الشرق، ولا يقيم الشاعر الجزائري حدود لثقافته أو يتحدث عن خصوصيتها إلا نادرا .

ج- ارتباط الدعوة إلى العلم بالمدرسة:

لقد حارب الإستعمار الفرنسي مؤسسات التعليم العربي التي كانت منتشرة في البلاد، وعمل على منع ظهورها وانتشارها مرة أخرى. وحين أسس المدارس الفرنسية الخاصة بالأهالي لم تكن تلك التي يعول عليها في البناء الفكري والحضاري للمجتمع، بل جاءت تكرر التبعية الفكرية وتدعم الغزو العسكري بالغزو الروحي. لذا اكتسحت المدرسة في هذه الظروف لدى الشاعر الجزائري مكانة هامة و جاءت دعوته ملحة إلى تشيد المدارس والإلتحاق بمقاعدھا، وتربية الأبناء فيها والإسهام المادي والمعنوي في إنجاح العملية التعليمية عموما.

فأبو اليقظان يجعل المدرسة أساس مجد الشعوب في جميع العصور والأزمنة، فهي الأم التي تربي الأجيال، ومهد الأمم الطامحة في الحياة. وهي الثروة الكبرى للأمة وساعدها الأقوى يقول (1)

وما الفضل إلا المدارس إنها
هي الأم هي المهد للأمة التي
هي الثروة الكبرى هي الذخر والمنى
مغارس مجد الشعب في كل أزمان
رأت أن تعيش بين سائر أقران
هي الساعد الأقوى لها والجناحان
.....

فامات شعب ضم بين ربوعه
ويدعو الشاعر عبد الرحمن بن العقون أبناء قومه إلى السعي في تأسيس المدارس لتهديب
النشء ونشر سائر العلوم بها. يقول: (2)

ألا يابني قومي هلموا وأسسوا
وقوموا بنشر للعلوم بأسرها
مدارس تهذيب لكيما نثوب
وكونوا لصوت النصح نعم المجيب

كذلك يرى محمد السعيد الزاهري أن فتح المدارس لأبناء الجزائر سبب وحيد لهدايتهم إلى
جادة الطريق، وعامل أساسي في الإرتقاء بين المجتمعات . يقول: (3)

ياقوم تفتح المـدار
ربوا بها الأولاد كـي
س للهدى سبب وحيـد
نسمو على العدد العديـد

وهي في تصور محمد العيد أفضل ما تتحصن به البلاد يقول: (1)

العلم سلطان الوجود فسد به
والجأ به بدل الحصون فلا أرى
ما شئت أو زد عن حياضك وأدفع
حصنا كمدرسة سمت أو مصنع
قل للجزائر أنشئي كليـة
تمحو جهالة شعبك المتسكع

وتأتي عقبة المال في مقدمة العقبات التي تقف في وجه المشروع التعليمي، فالإستيلاء على
عائدات الأوقاف، وعدم تخصيص ميزانية كافية تسد حاجات التعليم، والإصرار كذلك على إفقار
الشعب الجزائري وتجريده من ممتلكاته... كل هذه الأسباب جعلت أموال الجزائر تؤول في هذخ

(1) أبو اليقظان : الديوان ، ص ، ص : 88 ، 89 .

(2) عبد الرحمن بن العقون : الديوان ، ص : 18 .

(3) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 1 ، ص 85 .

(1) محمد العيد آل خليفة : الديوان ، ص 146 .

الحقبة إلى الإدارة الاستعمارية والمعمرين، وإلى أقلية قليلة من التجار الجزائريين والأغنياء القدامى الذين حافظوا على مكانتهم المادية والاجتماعية بعد الإحتلال لسبب أو لآخر. ذلك ما جعل مشكل التمويل يكون أحد العوائق التي صعبت من مهمة المصلحين في عملية تشييد المدارس وبناء المعاهد...

ولم يغفل الشعراء هذا الجانب، فقد توجهوا بدعوتهم إلى تلك الأقلية القليلة التي تملك المال، لتجود ببعض أموالها و تتبرع بها لفائدة العملية التعليمية، فتبذل أموالها لتشييد المدارس وبناء المعاهد لكي تتوسع دائرة التعليم.... ففي قصيدة محمد العلمي: من يجد بالمال ينجح - ويدل عنوانها على مضمونها- يدعو الشاعر أهل الفضل و الإحسان إلى إعطاء الأموال لتشييد المدارس ومؤسسات التعليم، والإقتداء في ذلك بابن جيكو، وهو أحد المتبرعين بأموالهم لفائدة الجمعيات الخيرية والنشاطات التعليمية. يقول: (2)

| | |
|--------------------|-----------------------|
| يا أهيل الفضل هبوا | وانشروا كل مصاب |
| شيدوا بعض صروح | لعلوم واكتساب |
| | |
| وافعلوا فعلا عظيما | (كابن جيكو) في اکتتاب |
| بذل المال الجزيل | راجيا نيل الثواب |

ويدعو من جهته محمد العيد آل خليفة إلى إعطاء الدراهم في سبيل التعليم، فمن يوق شح نفسه لم يكن آثما ولا خاسرا يقول: (1)

| | |
|------------------------------|------------------------------|
| وفي سبيل التعلم أعطوا دراهما | ففي سبل التعليم تعطى الدراهم |
| ومن يوق شح النفس لم يك آثما | ولا خاسرا إن باء بالخسر آثم |

والوظيفة الأساسية للمدرسة هي التعليم ، وقد دعا إليها الشاعر أي إلى الإلتحاق بمقاعد الدراسة والأخذ من علومها والإلتزام بما تسعى لنشره من مبادئ تربوية وخلقية. فمحمد العلمي يحاول ترغيب النشء في التعليم وإغرائه إلى مقاعد المدرسة يقول في إحدى قصائده (2)

(2) من يجد بالمال ينجح: قصيدة لمحمد العلمي، النجاح، عدد 415، الجمعة 30 شعبان 1345 / 04 مارس 1927.

(1) محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص: 137.

(2) إلى النجاح: قصيدة لمحمد العلمي، النجاح، عدد 299، 08 ذو القعدة 1344 / 21 ماي 1926.

فبالعلم والتعليم في كل ملة
وبالعلم والتعليم في كل ملة
وبالعلم والتعليم في كل ملة

أناروا مصابيح المدارس بالفكر
أقاموا حدود العدل بالحزم والقهر
أنالوا مفاتيح الكنوز بلا عسر

ولا يقتصر التعليم لدى بعض الشعراء على الذكور فحسب بل تتساوى لديهم الأنثى والذكر في هذا الحق. ومنهم من يرى أن تعليم المرأة ضرورة تقتضيها نهضة المجتمع الجزائري، فهي الشطر من المجتمع الذي يعول عليه في تربية النشء التربوية الصالحة المفيدة التي تجعل منهم سواعد بناء ومعاول غرس وزرع. وقد عاشت المرأة الجزائرية والعربية عموماً، وإلى مطلع النهضة في عزلة عن المجتمع،⁽³⁾ محرومة من جميع أشكال الإسهام الفكري والثقافي فيه. وفي هذا الصدد نجد الشاعر محمد الصالح خبشاش، وله سبق⁽⁴⁾ يرثي حال المرأة الجزائرية ويتأسف للجهالة التي ضربت فتيات الجزائر، ففي حين كانت نساء الغرب تسعى إلى العلا وتتمتع بنشوة المعرفة بقيت نساء الجزائر سجينات جهلن وتخلفهن. يقول: ⁽⁵⁾

أترى أرى فتياتنا وسط المدا رس يرتشفن سلافة القراء

أترى أرى فتياتنا عون إلى شباننا في الساعة اللأواء

.....

أترابكن من الفرنج غدون في غرف العلا من عزة قعساء

ثم يرد الشاعر على الذين وقفوا في وجه تعليم المرأة من مشايخ الطرق وأصحاب الزوايا وتهجموا لفك قيود جهلها وتخلفها، وذلك في رأيه ليس إلا علامة من علامات الضعف والجمود لأن الشريعة الإسلامية لم تحرم المرأة من التعليم أو تمنع تثقيفها وترقية فكرها. فيقول: ⁽¹⁾

قد أوعدوا وتجهموا وتهددوا من حل قيد خليفة الأرزاء

إني لأعتقدن أن عقولهم ممزوجة بمجمدات الماء

فهل الشريعة حرمت تعليمها يا نخبة الأشياخ والصلحاء

إن كان ذاك فبينوا بحقائق قطعية ليماط كل رداء

⁽³⁾ عبد الله الركيبي: دراسات في الشعر الجزائري الحديث، ص: 18.

⁽⁴⁾ نفسه.

⁽⁵⁾ محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، ص: 282.

⁽¹⁾ المرجع السابق نفسه، ص: 283.

و يبين زهير الزاهري أن تعليم المرأة لايعني أبدا سفورها، بل يحقق لها العزة والكرامة. و البنات لديه أولى بالعلوم من الولد، لأنها تعد بحق مدرسة في حد ذاتها، وتعليمها يضمن التربية الصالحة لأبناء المجتمع يقول: (2)

والبنات أولى بالعلوم من الفتى إذ هي مدرسة لكل وليد

إني أريد لها الكرامة والحيا أما السفور فمنية المفؤود

كذلك يحاول محمد الهادي السنوسي الزاهري فك العزلة عن المرأة الجزائرية، وجعلها عضوا يمكن أن يسهم إلى حد كبير في حل مشاكل البلاد وتخفيف مآسيها ، إذ أصبحت في نظره تنادي بالنهوض وتلح عليه وتمد الجيد سعيا إلى العلا. يقول: (4)

أخذت تمد إلى النهوض الجيدا لما رأت علم الأخ مقعودا.

و يتحدث الشاعر في معظم القصيدة بلسان المرأة الجزائرية؛ ينظر بعينها إلى حاضر الواقع الثقافي للمرأة الجزائرية، ويسدى بلسانها النصح لتحسين الظروف الثقافية للبلاد وتطويرها. وفي ذلك تلميح منه إلى ضرورة الإهتمام بهذه الشريحة من المجتمع وإعطائها فرصة الإسهام في إنهاض البلاد وبعثها يقول في إحدى أبيات هذه القصيدة (5)

أنا لو أن العلم حل بساحة منا لأبصرت النساء أسودا

وبالفعل، لقد قطع تعليم المرأة خطوة هامة على يد المصلحين مع انبثاق فجر النهضة، وجاء الإهتمام بتعليمها بغية تحقيق هدفين، أولا: دورها الفعال في تربية الأجيال وإسهامها في الإصلاح الإجتماعي. ثانيا: حمايتها وحماية المجتمع الجزائري من مخططات الإستعمار التي كانت تهدف إلى إدماج الأسرة الجزائرية - ومن ورائها المجتمع، في الثقافة الفرنسية عن طريق المرأة (1) لكن هذه الخطوة في تعليم المرأة إنما توصف بالهامة إذا ما قورنت بما كان عليه وضع المرأة الجزائرية قبل هذه الفترة. وما عدا ذلك يبقى تعليمها منحصرا في نطاق ضيق ومحدود جدا لم يوصلها إلى مستويات راقية في الثقافة والعلوم والأدب، إذ لم نجدها تشارك الرجل في الكتابة الصحفية مثلا أو التعبير الأدبي.... بل انحصرت الغاية من تعليمها في ترقية دورها ووظيفتها التربوية والإجتماعية في الأسرة والمجتمع.

(2) صورة المجتمع الجزائري: قصيدة لزهير الزاهري، الشهاب، ج 5، المجلد 6، محرم 1349 / جوان 1930، ص: 305.

(4) محمد الهادي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج 1، ص 195.

(5) نفسه، ص 197.

(1) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3، ص 454 وما بعدها.

د/ ارتباط الدعوة إلى العلم بالدعوة إلى النهضة:

لقد بلغ الشاعر الجزائري حد الإقتناع التام أن لا نهضة لبلاده بدون علم ، ولا تطور أو رقي من دون رقي في الثقافة. فإذا كانت النهضة تعني الخروج من الظلمة إلى النور، فإن نهضة الجزائر في تلك الفترة تعني مناهضة براثين الإحتلال والخروج من البؤس الذي سببه وجوده، ولا يكون ذلك إلا بالعلم والتعليم والتربية الصالحة الي تعد أولى خطوات الخلاص.

وحين يجمع الشاعر في شعره بين لفظتي العلم والنهضة. - أو كل ما يأتي في سياق هاتين الكلمتين - تصبح لفظة العلم شاملة لجميع التصورات التي ربط بها الشاعر رؤيته للعلم، فهو علم الحضارة الغربية الجديدة، و علم بأصول الثقافة العربية الإسلامية، ومحو للجهل عن طريق نشر المدارس وتوسيعها وتطويرها.....، حيث يكفيه فقط أن يخرج البلاد من الظلمة إلى النور، ويسير بها إلى طريق النهضة والرقي ليكون العلم هو كل ذلك. ففي إحدى أبيات قصيدة وما "الناس إلا اثنان"، يجعل محمد السعيد الزاهري العلم والجهل قاعدتي التفوق والتدهور، ومؤشري الغلبة بين الأمم والمجتمعات، إذ لولا انتشارها في الورى لما كان في العالم غالب ومغلوب يقول: (1)

ولولا انتشار العلم والجهل في الورى لما كان مغلوب ولا متغلب
و العلم يحيي الموتى لدى مفدي زكريا، فهو إن حل بالرفاة أنالها حياة أزلية لاحد ولا نهاية لها، وهو روح العز وأكسير الفضل ومنبع السعادة يقول: (2)

هو العلم إن حل الرفاة أنالها حياة بلا موت وعيش لأمداد
هو العلم روح العز سر هداية وأكسير أفضال ومنبع إسعاد
و حين يدعو ابن بشير الرابحي أهل الجزائر إلى العلم، فإنه يجعله سبب السعادة وأساس

النجاح لكل من يسعى في طلبه، ومورده عذب فرات لكل من مد اليد إليه، يقول: (3)

نعم هو العلم لا تبغي به بدلا هذا الذي كل من قد ناله سعدا
العلم أس النجاح إن عملت به في كل ماترتجيه النفع قد شهدا
أهل الجزائر إن العلم مورده عذب فرات لمن مد إليه يدا

(1) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 1 ، ص 90 .
(2) نهوضا بني أفريقيا من سياتكم : قصيدة لمفدي زكريا ، النجاح : عدد 1357 ، الأربعاء 19 جمادى الأولى 1351 / 21 سبتمبر 1932 .
(3) العلم أساس النجاح: قصيدة لابن بشير الرابحي ، النجاح : عدد 248 ، الجمعة 03 جمادى الأولى 1344 / 20 نوفمبر 1925 .

والعلم لدى الشاعر محمد العيد آل خليفة أحسن ما لاذ الرجال به، فمن فاته العلم ديست أرضه ورمي فيما يرمى به الجهلة من مذلة ومهانة (4)

العلم أحسن ما لاذ الرجال به من فاته العلم ديست أرضه ورمي
أما الجهل فهو أشبه بالخراب الذي لا بيت له سوى الخراب البلقع، لا يحل بأمة إلا ويهد
أركانها يقول : (5)

الجهل أشبه بالخراب فماله من منزل غير الخراب البلقع
الجهل غيم فوق أرضك ضارب غطى على أحيائها والأربع

والواقع أن جميع هذه التصورات التي ارتبطت في ذهن الشاعر بالعلم كانت انعكاسات لممارسات إدارة الإستعمار في الميدان الثقافي. ولا يمكن الجزم أن الشاعر قد أفرد كل فكرة بقصيدة خاصة، بل كان أحيانا يجمعها أو يجمع بعضها وأفكار أخرى تتعلق بالإصلاح الفكري

والإجتماعي في القصيدة الواحدة. (1) وقد اجتمعت هذه التصورات كلها في ذهن الشاعر في محاولة بحث متواصل في عوامل النهوض بالبلاد وكيفية الإسهام الفكري والثقافي لإخراجها من محنتها. وكان البحث في شعره متوصلا أيضا في سبل إيصال هذه الأفكار إلى القارئ ومن خلاله المجتمع بصورة تكون أكثر إقناعا وتأثيرا وفاعلية فيه. وذلك ما سنحاول كشفه في الجزء الموالي من هذا الفصل.

(4) محمد العيد آل خليفة: الديوان ، ص 104 .

(5) نفسه، ص 146 .

(1) عبد الله الركبيبي : الشعر الديني الجزائري الحديث ، ص، 580.

II - طرق الدعوة إلى العلم :

للدعوة عموماً وجهان: دعوة مباشرة يتوجه فيها الداعي إلى المخاطب مباشرة، بصيغة الأمر أو النهي وما يأتي في سياقهما، وأخرى غير مباشرة يستعمل فيها وسائل عديدة في الإغراء والترغيب من أجل إقناع المخاطب بما يدعو إليه ودفعه بصورة غير مباشرة إلى اختيار ذلك وتفضيله. وقد انتهج شعراء الجزائر هاتين الطريقتين في دعوتهم إلى العلم وحثهم على التعليم.

(1) الدعوة إلى العلم بطريقة مباشرة:

اعتمد بعض الشعراء هذا الأسلوب الذي يتميز بقصر في النفس الشعري؛ بحيث لا تتعدى الدعوة فيه، في غالب الأحيان الشطر أو البيت أو البيتين، ويعتمد فيه صيغة الأمر أو النهي أو ما يأتي في سياقهما، أو ما يأتي في معناهما وفي غير لفظهما. وغالبا ما تكون الدعوة إلى العلم بهذه الطريقة واحدة من بين عدد منها يسترسل خلالها الشاعر نصائحه ومواعظه للإصلاح الاجتماعي والتربوي والخلقي والفكري؛ بحيث يكون جزء هام من القصيدة عبارة عن دعوات مباشرة إلى الإصلاح والنهضة وإلى التعلم والثقافة وإلى التهذيب النفسي والتربية الخلقية.

ويظهر هذا الأسلوب بصورة واضحة في قصيدة رمضان حمود " اركضوا إلى الأمام " حيث يمثل العنوان في حد ذاته نداء جهيرا لليقظة و النهضة ودعوة مباشرة إلى ذلك. ويمكن أن نقرأ صيغ الأمر المتتابعة والمركزة : "قوموا"، "انبذوا"، "روموا"، "استنشقوا"، "تركوا"، "ارفعوا".... (1) والتي تؤكد صفة المباشرة و تهدف إلى الوعظ والإرشاد واستنهاض الهمم. وفي إطار دعوته إلى العلم يقول : (2)

ياكرام الناس قوموا
من سبات لا تليق
انبذوا الجهل وروموا
كل علم واستنشقوا

نقرأ هذه الطريقة في الدعوة أيضا لدى محمد بن الحاج ابراهيم الطرابلسي في قصيدة " بعلمك لا بثوبك في الرجال " حيث جاء جزء هام من أبياتها على هذا النمط. يقول : (3)

شباب العصر شمر للمعالي
فإن العز في هذا المأل
وبادر للحياة بلا تـوان
ولا تكسل، ولا تبخل بمال

(1) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ص : 175

(2) نفسه .

(3) نفسه، ج2، ص 199 .

فشد بالعلم صرح العز واعل علو الشهب في جنح الليالي

وبلغ أمة نامت طويلا أحاديث الجدود ذوي الخصال

نقرأه أيضا في بعض أبيات قصيدة الطيب العقبي " رد التحية فرض " التي يستهلها بتحية

جريدة "الجزائر"، ثم سرعان ماينتقل من موقف التحية إلى موقف الوعظ متخذا من الأسلوب

المباشر نمطا في إبلاغ دعواته ومواعظه. يقول: (1)

حيّ الجزائر مادامت تحيينا وانهض بشعب قضي في جهله حيناً

واعمل لخير بلاد طالما هضمت حقوقها واتخذ من حبها ديناً

وسرحتيها على تلك الطريق إلى حيث المعارف حيث العلم يهديننا

وتتكرر هذه الطريقة كثيرا وبصورة ملفتة للانتباه في قصائد الشاعر محمد العيد آل خليفة

الإصلاحية، فهو أكثر شعراء تلك الفترة ارتباطا بالإصلاح وأشدهم تعبيراً عن مبادئ الفكر

الإصلاحي ودعماً لمسيرته. وقد سائر شعره النهضة وواكبها ورافقها في جميع مراحلها فكان له

في : " كل ناحية من نواحيها، وفي كل طور من أطوارها وفي كل أثر من آثارها - القصائد

الغر"⁽²⁾. وقصائده التي اشتملت على الدعوة إلى العلم، اشتملت في الوقت ذاته على الدعوة إلى

النهوض وإلى محاولة تغيير الواقع المرير الذي تتخبط فيه البلاد، فنجده يجمع عدة أفكار إصلاحية

في القصيدة الواحدة.

ففي قصيدته " ويخلد الإسلام" يستعرض ما أصاب الجزائر من فساد ديني وخلقي، وما حل

بها من مظالم، ثم يحاول وصف الدواء لدائها والعلاج لما فشى فيها من أمراض. وكانت وصفته

جملة من الوصايا والمواعظ لأبناء المجتمع يحثهم فيها على التمسك بالدين بتعلمه على أصوله،

والتقيد بأحكامه والإلتزام بمبادئه، وعلى نشر العلم وتثبيت أسس الثقافة الجزائرية. يقول: (3)

فأقيموا شرائع الله واحشوا جانب الله أيها الأقوام

علموا أهلکم من العلم حظا نافعا تستغله الأفهام

.....

.....

(1) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج1، ص 130.

(2) محمد العيد آل خليفة : الديوان ، ص ج

(3) نفسه ، ص 176 .

علموا أمة الجزائر فالعلم م دليل لخيرها وزمام

علموها دينا من الله سمحا ليس فيه إصر ولا إرغام

كما يتوجه إلى العلماء في قصيدة " تحية العلماء " بعدد من النصائح، كان من جملتها حثهم

على نشر العلوم والمعارف من حيث هي أفضل ما يتحضر به الشرق من هجمات

الغرب، وإلى توخي البحث والإخلاص فيها وتيسير مداركها للناس. يقول: (1)

وحي على نشر العلوم فإنها حصون لحفظ الشرق من خطر الغرب

توخوا بها البحث اليسير وأخلصوا مداركها للناس من بحثها الصعب

وخوضوا بها بحر الحياة تكن لكم سفينة أمن فيه مأمونة الثقب

ويجعل مواعظه في قصيدة "خطك الله للعباد كتابا"...وصايا لأبناء المجتمع من خبير ذاق

طعم الحياة حلوها ومرها، فيوصيهم بالتمسك بالدين والإهتمام بكتاب الله والإعتصام بهديه،

والإهتمام بالعلم، وبإحياء اللغة وفك قيودها. يقول: (2)

يارفاقي وصية من خبير ذاق طعم الحياة حلوا ومر

أمسكوا بالكتاب وادعوا إليه كل خصم أتى من الأمر أمرا

وفشا العلم حولكم فأجيلوا فيه طرفا وامعنوا فيه فكرا

وذروا ضاها المحجب يطلع في سماء اللغي على الجيل بدرا

ويظهر الأسلوب المباشر في الدعوة إلى العلم في الأناشيد بصورة خاصة ، نظرا لما

يتطلبه هذا النمط من النظم من الحدة والمباشرة والتعبير الموجز والبعد عن التصوير والخيال،

فيكون أصح وأنسب للدعوة والوعظ و الإرشاد بهذه الطريقة. وتكون الأناشيد في غالب الأحيان

موجهة لتلاميذ المدارس وطلبة المساجد والمعاهد....بهدف تربية أذواقهم وتهذيب أخلاقهم

وتوجيه ميولاتهم إلى قضايا وطنية واجتماعية وخلقية؛حيث يشكل موضوع العلم والتعليم أحد

الأفكار الأساسية التي تناولتها الأناشيد،وذلك بحكم الوضع المزري الذي عاشته البلاد آنذاك

في الميدان الثقافي وقد تناولته من زاوية دعوة النشء إلى العلم وحثهم على التعليم وإيصال هذه

(1) المرجع السابق نفسه ، ص 176 .

(2) نفسه ،ص 248 .

الرسالة عن طريقه إلى بقية المجتمع. وقد نظم الشاعر أحمد بن دياب نشيدا نشر بالبصائر سنة 1938 وجهه كما يشير العنوان "إلى أبناء الجزائر الصغار" الذين اعتبرهم حماة الدين في البلاد، واعتبر نفسه وجيله من المثقفين والمصلحين، الجند الأمين الذي يحرصهم ويرعاهم ويمدهم القوة والخبرة والتجربة، ويدعوهم في ذلك إلى الإستمساك بالعلم ونصرتة. فيقول: (1)

ياحماة الدين الدين إنا لكم الجند الأمين
منكم الأمر ومنها صولة الليث المتين
واعملوا ها نحن قمنا لنمد العامليين
وانصروا العلم فلسنا بسوى العلم نكـون

كذلك يعد الإهتمام بالعلوم والمعارف ونشر الأخلاق الفاضلة، إحدى سبل البناء وطرق

النهضة وأهم أسباب السيادة في نشيد الشاعر محمد الهادي الزاهري " ناشئة العلم" يقول: (2)

علينا بالمعارف والفنون وبالآداب والخلق المتين
لنحيا سادة في كل حين ويصبح كل مبتعد قريب

(1) إلى أبناءالجزائر الصغار: نشيد لأحمد بن دياب البصائر : عدد 101 ، الجمعة 24 ذو الحجة 11356 / 25 فيفري 1938
(2) ناشئة العلم: نشيد لمحمد الهادي الزاهري النجاح : عدد 641 ، الجمعة 07 ربيع الثاني 1347 / 21 سبتمبر 1928.

2 - الدعوة إلى العلم بأسلوب غير مباشر:

لقد لجأ الشاعر إلى أساليب أخرى في الدعوة غير الأمر والنهي، يرغب بها أبناء المجتمع ويحفزهم على تلبية دعوته في الإستمسك بأسباب العلم، يظهر بها فوائد العلم و بين فيها وخامة الإستمرار على ذلك المركز من الجهل والتخلف.ومن أهم هذه الأساليب مايلي :

أ- المقارنة:

تعد المقارنة بين الأوضاع الثقافية التي تزدرى فيها البلاد وآثارها وانعكاساتها، وبين التفوق الفكري والثقافي لدول الغرب ونتائج إحدى المحفزات التي اعتمدها شعراء الجزائر لدفع أبناء مجتمعهم إلى طريق العلم وحثهم على نشر التعليم، لكي ينهضوا ويفتقوا الأمم التي سبقتهم في العلم والمعرفة. وبهذه المقارنة يكون الشاعر قد لفت انتباه المجتمع الجزائري إلى الإستفادة من الجوانب الإيجابية للحضارة الغربية التي يحتك بها مباشرة عن طريق الإستعمار الفرنسي. فلم يعد الهيكل الغربي المتواجد في الجزائر في شخص الإستعمار الفرنسي هيكل استعماري بحت، لا يحمل سوى معاني الخراب والدمار والإستغلال.....فحسب، بل حافظ من حوافز التغيير أيضا؛ حيث أدرك الشعراء أن الإستعمار بلغ ما بلغه من تقدم وقدرة على السيطرة بفضل عنايته الفائقة بالعلوم والمعارف وعمله الدؤوب على تطويرها. ويجب على المجتمع الجزائري إدراك هذه الحقيقة وتأمل الفروق بين الأمم المتقدمة والأمم المتخلفة.

فهذا أحمد بن كاتب الغزالي ينوه في قصيدته " نحن والغرب" بما وصل إليه الغرب من رقي في الحضارة والصناعة والمدنية، ويقارن بين اهتمامات أبنائه الذين يراهم يجدون ويجتهدون في إنتاج واختراع ما يفيد الإنسانية بلا كلل ولا خمول، وبين اهتمامات أبناء المجتمع لجزائري الذين لا هم لهم سوى قرع الطبول والبحث عن السفساف. يقول :⁽¹⁾

| | |
|--------------------|--------------------------|
| تري كل يوم لهم همة | تفيد العباد وتبني القلاع |
| وتهتم بالأمر حاضره | وآتية والعلم منهم يذاع |

(1) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج1 ، ص 165
123

ونحن ويا أسفي عكف
على نقردف وصوت سماع (1)

أكب على العلم عشاقه
ولم نبرح الدهر نهوى القصاع

وهي مقارنة يعقدها الشاعر بهدف استنهاض الهمم لإقتفاء أثر الغرب في سعيهم واهتمامهم

بالعلوم. يقول : (2)

ألا ليت شعري ويا ليتني
أرى العلم دأبا وأبقى متاع

فنحبي التفكير والإعتنا
ونعنى بمعرفة واختراع

ويكاد يكون الإهتمام بالعلوم العصرية ومجاراتة تطورها، لدى محمد السعيد الزاهري العامل

الوحيد الذي يفرق بين الشعوب والأمم؛ فعلم الغرب تتجدد وتتطور باستمرار، بينما انحسرت

الثقافة والمعرفة في المجتمع الجزائري بين جدران الزوايا العتيقة ولاذت بأسمالها، وتحجرت

بجمود فكر القائمين عليها. يقول : (3)

وقد لبس الناس العلوم جديدة
ونحن لبسناها من الخرق البالي

وقد لبس الناس الفخار مطارفا
ونحن بقينا في جرود وأسمال

وأصبح هذا الناس أحياء كلهم
ونحن بقينا اليوم في زي تمثال

في حين يقارن محمد العلمي بين مدراسنا ومدارسهم، وكيف زهت هذه الأخيرة وانتعشت

بالعلوم بينما خلت مدراسنا منها واقفرت مقاعدها من الدارسين. يقول : (4)

هذي مدراسهم بالعلم زاهية
هذي مدراسنا خلت فواعجب

ولم يكن الغرب بحضارته وتفوقه العلمي، النظير الوحيد لإجراء المقارنة، بل كان بعض

الشعراء ينظرون إلى الأمم الناهضة، التي بدأت تتدارك قصورها وتطمح إلى التغيير رغم

ما كانت تعانيه من ضعف وتخلف. فهذا أبو اليقظان يلفت انتباه أبناء المجتمع الجزائري إلى

أشقائهم الذين عزموا النهوض بالرغم من الحواجز والعراقيل. بينما بقيت الجزائر في نومها

وسباتها في هذا العصر الذي هو عصر نشاط وحركة وتنوير. يقول : (5)

نهضت بلاد العالمين فداركت
مافاتها بالرغم عما في الطريق

(1) علق الزاهري على هذا البيت قائلا : " لو قال سماع صوت لكان أصوب "

(2) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 1 ، ص 167.

(3) نفسه : ص 70.

(4) العلم نور فلا تبغي به بدلا : قصيدة لمحمد العلمي ، النجاح : عدد 859 ، الخميس 7 رمضان 1348 / 6 فيفري 1930.

(5) أبو اليقظان : الديوان ، ص 92.

والمجد لا يشرى كما يشرى الرقيق

بذلت نفايس فاستردت مجدها

.....
واستغرقت نوما بذا العصر الأنيق
وقت الحياة فهل بها من مستفيق

.....
إلا الجزائر عذبت فاستعذبت
وتساكنت أعضاؤها وتماوتت

ونجده في قصيدة أخرى يقارن بين رجال الإصلاح ورجال الطريقة ويميز بينهما، فيعدد مزايا الأولين ويعزز دأبهم، و يكشف مساوئ الآخرين ويفضح مسعاهم. وكان الهدف من وراء عقد هذه المقارنة هو تمييز طريق الإصلاح من غيره ، ودفع المجتمع إلى اتباع نهج المصلحين والعمل بنصحهم وموعظتهم. و في الجانب العلمي، يرى أبو اليقظان أن المصلحين يسعون إلى نشر المعارف التي تفيد المجتمع، وتساعد في نهضته وتطوره دون تفريط لما جاء به كتاب الله وسنة نبيه، بينما يقف الآخرون عثرة أمام نهوض البلاد ويعرقلون تقدمها، ويقتلون مشاريع الحياة فيها ويتسابقون إلى إبادة أصوات الإصلاح والأفكار التجديدية فيها يقول في المصلحين: (1)

| | |
|-----------------------------|----------------------------|
| إن البلاد حياتها ومماتها | برجالها الأخيار والأشرار |
| فالأولون مجددون لمجدها | ورقيها في سائر الأطوار |
| يستجلبون من المعارف ما يضي | ء لها السبيل بحالك الأعصار |
| يتطورون مع الزمان لجلب ما | فيه الصلاح ودفع كل طوار |
| بعد التمسك بالكتاب وسنة الـ | مختار والإجماع والآثار |

ويقول في رجال الطريقة: (2)

| | |
|----------------------------|---------------------------|
| والآخرون مبددون لشمها | ولما لها من عزة وفخار |
| يقفون في سبل النهوض كعثرة | ويعاكسون مجاري الأنهار |
| يسعون في قتل المشاريع التي | فيها الحياة لسائر الأمصار |
| يتسابقون إلى إبادة كل ما | يبدوا من الإصلاح والأفكار |
| يتألمون من العلوم إذا بدت | أنوارها كاللص من أقمار |

(1) المرجع السابق نفسه ، ص 108
(2) نفسه ، ص 109.

كما يقارن بعض الشعراء أيضا بين ما كانت عليه البلاد من رقي وازدهار في الماضي وما آلت إليه اليوم في يد أبنائها، حتى يشحذوا الهمم ويجددوا المساعي في محاولة استرداد مجد الأجداد الضائع، واستعادة المكانة التي كانت عليها البلاد في عهدهم. فمحمد السعيد الزاهري يحاول إثارة نخوة فتيان الجزائر بتذكيرهم بتاريخهم وما كان عليه بنو حماد وآل رستم، وكيف كانت تلمسان تتيه كما كانت تتيه بغداد علما ومعرفة قبل أن تأتي الحوادث على آثارهم . يقول: (1)

هل كان في هذي الجزائر شاعر يبكي على الآباء والأجداد

.....

وعلى تلمسان التي كانت تتيه — به بعلمها تيتها على بغداد

فتهز فتيان الجزائر نخوة للمجد من ذكرى " بني حماد"

إني لأذكر آل رستم والذبي كانوا به من سؤدد وسداد

وأرى الحوادث أذهبت آثارهم ومشت على تلك الرسوم عوادي

ويشيد في قصيدة أخرى بماضيه ومفاخر أجداده و يتحسر في الوقت ذاته على ذهاب

مجدهم وزوال مآثرهم فيقول: (2)

كانت أوائلنا عقدا فياله من عقد نضيد بجيد الدهر منضود

كانوا الحجاج من بين الوري فخلو فبات ما فعلوا في جوف أخدود

ويتحسر أحمد بن يحيى الأكل على الماضي الثقافي المشرق لأمته فيقول: (3)

يارعى الله أمتي كيف كانت لانصار العلوم والإيمان

خانها الوعد بالوفاء زمانا سعدت فيه زمرة الشيطان

ب- التأمّل:

ينفق معظم الدراسيين للشعر الجزائري الحديث، أن شعر فترة النهضة قد أخذ يتأمل واقع البلاد ويصف آلامها والتخلف المادي والمعنوي الذي يتخبط فيه المجتمع، ويتصدى للإنحرافات الإجتماعية التي أخذت تنتشر وتتفاقم، إسهاما في حل مشاكل المجتمع، من حيث أن كشف الداء ووصف أعراضه يسهم بشكل كبير في تقدير العلاج اللازم. وفي الجانب الثقافي وصف الشاعر

(1) ويح الجزائر: قصيدة لمحمد السعيد الزاهري، الشهاب، عدد 85، الخميس 20 شعبان 1345 / 24 فيفوري 1927.

(2) محمد الهادي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ص 89.

(3) نفسه، ج2، ص211

الجزائري الجهل الذي ضرب البلاد من أقصاها إلى أقصاها، وكيف نضبت مراكز الثقافة والتعليم، وتحجر الفكر وساد الظلام، بل أن المقارنة سواء بين الماضي والحاضر أو بين حاضر البلاد وحاضر غيرها من البلدان الناهضة والمتقدمة تستدعي رصد الواقع وتأمل علله وأدوائه. وكثيرا ما كان يصحب وصف الوضع الثقافي للبلاد إحساس بالتشاؤم وشعور بالألم يكون صارخا أحيانا وهافتا أحيانا أخرى. وفي موقف كهذا يدرف رمضان حمود الكثير من الدموع في قصيدة "دمعة حارة على الأمة والشرف" يبكي خلالها ضعف نفوس أبناء المجتمع على حمل أُنقال العلاء والفضائل ورضاهم بحياة الجهل والذل والكرى. يقول: (1)

بكيت على قومي لضعف نفوسهم على حمل أُنقال العلاء والفضائل
 رضوا بحياة الذل والجهل والكرى عن العلم فروا والحجا والمكارم
 فلا سمعوا صوت النبوغ يفيدهم ولا تركوا جوا فسيحا لكاتب
 وبنبرة أكثر حدة يتوجه محمد اللقاني بن السائح إلى أبناء مجتمعه صارخا من شدة الألم على حالهم وحال البلاد وما آلت إليه يقول: (2)

بني الجزائر هذا الموت يكفيننا فقد أغلت بحبل الجهل أيدينا

 فقر و جهل و آلام و مسغبه يارب رحماك هذا القدر يكفيننا

كما يخص أبو اليقظان مزاب بتأملاته وآلامه يصف واقعه الثقافي والاجتماعي ويرصد ما تفشى من أمراض وعلل يسببها الإحتلال من جهة، وتقاعس أبنائه من جهة أخرى. يقول: (3)

لكل شعب رجال ينهضون به إلى المعالي وكم يأتون من عجب
 غير مزاب ففي ضنك وفي قلق و في سداء وفي عسف وفي شغب
 في الجهل في الفقر في الظلم المميت له في الضعف في البؤس في الآلام في النصب
 الدين والعلم والأخلاق في كسب والمال والحال في عسر وفي كـرب
 والعسكرية كالسل تهددنا بالمسخ بالفسخ بل بالمحو والعطب

(1) المرجع السابق نفسه ، ج1، ص 177

(2) نفسه ، ص : 36.

(3) أبو اليقظان : الديوان ،ص96

إلى أن يقول: (1)

وجاهل مثل طفل في مشيمته
وعالم غاص في كل البحور معا
وفي الغباوة نور منتن الذنب
ولكنه ساكت من شدة الرهب

ج/ الإغراء والترغيب:

ويكون بالحديث عن العلم واما فيه من فوائد ومزايا وما ينجر من الإبتعاد عنه من مساوئ وآفات، لترغيب النشء فيه فيستسقوا من معينه ويستشفوا بدوائه. فالعلم عند أبي اليقظان هو المرشد العدل النصح للأمة و سلمها الأعلى إلى قمة العلى، وهو العدة الكبرى والقوة التي يتسلح بها الأبطال في جميع ميادين الكفاح. يقول: (2)

هو المرشد العدل النصح لأمة
هو السلم الأعلى إلى قمة العلى
إذا مسها في النفس طائف شيطان
إلى المجد والسلطان أكبر معوان

وعند محمد العلمي نور لا بديل عنه يقول: (3)

العلم نورٌ فلا تبغي به بدلا
الله أكبر كم في العلم من إرب

أما في قصيدته " لا حياة بلا علم" يجد أن الحياة بلا علم وجودها باطل للإنسان كالعدم، فهو

سبب السعادة وسبيل النجاة وطريق الخلاص من المحن يقول: (4)

الله أكبر كم في العلم من حكم
إن الحياة بلا علم ولا عمل
ومن سداء وكم في الجهل من سقم
وجودها باطل للمرء كالعدم

كيف النجاة وسوق الجهل رائجة
كيف النجاة ولا صاغ فينقذنا
والقوم في حيرة في الكون كالنعم
ليطرد الجهل بالإفصاح والعلم

د- السرد:

هناك من الشعراء من ألبس دعوته إلى العلم وإلى الإصلاح والنهضة عموما. أسلوب السرد فيروي قصصا أو محاورات يكون المغزى منها أبراز قيمة العلم في حياة الإنسان وفي بعث الأمة

(1) المرجع السابق نفسه

(2) نفسه، ص 89 .

(3) العلم نور فلا تبغي به بدلا: قصيدة لمحمد العلمي، النجاح: عدد 859، الخميس 7 رمضان 1348 / 6 فيفري 1930.

(4) محمد الهادي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج2، ص186

إلى طريق التطور والرقى. فالشاعر أحمد بن كاتب الغزالي يسرد للقارىء في قصيدته " القنفذ والناس" قصة القنفذ الحزين الذي لم يسلم جسمه من الأذى ، رغم ما أحيط من أشواك.

ومان الغرض من سرد هذه القصة إبراز السلاح الحقيقي الذي يجب أن يحتمي به الإنسان من أذى الطبيعة والناس، وهو العلم، الذي ذلل به الصعاب وابتكر به ما يبسر له عيشه ويضمن استمراريته في الوجود يقول : (1)

| | |
|------------------|------------------|
| سئل القنفذ عما | زجه في الإكتئاب |
| حاط جثماننا بشوك | مدمنا للإنتقاب |
| فأماط اخدر شيئاً | مسرعاً رد الجواب |
| كل هذا لم يجرني | من أذيات الكلاب |

إلى أن يقول : (2)

| | |
|-------------------|------------------|
| نقطة الماء المهين | سخرت كل الصعاب |
| وامتطت كل سريع | وعلت كل الهضاب |
| | |
| أخضعت بالعلم سبعا | ثم سبعا في حسابي |

و يفصح الشاعر في آخر القصيدة عن غرضه فيقول : (3)

| | |
|-------------------|-------------------|
| حبذا العلم ادخاري | وافتخاري واكتسابي |
| إن أطال الله عمري | وجفا عقلي التصابي |
| أجعل العلم سبيلي | وبه أملا وطابي |

ونجد أبا اليقظان يسرد أيضا حديثا تصوره جرى بينه وبين وطنه الذي يجسده في صورة

امرأة " أم " ذات جلال وجمال ووقار، جاءتة تشتكي حالها، وحال أبنائها الذين رضوا لها بحياة

العذاب و الجهل والظلام: (4)

(1) المرجع السابق نفسه ، ج 1 ، ص :167.

(2) نفسه ، ص168

(3) نفسه ، ص 169.

(4) أبو اليقظان : الديوان ، ص 105.

قلت كيف الحال ؟ قالت في عذاب

.....

غير من يأتي لدفني بالتراب

قلت من هذا ؟ فقالت أمكم

.....

أين أبنائي فمالي لا أرى

وأنا عشت بقومي في اضطراب

أمهات القوم عاشت في هنا

وتسهنض هذه الأم في الأخير همم أبنائها، فتدعوهم إلى السير إلى الأمام وطرق كل أبواب

المجد، وتستحثهم على النهضة واقتناء أثر الناهضين والمتطورين يقول : (1)

واطرقوا للمجد عزا كل باب

أيها الأحرار سيرو للأمام

ثم خاضوا بالنهاي كل عباب

وانظروا للقوم طاروا في السماء

وتتكرر صورة المرأة (الأم) / الوطن مع الشاعر محمد اللقاني بن السائح في إحدى قصائده

التي يقول فيها : (2)

قلت حسبي قد كفى ماقد مضى من عتاب

أنا أفديك بنور بصري وشبابي

إلى ان يقول : (3)

ثم قالت ما القومي كلهم في سبات

أتراهم أسلمو أرواحهم للممات

يا رعى الله أناسا سئموا من هنات

كذلك مع أحمد بن عبد الرحمن في قصيدته: " العلم ، العلم" لكنها لديه ليست " الأم" كما تصورها

أبو اليقظان، بل الحبيبة. يقول : (4)

رشقتني بابتسام وحوور

ومهاة أقبلت مائسة

بهواها مغرم منذ الصغر

قتلتني بلحاظ فأنسا

ولو البدر راها لاستتر

لو رأتها الشمس يوما أفلت

(1) المرجع السابق نفسه ، ص 110.

(2) محمد الهادي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج1، ص56 وما بعدها

(3) نفسه

(4) العلم العلم : قصيدة لأحمد بن عبد الرحمن، النجاح : عدد 534 ، الجمعة 25 جمادي الثانية 1346 / 23 ديسمبر 1926.

و قد كان الغزل عموما من الأغراض التي يتحفظ شعراء الجزائر الخوض فيها، نظرا لانتمائهم إلى بيئة دينية محافظة، ولتخوفهم أيضا من الجمهور الذي لم يكن يستجيب في تلك الفترة المبكرة والصعبة في آن لمثل هذه الأغراض. (1) لذلك نجد الشاعر سرعان ما يفضح عن موضوع غزله وينتقل في القصيدة من موقف الغزل إلى موقف الوعظ والإرشاد ، وتجذبته - كغيره من الشعراء - الأفكار الإصلاحية فيدعو إلى العلم وإلى النهضة.... وحين ينتقل الشاعر من موقف الغزل إلى موقف الدعوة والوعظ والإرشاد تتغير صورة الوطن / المرأة الحبيبة وتصبح لديه هي الأم التي تطالب برّ أبنائها وبذل جهودهم لخدمتها. يقول : (2)

لست أهوى عادة حسنا ولا شرب كأس مع نديم ووتــــر
 إنما أهوى بلادا طالما أنجبت شهما وواست في الصغر
 إلى أن يقول أيضا: (3)

أيها الشبان هذي أمكم ولأم المرء أحرى أن تبرّ
 منكم تبغي نهوضا إنها سئمت عيش وبال وكدر
 ساعدوها نورا نظرتها خفقوا الوطأة عنها والضرر
 قاوموا الجهل بعلم نافع رافع للبدو منا والحضر

أما ابن بشير الرابحي فيجسد العلا في قصيدته " العلم أساس النجاح " في شخص امرأة تنزين بطوق العلم وتتخذ من نسيج المكرمات رداءا بهيا، ويجعلها تقاسمه المحبة والحديث والسمر وتسدي إليه النصائح يقول : (4)

إن العلا حدثني والحديث غدا بين المحبين عذبا في العلوم بدا
 باتت مسامرتي والمجد يكلؤها والشهب ترمي وطرف النجم مارقدا
 دنت إلى وطوق العلم جعلها ثم ارتدت من نسيج المكرمات ردا

(1) عبد الله الركيبي : الشعر الديني الجزائري الحاضر ، ج 1 ، ص 156 .

(2) العلم العلم : قصيدة لأحمد بن عبدالرحمن ، النجاح : عدد 534 ، 25 جمادي الثانية 1346 / 23 ديسمبر 1926 .

(3) نفسه .

(4) العلم أساس النجاح : قصيدة لابن بشير الرابحي ، النجاح : عدد 248 ، الجمعة 3 جمادي الأولى 1344 / 20 نوفمبر 1925 .

ونصائح العلا للشاعر ، أو بالأحرى ، نصائح الشاعر لأبناء مجتمعه على لسان العلا
لم تخرج عن الدعوة إلى التمسك بالعلم والسعي في تحصيله، وإلى محاربة الجهل بنشر التعليم

وتعميمه لينال المجتمع السعادة الحققة يقول : (1)

فلا وربك لولا العلم ما وضحت سبل السداد وعادت مهيعا رشدا
فحاربوا الجهل بالتعليم وهو دوا لنائبات سقام يعتري الكبدا
نعم هو العلم لا تبغي به بدلا هذا الذي كل من قدنا له سعدا

(1) المرجع السابق نفسه

الدراسة الفنية

- 1 الإتجاه الفني للقصيدة الإصلاحية
- 2 المعجم الشعري
- 3 البناء الفني
- 4 الصورة الشعرية
- 5- التشكيل الموسيقي

أ-تشكيل الموسيقى الخارجية

1أ - البحور الشعرية

2أ- خصائص القافية

ب- تشكيل الموسيقى الداخلية

الفصل الرابع: الدراسة الفنية

يبدو أن القصائد التي بحوزتنا لم تخرج في خصائصها الفنية عن السمات الفنية العامة التي ميزت القصيدة الإصلاحية عموماً، باعتبارها جزءاً منها فكراً و شكلاً و موضوعاً. لذا فإن دراستنا الفنية لها ستكون ضمن الإطار الفني العام الذي درست فيه القصيدة الإصلاحية، و أول انطلاقة لنا في هذه الدراسة ستكون من خلال .

1) الإتجاه الفني للقصيدة الإصلاحية :

وهو اتجاه إحيائي بالدرجة الأولى ، فالنهضة الثقافية الحديثة التي انطلقت في الجزائر منذ العشرينات من القرن العشرين كانت حركة إحياء بالنسبة للشعر ، تقوم أساساً على العودة إلى الموروث الشعري و إحيائه كاملاً بقوالبه و صورته الفنية ، حيث يعني الإحياء في تلك الفترة إخراج القصيدة من رواسب عهد الإنحطاط، من ضعف في التأليف و التركيب و غلو في الزخرفة و فقر في المضمون⁽¹⁾، و إرجاعها إلى جمالياتها الفنية وجودتها الأدبية التي كانت عليها في عصورها الزاهرة .

وإن اختلفت أغراض الشعر ومضامينه نوعاً ما عن الأغراض القديمة ، و أصبحت وظيفته الإهتمام بقضايا المجتمع من منظور إصلاحى، فإن ماهيته من الناحية الفنية الشكلية لم تخرج عن المفهوم التقليدي للشعر ،من حيث هو الكلام الموزون المقفى، المركب من أجزاء تسمى التفاعيل ... السهل العبارات ذو الخيال البديع و الإستعارات البليغة الفاتقة و المعاني الرقيقة الشائعة، دون الغريبة منها لأن البلاغة ما فهمته الخاصة و العامة ... " ⁽²⁾ كما عرفه أحمد بن يحيى الأكل ،وهو أحد الأدباء المعاصرين للنهضة . وقد التزم في تعريفه بالصفات الشكلية التي وضعها النقاد القدامى للشعر و التي ظلت تميزه عن بقية الفنون الأدبية الأخرى⁽³⁾ .

و الحفاظ على الأسس الفنية للموروث الثقافي الشعري في انطلاقة الشعر الجزائري الحديث كان نتاج ظروف اجتماعية و ثقافية خاصة ميزها : أولاً : تأثره بالنهضة المشرقية التي قامت في بدايتها تحاكي النماذج الشعرية القديمة، و تحاول بعث الشعر من جديد على ضوء هذه النماذج

(1) صالح خرفي : الشعر الجزائري ، ص 338 .

(2) محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته و خصائصه الفنية 1925 - 1975 ، ص 67 .

(3) نفسه

فلا أحد يجهل المكانة السامية التي احتلها البارودي، رائد الشعر الإحيائي العربي، و شوقي وحافظ وغيرهم لدى شعراء الجزائر في تلك الفترة و مدى تأثيرهم بهم وبتأجهم الشعري . ومن جهة ثانية كان إلهام الإستعمار الفرنسي على فرنسة الجزائر ماديا وحضاريا ، باعثا على التمسك الشديد بالأرض وبالموروث الثقافي و الحضاري من جانب المجتمع الجزائري. فهذا الموروث هو الذي يقيم للبلاد حدودا خاصة ، تميزها و تمنعها من الذوبان في أي حضارة أخرى أو بيئة ثقافية تختلف عنه . و كان من مستويات التمسك به أن قاربت مرتبته مرتبة القداسة و أصبحت القوالب الفنية للشعر بمثابة مسلمات بديهية ، لن يكون الشعر شعرا إلا إذا صب في بوتقتها

و كانت القوائد الإصلاحية ، و منها هذه القوائد التي بين أيدينا ، تصب صبا وفيما في هيكل الشعر العمودي الذي سطره القدماء ، و تتعلق تعلقا شديدا بمتته ، مقيدة بلغته وأوزانه و قوافيه لاتحيد عنها أبدا . و كان الهدف ، و الفكر، و الموضوع الإصلاحي أشد ما عزز هذا التعلق من عوامل ، باعتبار شدة التناسب و الإنسجام بين عمود الشعر القديم و الإتجاه الإصلاحي. لذلك يندرج الشعر الإصلاحي عموما ضمن إطار الإتجاه التقليدي في الشعر ، الذي كان أكثر الإتجاهات و زنا و حضورا و استمرارية في الشعر الجزائري الحديث . وتظهر سماته و خصائصه في اللغة و الوزن و الإيقاع . هذا وتعد اللغة أولى عتبات الدراسة الفنية لأي عمل أدبي ومنه ستكون المنطلق الذي سنستهل به دراستنا للخصائص الفنية للقوائد .

2 - المعجم الشعري :

تمثل اللغة في أي عمل أدبي أولى درجات التواصل بين الأديب و النص من جهة ، و بين المتلقي و النص من جهة ثانية و بين الأديب و المتلقي من جهة ثالثة . فهي بالتالي أول ما يصادفنا و ما يجب أن نقف عنده في قراءتنا لأي عمل فني اتخذ الكلمة عنوانا للتواصل ⁽¹⁾ بل أن النقد في ذاته لا يتعلق بالتجربة الشعرية في العمل الأدبي إلا حين تأخذ صورتها اللفظية ، لأن الوصول إليها قبل ظهورها في هذه الصورة محال ، و لأن الحكم عليها لا يتأتى إلا باستعراض الصور

(1) المرجع السابق نفسه ، ص 275 نقلا عن عز الدين إسماعيل: الأدب و فنونه ، ص 31.

اللفظية فيها و بيان ما تنقله هذه الصور من حقائق و مشاعر ⁽¹⁾. و في العمل الشعري تكون الكلمات و العبارات بمعاني متوالدة، و علاقات جديدة، أو كما يقول أدونيس تكون لغة الشعر أكثر من وسيلة للنقل أو التفاهم "... إنها تيار تحولات يغمرنا بإيحاءاته و إيقاعه و بعده ، هذه اللغة فعل نواة حركة خزان طاقات ... " ⁽²⁾ مما يجعل الشعر في نظر النقاد استكشافا دائما لعالم الكلمة و استكشافا دائما للوجود عن طريق الكلمة ⁽³⁾

و إذا وقف القارئ عند لغة الشعر في القصيدة الإصلاحية فإن أول ما يستوقفه فيها ، أنها لم تخرج عن المعجم العربي في ألفاظها و تعابيرها ، رغم احتكاك المجتمع الجزائري و لمدة طويلة جدا من الزمن ، بثقافتين على التوالي، تختلفان في حضارتهما و لغتهما عن الثقافة العربية؛ و نقصد بذلك الثقافة التركية و الفرنسية . و يبدو أن السبب راجع إلى أن الجهود و الممارسات الثقافية المحلية قد كرسن اللسان العربي حين جعلته العمود الفقري في التعليم بجميع مستوياته، و اهتمت به بالإعتماد على قدراتها الخاصة و مقوماتها الذاتية ، دون اللجوء إلى عون السلطة الحاكمة في العهدين التركي و الفرنسي ، و التي كانت خلالهما ، إما غير مبالية و إما معارضة .

وإن ارتبطت اللغة في الشعر قبل النهضة بالتصوف، و كانت لغة أورد و مدائح دينية و أدعية أكثر منها لغة شعر، فإنها قد تطورت بعد النهضة و خرجت ألفاظها عن الدائرة الدينية المغلقة التي كانت تدور فيها ، و أصبحت أكثر تعبيراً عن المشاعر ، و أكثر رسداً للواقع بآلامه و قضاياها. ⁽⁴⁾ وقد جاء هذا التطور في المعجم الشعري نتيجة للتطور الحاصل في طرق تعليمها عن المناهج القديمة، و كذا استجابة لتطور مضمون القصيدة التي خرج بدورها عن دائرة الزوايا والأضرحة و الأولياء ، ليتناول قضايا اجتماعية أصبحت تشغل الفكر الجزائري الحديث .

(1) محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته و خصائصه الفنية 1925 – 1975 ص : 275 نقلا عن سيد قطب ، النقد الأدبي أصوله مناهجه ، ص 79

(2) أدونيس : مقدمة للشعر العربي ، ص 79 .

(3) محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته و خصائصه الفنية 1925 – 1975 ، ص 275 ، نقلا عن محمد غيمي هلال : النقد الأدبي الحديث، ص 415

(4) عبد الله حمادي أصوات من الأدب الجزائري الحديث ، ص 24 .

لقد أصبحت القصيدة الإصلاحية، إذا ما قورنت بالشعر القديم، أكثر ترجمة لهموم المجتمع وهموم الوطن؛ حيث نجد الشاعر فيها يبحث في علل مجتمعه، و يستحث الهمم لنهضته ونجدته. لذلك وجدناها استخدمت لغة تقرب هذه الأفكار إلى القارئ؛ لغة تعريّ الواقع و تثير الحماس وترشد إلى الإصلاح. فحين نقرأ القصائد التي تضمنت فكرة الدعوة إلى العلم، تصادفنا لغة وصفت الواقع الثقافي المظلم، و تعبيرا يبعث على الحماس، و يوصل أفكار الشاعر الإصلاحية إلى القارئ بأمانة. يمكن أن نلاحظ ذلك بوضوح في هذه الأبيات لمحمد العيد آل خليفة (1) :

| | |
|------------------------------|-------------------------------|
| العلم سلطان الوجود فسد به | ماشئت أو ذد عن حياضك و ادفع . |
| و الجأ به بدل الحصون فلا أرى | حصنا كمدرسة سمت أو مصنع |
| قل للجزائر أنشئي كليّة | تمحو جهالة شعبك المتسكع |
| الجهل أشبه بالغراب فماله | من منزل غير الخراب البلقع |
| لن يخرق ابنك حجه مالم يكن | بمنقب في الكتب أو مستطلع |
| الفجر يؤذن بالطلوع فرحبي | بالنور غبّ ظلامك المتقشع |

ورغم أن المعجم الشعري لم يخرج في صيغته و تعابيره عن التراث العربي عموما، فإننا نقرأ في هذه الأبيات و في غيرها شيوع ألفاظ لم يألّفها الشعر الجزائري القديم، أو لم يكثر استعمالها، أو لم يستعملها بالمفاهيم التي ظهرت بها خلال فترة النهضة، مثل كلمات مدرسة كلية، نادي، مصنع، معمل، نهضة، تعليم، تعلّم، ، شعب... فقد ارتبطت بموضوع جديد لم يطرقه الشعر القديم وهو قضية التعليم و الدعوة إليه في الشعر و نهضة البلاد الثقافية و الفكرية كذلك دلت هذه الألفاظ على تطور النظم الإجتماعية و الثقافية عن النظام القديم القائم على القبيلة والذي يتأسس في الميدان الثقافي على الكتاب و الزاوية و الجامع... إلى نظام المدينة الجديدة والذي برزت فيه هياكل ثقافية و اجتماعية عصرية انتشرت في المجتمع الجزائري بعد النهضة فانتشرت مسمياتها في الشعر. يمكن أن نقرأ ذلك أيضا في قصيدة أبو اليقظان التي يشير فيها إلى مكانة المدرسة و دروها في المجتمع بقوله: (2)

وما الفضل إلا للمدارس إنـها مغارس مجد الشعب في كل أزمان

(1) محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص 144 .
(2) أبو اليقظان: الديوان، ص 88

رأت أن تعيش بين سائر أقران
يضيء بها قاصي البلاد مع الداني
مدارس علم و هي مورد عطشان

هي الأم هي المهد للأمة التي
هي المعمل الأعلى تمد خيوطه
فما مات شعب ضم بين ربوعه

وردت في هذا الشعر أيضا أسماء بعض المخترعات الجديدة التي ظهرت في المجتمع الغربي كالمنطاد و الباخرة و الهاتف ، ... وكان الغرض من ذكرها تعديد مزايا العلم و فوائده. وفي هذا الصدد يقول مفدي زكريا في قصيدته " نهوضا بني أفريقيا من سباتكم " (1)

هو العلم أعطى للجمادات منطقا
هو العلم أجرى بالبخر على الثرى
وأرسل في اليم الخضم سفائنا
وبث على الأسلاك معجزة الورى
حكيمًا و أسرى في السماء بأعواد
ثعابين تستدني فراسخ أبعـاد
يضلها من أفقها ألف منطاد .
فدانت لها طوعا عوالم أضداد

وقد انتشرت ظاهرة استعمال مفردات جديدة في الشعر الإحيائي العربي أيضا، و عن ذلك يقول جاسم البياتي ، إن كلمات أسلاك البرق ، و المدرسة و الدستور و المصرف و الصحيفة ... إنما هي مفردات اقتضتها الحياة الجديدة ، وكل حياة جديدة تفترض مثل هذا... (2) . و رغم أن هذا التجديد في المعجم الشعري لا يعكس تطورا حقيقيا للشعر، (3) فإنه في الشعر الإصلاحي قد عكس الجو الثقافي و الإجتماعي لتلك الفترة ، و عبر عن مستوى الشاعر و ثقافته اللغوية ، و التي تطورت تطورا ملحوظا عما كانت عليه قبل النهضة الثقافية الحديثة .

وإن كنا قد سلمنا بتطور المعجم الشعري عما كان عليه قبل النهضة، فذلك لا يعني أنه ارتقى إلى ما يجب أن ترتقي إليه اللغة الشعرية ، من ذوق في اختيار الألفاظ و في رصف التعابير و توالد المعاني ، بل جاءت لغة هذه القصائد لغة تقريرية مباشرة ، تقف عند المعنى المعجمي للفظ

(1) نهوضا بني أفريقيا من سباتكم: قصيدة لمفدي زكريا ، النجاح . عدد 1357 : الأربعاء 19 جمادي الأول 1351 هـ/ 21 سبتمبر 1932 م .

(2) عادل جاسم البياتي: التجديد في لغة الشعراء الإحيائيين ، ص 44

(3) محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته و خصائصه الفنية 1925 – 1975 ص 30 .

لا تتجاوزها، وتهدف إلى إيصال الفكرة أولاً و قبل كل شيء (1). فلو أن هذه القصائد قد قيلت في غير فترتها، ما حركت في المتلقي شعوراً أو إحساساً. لكن ظروف المرحلة ، جعلت القصيدة توزن أنداك بفكرتها و موضوعها أكثر مما توزن بشكلها و لغتها . و لعل هذه الظروف وما عاشته الجزائر خلالها من تحديات ، هي التي لم تمكن الشعراء من استثمار التراث الأدبي بأساليبه البيانية الرائعة و استغلال ثراء البلاغة العربية التي يعنى جانب كبير منها بالمجاز اللغوي (2) استغلالاً ينعكس بصورة تلقائية في أشعارهم .

إن صعوبة التعليم و التعلم و قساوة ظروف الحياة في جميع ميادينها ، ومحاولات الإستعمار في عزل المجتمع الجزائري عن منابع الثقافة و الأدب العربي و هول هموم الأمة ... دفعت بالشاعر الجزائري إلى التفكير في الإسراع في محاولة إشفاء الأمة و التخفيف من معاناتها بالفكرة قبل اللغة ، فيرى محمد ناصر أن تميز اللغة الشعرية في هذه المرحلة بالقريرية و المباشرة مرده إلى فهم الشعراء لوظيفة الشعر، إذ لم يكن الشاعر الإصلاحى - إلا نادراً - ينظر إلى اللغة من جانبها الجمالي بهدف إثارة الإحساس الفنى لدى المتلقى، بقدر ما كان يهدف إلى إيصال أفكاره إليه. لقد كان ينظر إلى الشعر بوصفه وسيلة من وسائل الإصلاح و النهوض و الوعظ و الإرشاد و التربية و التوجيه ، لا باعتباره تعبيراً عن الذات ، ومهمته الأساسية هي الإقناع لا الإمتاع (3) هذا بالإضافة أن الموضوع الإصلاحى في حد ذاته و موضوع "الدعوة إلى العلم" على الخصوص، وفي ظروف كان المجتمع الجزائري فيها أشد حاجة إلى الإصلاح و العلم ، حتم على الشاعر أن يسلك في شعره أقصر سبل الدعوة لتحقيق السرعة في الإستعاب و التنفيذ. فالموضوع الإصلاحى الإرشادى لا يتطلب إحياءاً أو خيالاً و شاعرية في نظره ، بقدر ما يهيمه الوصول إلى ذهن المتلقى بأقصر السبل .

ولنقرأ مثلاً هذه المباشرة و القريرية في لغة محمد السعيد الزاهري في قصيدته "الشعر الفحل " حين يقول (4)

ياقوم تفتيح المــــدا
رس للهدى سبب وحيــــد

(1) المرجع السابق نفسه، ص 281.

(2) نفسه .

(3) نفسه ، ص 282 .

(4) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج 1 ، ص 85 .

ربو بها الأولاد كـي نسمو على العدد العديـد
فـعسى يعـود الدهـر يـخـيـر دـمنا و تـخدمنا السـعـود
هاذي لعمر ك حاجتي يـي إن نلتها فأنا السعيـد

أو في قول محمد العيد آل خليفة في قصيدته و" يخلد الإسلام" (1)

علموا أهلكم من العلم حظاً نافعاً تستغله الأفهـام
علموا الطفل ما به يتزكـى قبل أن يستبين منه احتـلام
علموا أمة الجزائر فالعلمـم دليلٌ لخيرها وزمـام

لقد استخدمت هذه النصوص و غيرها لغة توجهها نزعة موضوعية تعتبر الألفاظ وسائطا لا غير، رموزا تشير إلى معاني (2) . لكن حين تبرز ذات الشاعر في القصيدة و يقترب فيها من عواطفه أكثر فأكثر، تصبح لغته أكثر إيحائية حتى في داخل الموضوع الإصلاحي ، وبخاصة حين يصور الشاعر آلامه لتدهور أوضاع بلاده الثقافية ، أوحين يعبر عن آماله الخاصة في تغييرها وتحسينها... فالفرق واضح مثلا بين لغة النصوص السابقة التي وقف الشاعر فيها ناصحا إلى سبل العلم ، وبين لغة مفدي زكريا في هذه الأبيات التي يشتكي فيها واقع العربية في البلاد في قوله : (3)

بني الشرق هلا اليوم نظرة راحم إلى لغة أمست رهينة أصفاد
ألا ترقبون الله فيها فإنها لسان كتاب من هدى الله وقاد
هي البلبل الصداح من عهد آدم على غصن ريان بالوحي ميّاد
فلا غرو إن أصبحت صباً بحبها ولا بدع إن أصبحت بلبلها الشادي

فبصيص النزعة الذاتية التي زحزحت الشاعر قليلا عن منبره الإصلاحي ، و جعلته يبيلغ الفكرة من منظور عاطفي ، هي التي أضفت على هذه الأبيات نزرا ولو يسيرا من الحيوية والحركة، فجاءت لغته فيها لغة أحاسيس ومشاعر ، استخدمها الشاعر لتجسيد عواطفه وآلامه.

(1) محمد العيد آل خليفة : الديوان ، ص 178 .

(2) محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث واتجاهاته و خصائصه الفنية 1925 – 1975 ص 182.

(3) نهوضا بني أفريقيا من سباتكم: فصيحة لمفدي زكريا ، النجاح ع 1357 ، الأربعاء 19 جمادي الأول 1351هـ/ 21 سبتمبر 1932م .

غير أن طبيعة الموضوع (الدعوة إلى العلم) و التي تقتضي من الشاعر اعتلاء المنبر الإصلاحي ، تمنع النزعة الذاتية من أن تشمل الموقف كله أو القصيدة كلها . نقرأ ذلك بكل وضوح في قصيدة الشاعر أحمد بن عبد الرحمن " العلم العلم " التي ينطلق فيها من منطلق وجداني بحت ، يصف من خلاله حبه لبلاده التي يجسدها في صورة امرأة يغازلها و يتشعب بها . ثم ينتقل من موقف الغزل إلى موقف الإصلاح - محور القصيدة - فيدعو إلى العلم ، منتقلا بذلك من لغة الغزل و الوجدان إلى لغة الوعظ و الإرشاد بقوله :⁽¹⁾

| | |
|--------------------------|----------------------------|
| ومهاة أقبات ماتسة | رشقتني بابتسام و جور |
| قتلتني بلحاط فأنا | بهواها مغرمٌ مند الصغر |
| لو رأتها الشمس يوما أفلت | ولو البدر رآها لاستتر |
| لا تلمني عاذلي في حبها | كم أراقت من دماء للبشر |
| لست أهوى عادة حسن ولا | شرب كأس مع نديم أو وتر |
| إنما أهوى بلادا طالما | أنجبت شهما و واست في الصغر |

إلى أن يقول⁽²⁾

قاوموا الجهل بعلم نافع رافع للبدو منا والحضر
كذلك جاءت قصيدة ابن بشير الرابحي في نفس السياق تقريبا ، حيث انتقل فيها الشاعر من لغة العواطف التي استهلها بها إلى لغة الوعظ والإرشاد يقول :⁽³⁾

| | |
|-------------------------------|---------------------------------|
| إن العلاء حدثتني و الحديث غدا | بين المحبين عذبا في العلوم بـدا |
| باتت مسامرتي و المجد يكلؤها | والشهب ترمي و طرف النجم مارقدا |
| دنت إليّ و طوق العلم جمّ لها | ثم ارتدت من نسيج المكرمات ردا |

إلى أن يقول :⁽⁴⁾

| | |
|--------------------------------|--------------------------------|
| فحاربوا الجهل بالتعليم وهو دوا | لنائبات سقام يعتري الكبـدا |
| نعم هو العلم لا تبغي به بـدلا | هذا الذي كل من قد ناله سعـدا |
| العلم أس النجاح إن عملت به | في كل ما ترتجيه النفع قد شهـدا |

⁽¹⁾ العلم العلم: قصيدة لأحمد بن عبد الرحمن النجاح ع 534 ، الأربعاء 28 جمادي الثانية 1346هـ / 23 ديسمبر 1926

⁽²⁾ نفسه .

⁽³⁾ العلم أساس النجاح: قصيدة لابن بشير الرابحي ، النجاح، ع 248 ، 3 جمادي الأولى 1344 / 20 نوفمبر 1925 .

⁽⁴⁾ نفسه

وسواء أكانت لغة هذه القصائد ذات نزعة ذاتية أو موضوعية ، فإن الميزة التي تتفرد بها جميعا هي البساطة و السهولة، فقراءة أبياتها لا تتطلب اللجوء إلى المعجم اللغوي للإستعانة به في فهم ألفاظها ومعانيها بل جاءت لغتها في متناول كل من يملك حدا معينا من الثقافة اللغوية العربية. يقول أبو القاسم سعد الله عن لغة شعر محمد العيد آل خليفة " إنك تقرأ شعره فلا تحتاج معه إلى قاموس ينجذك في تفسير الغامض من الألفاظ ، و لا تحتاج إلى كد ذهني للوصول إلى ما يريد من المعاني" (1) و ما يقال عن شعر محمد العيد يقال عن شعر بقية الشعراء ذوي الإتجاه التقليدي المحافظ.

ويرجع هذا النزوع إلى السهولة في الألفاظ إلى عدة أسباب أهمها.

أولا : طبيعة الموضوع في حد ذاته ، فالشاعر لا يعبر فيه عن مشاعر و أفكار معقدة تستدعي البحث عن التعبير و الكلمات القادرة على حمل تجربته الشعورية ، بل ما اتصفت به الألفاظ من بساطة لبست معاني واضحة و أفكار مباشرة يسيرة . أما السبب الثاني فيعود كما سبق و أن أشرنا إلى رؤية الشعراء الإصلاحيين للغة و طريقة تعاملهم معها ، فهم لم يحاولوا أن يتعاملوا معها تعاملًا غير عاديًا باستخدام الرمز اللغوي أو بخلق علاقات جديدة بين الألفاظ ، بل بقيت اللغة عندهم في حدودها المعجمية لا تتعداها إلى أبعاد جديدة ، و بقي التعبير عندهم يعتمد الكلمات المختارة المرتبة بوعي كامل بحسب الترتيب العادي للمعنى فلا تقديم و لا تأخير و لا تعقيد (2)

و يقودنا ذلك إلى الحديث عن سبب ثالث شارك في إضفاء ميزة السهولة و اليسر على لغة هذه القصائد ، و هو نوعية المتلقي، و الإهتمام البالغ به من طرف الشعراء ، فالشاعر و فو يعتلي منبره الإصلاحي لا يقدم شعره إلى النخبة أو إلى البلاط، بل يتوجه فيه بالنصح و الإرشاد إلى عامة المجتمع ، و الذي يهمه أن يفهم جمهوره كلامه و يستوعبه و يقتنع بأفكاره ، أي عليه أن يبلغ هذه الأفكار بلغة يفهمها الجميع . وقد دعا رمضان حمود الشعراء الجزائريين إلى تبسيط لغتهم في القصائد التي لا بد أن يتوجهوا فيها إلى الطبقة السفلى و الوسطى من الناس ، أي العامة التي هي هيكل الشعوب و مرجعها الوحيد عند المدلهمات ... " (3) بل أن الشاعر في نظره لا يعد

(1) أبو القاسم سعد الله : محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث ، ص 213 .

(2) محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته و خصائصه الفنية 1925 - 1975 ، ص 287.

(3) رمضان حمود : بذور الحياة ، ص 125.

شاعرا إلا إذا خاطب الناس باللغة التي يفهمونها ، بحيث تنزل على قلوبهم نزول ندى الصباح على الزهرة الباسقة ... لا أن يكلمونا (الشعراء) في القرن العشرين بلغة أمرئ القيس و طرفة والمهلهل الجاهليين الغابرين ... " (1).

ومن وجوه هذه البساطة تشابه المعجم الشعري لدى الشعراء بحيث نجد الألفاظ و العبارات تتكرر لدى أكثر من شاعر ، بل و لدى الشاعر نفسه في قصائده ، لأنها كانت تدور أغلبها في الأفكار و المعاني ذاتها ، يقول صالح خرفي : " إن التأكيد على صفة (الرقاد) هذه تظافر عليها جل الشعراء ، تظافره على الدعوة الصارخة إلى الإفاقة و اليقظة ، بل أن المعنى ليتكرر بألفاظه في أبيات متلاحقة و بصيغ موحدة ، فيأتي صورة لعمق النوم الذي يغفو فيه الجمهور " (2). فصالح خرفي يشير إلى تكرار المعنى بلفظه في أبيات متلاحقة من القصيدة الواحدة و السبب في رأيه يرجع إلى الرغبة في تأكيد المعنى و الإلحاح عليه من طرف الشاعر. لكننا نجد أيضا التكرار في قصيدتين مختلفتين سواء لنفس الشاعر أو لشاعرين مختلفين ، كما نقرأ ذلك بوضوح في قصيدتي الشاعر أحمد بن يحيى الأكل : " أمعشر فتیان الجزائر مالكم " ، و " حنيني إليها و أنيني عليها". يقول في الأولى : (3)

أشبابنا لم لا أرى منكم نشأة
و لاخير في نشء إذا لم يكن له
و هذا لعمر الحق عار عليكم
أشبابنا عودوا لفخر جدودكم

تغار على أسلافها الأنجم الزهر
ولوع بآثار الجدود ذوي القدر
فقد ضاعت الأعمار في الذل والأسر
لعلم و آداب وذخر من الأجر

و يقول في الثانية : (4)

أشبابنا مالي أرى في منامكم
و هذا لعمر الحق عار عليكم
فلا خير في نش إذا لم يكن له
أشبابنا عودوا لفخر جدودكم

سباتا يذيب القلب من صخر صوان
فقد ضاعت الأعمار في محض خسران
ولوع بآثار الجدود ذو الشان
لعلم و آداب و تصحيح إيـمان

(1) المرجع السابق نفسه ، ص 125

(2) صالح خرفي : الشعر الجزائري الحديث، ص، ص343، 342

(3) أمعشر فتیان الجزائر مالكم : قصيدة لأحمد بن يحيى الأكل ، النجاح ، ع 562 الأحد 5 رمضان 1346 / 26 مارس 1928 .

(4) محمد الهادي الزاهري ، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج 2 ، ص 207

نقرأ التكرار أيضا لدى الشاعرين محمد العلمي و ابن بشير الرابحي في البيتين التاليين .
يقول الأول :⁽¹⁾

العلم نور فلا تبغي به بدلا

الله أكبر كم في العلم من إرب

و يقول الثاني :⁽²⁾

نعم هو العلم لا تبغي به بدلا

هذا الذي كل من قد ناله سعـدا

ولعل من أسباب تشابه المعجم الشعري أيضا اتصال الشعراء المباشر بينهم ، أو اطلاعهم على أشعار بعضهم البعض عن طريق الصحافة أو بوسائل أخرى ساعدت في تفعيل عملية التأثير و التأثير و التقليد أحيانا فيما بينهم . كما زادت المناسبات الثقافية و الإجتماعية التي تشرف عليها الحركة الإصلاحية ، و التي يتصل فيها الشعراء من جهة أخرى بالجمهور اتصالا مباشرا من حدة استعمال الألفاظ الشائعة و المتداولة ، التي عكست تشابه الأفكار و المعاني و الإهتمامات⁽²⁾

أما من الناحية التقنية فقد تميزت لغة الشعر الإصلاحي عموما بالقوة و الجزالة و المتانة و العناية بالسبك و الحرص على سلامتها من الأخطاء بقدر المستطاع ، فابتعدت لغتهم عن الركافة التي تميزت بها لغة الشعراء قبل النهضة .

⁽¹⁾ العلم نور فلا تبغي به بدلا : قصيدة لمحمد العلمي ، النجاح ، ع 859 ، الخميس 7 رمضان 1348 / 6 فيفري 1930 .
⁽²⁾ العلم أساس النجاح : قصيدة لابن بشير الرابحي ، النجاح : ع 248 الجمعة 3 جمادي الأولى 1344 / 20 نوفمبر 1925 .
⁽²⁾ محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته و خصائصه الفنية 1925 – 1975 ، ص 294 .

3- البناء الفني:

لقد صمم الشعراء الجزائريون الإصلاحيون قصائدهم بالاعتماد و التركيز في بنائها على البيت المفرد، فهو القالب الوحيد الذي يعنيه و أنيتهم التي يفرغون فيها أفكارهم و آراءهم بحيث نجدهم يتبعون في نسجهم للقصيدة الجزئية التي تخطر على أذهانهم دون عناية بصلتها بالموضوع أو عدمه، و يطيلون أو يطنبون ما وانتهم الكلمات وما جالت في أذهانهم الأفكار فيجمعون في القصيدة الواحدة أغراضا كثيرة ومواضيع متعددة يصلح كل واحد منها أن يستقل بقصيدة لذاته⁽¹⁾ و قد ألغى هذا البناء عنصر الوحدة العضوية في القصيدة الإصلاحية .

و يعرف محمد غنيمي هلال الوحدة العضوية على ضوء ما عرفها به أرسطو بأنها وحدة الموضوع ، ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع ، و ما يستلزم ذلك من ترتيب في الصور و الأفكار ترتيبا تتقدم به القصيدة شيئا فشيئا حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار و الصور، على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية ، لكل جزء وظيفته فيها ، و يؤدي بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل في التفكير و المشاعر⁽²⁾ و معنى ذلك أن تترتب أفكار القصيدة ومعانيها و صورها و عباراتها و أبياتها وفق مسار تطوري متنام تفضي كل خطوة فيه إلى الخطوة التي تليها في خلق الموضوع المحوري الذي تتألف لأجله كل مكونات القصيدة. و تستلزم الوحدة العضوية حسب غنيمي هلال أن يفكر الشاعر تفكيراً طويلاً في منهج قصيدته وفي الأثر الذي يريد أن يحدثه في سامعيه ، و في الأجزاء التي تتدرج في إحداث هذا الأثر بحيث تتحرك بها القصيدة إلى الأمام لإحداث الأثر المقصود منها، عن طريق التتابع المنطقي و تسلسل الأحداث و الأفكار ووحدة الطابع⁽³⁾ و بذلك تصبح القصيدة لدى القارئ كأننا شعريا حيا ، يتبع نموه وحركاته ، و يتعامل معه كبنية كلية كاملة حية ، يؤدي فصل أي جزء منها أو انتزاعه إخلالا لتوازنها و نظامها العام و لسيرورتها الحياتية .

(1) عبد الله الركبيبي : الشعر الديني الجزائري الحديث ، ص 687 .

(2) محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، ص 395 .

(3) نفسه

وقد غاب هذا المقوم في القصيدة

الإصلاحية تماما كغيابه في القصيدة الجاهلية

(1) بحيث جاءت القصيدة الإصلاحية حشدا من الأفكار التي تنوعت بتنوع القضايا آنذاك. فأصابها بذلك مايسمى بالتفكك ، الذي مرده أن الشاعر الإصلاحى يتصور عالم الشعر من خلال البيت ولايتصوره من خلال القصيدة برمتها ، فهو يعيش في التراث يستقي منه و يعود إليه يستلهمه بل ويأخذ ما يشاء من التعابير و الصور و يضع أمامه تلك الأوزان التي حفظها عن ظهر قلب وأصبحت هي عالمه الذي يجول فيه ، يحده الوزن في البيت مند البداية والقافية في النهاية ويدور في حلقة ضيقة (2).

و يمكن أن ينطبق عليه و إلى حد كبير ماأشار إليه شكري محمد عياد بصدد الحديث عن هذه الظاهرة في الشعر العربي ، حين قال "... لكن الشاعر العربي في عالم ضيق كعالم البيت لم يستطع أن يجد مجالا واسعا حتى لهذا التفنن البلاغى الذي استنفذت صورته في وقت قصير و أن المرء ليدهش حين يجد حتى في الشعر الجاهلى نفسه كثيرا من التكرار لأساليب بعينها بل لأسطر كاملة . و قد ظل الشاعر العربى يدور فى هذا النطاق الضيق قرونا طويلة ، وكان فى محاولته المستمرة أن يصب خمرا جديدا فى الآنية القديمة ، يجد نفسه مضطرا لأن يحذف الكثير و يحول القصيدة إلى معان جزئية تفنقر إلى الوحدة ، و تتسم بالوضوح المسرف الذى يتطلبه اكتفاء البيت بنفسه " (3).

ولعل الطابع المناسبى الذى اتسمت به هذه القصائد هو الذى جعلها تتضمن من جهة أخرى ذلك الحشد من الأفكار وحال دون توفر عنصر الوحدة العضوية فى القصيدة؛ بحيث يحاول الشاعر وهو ينظم فى أو عن مناسبة ثقافية ما كافتتاح مدرسة مثلا أو ناد أو إنشاء صحيفة ... أن يلامس كل الأفكار التى تهم القارئ أو المتلقى الجزائرى، ويتطرق إلى كل المواضيع التى ترتبط بشكل أو بآخر بهذه المناسبة. و كأن هذه الأخيرة قد أعطته الفرصة ليقول كل ما يخطر بذهنه فى تلك اللحظة شريطة أن لا يخرج فى ذلك عن إطارها العام وعن طبيعتها و فحواها و أهدافها .

(1) المرجع السابق نفسه ، ص 396.

(2) عبد الله الركيبي : الشعر الدينى الجزائرى الحديث ، ص 688.

(3) شكري محمد عياد : موسيقى الشعر العربى ، ص 120 .

و مع ما يقال في شعر المناسبات من عيوب ، كأن يوصف مثلا بالجفاف أو البرودة فإنه يبدو لنا أن المناسبة أحيانا أو الظروف التاريخية و الإجتماعية التي ظهرت فيها هي التي تحدد قيمة القصيدة. فإذا نظرنا إلى الظروف الإجتماعية و الثقافية التي كانت تمر بها البلاد فإن بناء مدرسة أو افتتاحها أو افتتاح نادي ثقافي أو جمعية فكرية أو إنشاء صحيفة يعد مناسبة عظيمة وحدثا تاريخيا هاما يحدد من جهته أهمية القصيدة التي تشيد به أو تسجله أو تتغنى به. بل وأحيانا تتلاشى المناسبة كلية في القصيدة لتظهر مشاعر الحمية و الحماس و الإستهاض و تُظهر التأثير العميق للشاعر بهذه المناسبة و الإستجابة العفوية لها.

و رغم أن غياب عنصر الوحدة العضوية اتسمت به كل من القصيدة الجاهلية العربية و القصيدة الإصلاحية الجزائرية، فإننا لا نجزم أن تعدد المواضيع في هذه الأخيرة جاء صدئ و انعكاسا لظاهرة تعدد الأغراض في القصيدة الواحدة المعروفة في الشعر الجاهلي لأن المواضيع المطروحة لم تكن ذات المواضيع ، كذلك اختلفت الظروف و الأهداف ووظيفة الشعر في البيئة الجزائرية آنذاك عنها في البيئة الجاهلية. لكن من الشعراء و حتى في غمرة الموضوع الإصلاحية من تغزل ووقف على الأطلال و افتخر ، فتظهر بكل وضوح مثلا المقدمة الغزلية في قصيدة الشاعر أحمد بن عبد الرحمن التي يستهلها بقوله : (1)

ومهاة أقبلت مائسة رشقتني بابتسام و حور
كما نقرأ أيضا الوقوف على الأطلال في قصيدة الطيب العقبي حين يقول : (2)
وقف بنا نندب الأطلال بعدهم فالشعب قرّ بما أبقوا له عينا
ذاك الثرات و هذا الفيئ مقتسم ومجدهم صار أمرا ليس يعنينا

على أن موضوع الغزل و طبيعة الطلل لم يكن نفسه في الشعر الجزائري الإصلاحية، فالشاعر يتغزل بالوطن أو بالعلم و يبكي مخلفات الأجداد و آثارهم في الميادين الفكرية و العلمية و الثقافية و يفتخر بتاريخه المجيد و ماضيه المشرق ... و مواضيع القصيدة و أفكارها عموما تدور حول القضايا الراهنة و مشاكل المجتمع المعاصرة، و تجسد الصراعات الفكرية الثقافية التي كانت تتجاذب و تصطدم في البيئة الثقافية، و البعيدة كل البعد عن بيئة الشعر الجاهلي .

(1) العلم العلم :قصيدة لأحمد بن عبد الرحمن ، النجاح : ع 534 ، الجمعة 28 جمادي الثانية 1346 / 23 ديسمبر 1926 .
(2) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 1 ، ص 13 .

لقد عكس غياب الوحدة العضوية في القصيدة بلبله الأفكار و الآراء و تشاخصها في

المجتمع الجزائري و في ذهن الشاعر ، بحيث كانت تدفعه هذه البلبله إلى الرغبة في طرحها جميعا حين تلهمه القريحة في قول الشعر. لكن الملاحظ أن أغلب هذه الأفكار كانت تنتهي بالدعاء ، كقول الطيب العقبي في قصيدة ردّ التحية فرض: (1)

تحبي الجزائر في عيش منعمة في ظل (دولتنا) آمينا آمينا*

أو بخاتمة ذات طابع ديني عموما كالصلاة على الرسول (ص) في قول ابن يشير الرابحي (2)

ثم الصلاة على الرسول ما سنحت لمرشد فرصة يبغي لها سدا

وهي خاتمة تعكس من جهة أخرى رواسب القصيدة الدينية الصوفية التي كانت متربعة على

عرش الأدب و الشعر الجزائري القديم طيلة الفترة التي سبقت النهضة، و عكست أيضا آثار

الإتجاه الديني على الفكر الإصلاحي و على الإنتاج الشعري الذي ارتبط به؛ حيث يرجع الشاعر

إلى رحاب الدين و ينتهي عنده مهما حلق بفكره بعيدا .

أما المقدمة أو افتتاحية القصيدة فعادة ما يحددها الشاعر بحسب موضوع القصيدة ومناسبتها

بحيث يجعلها توائم هذه المناسبة و تلفت انتباه المتلقي إلى موضوعها ، كقصيدة "رد التحية فرض"

للطيب العقبي التي نظمها في تحية صحيفة الجزائر والتي يستهلها بقوله (3)

حي "الجزائر" مادامت تحيينا وانهض بشعب قضى في جهله حيناً

أو قد تكون افتتاحية غزلية كما سبق و رأينا مع قصيدة أحمد عبد الرحمن " العلم العلم " (4)

ومهاة أقبلت مائسة رشقتني بابتسام و حور

أو يقترب فيها من العودة إلى رحاب المقدمة الطللية كقصيدة أحمد بن يحي الأكل "حنيبي إليها

و أنبني عليها " حيث يستهلها بمقاطع وصفية لمدينة الجزائر ويستعمل في ذلك أسماء المدينة

القديمة كقوله: (6)

أمزغنة ذات المفاخر والشان عليك سلام اله أنت وإخواني

فما أنت إلا جنة الخلد بهجة وهم فيك جمعا مثل حور وولدان

(1) المرجع السابق نفسه

* علق محمد الهادي الزاهري على هذا البيت قائلا : الدولة الحاكمة هي أمنا الحنون التي لواقفتنا آثارها فرنسا لظلمتنا العلوم و المعارف وناطحننا الجوزاء علوا في الحضارة و المدنية و العمران

(2) العلم أساس النجاح : قصيدة لابن بشير الرابحي ، النجاح ، ع 859 ، 7 رمضان 1348 هـ / 06 فيفري 1927

(3) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 1 ، ص 13

(4) العلم العلم : قصيدة لأحمد عبد الرحمن ، النجاح : ع 534 ، الجمعة 28 جمادي الثانية 1346 / 23 ديسمبر 1926 .

(6) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 2 ، ص 207

4-الصورة الشعرية

تعد الصياغة البلاغية العامل المميز لأي نص أدبي عن آخر و هي تمنح الشعر صفة الشاعرية و تضيف عليه لمسة الجمال في معانيه و ألفاظه و تراكيبه ، فعلى اعتبار أن التجربة الشعرية هي في أساسها تجربة لغة ⁽¹⁾ يتحقق إنتماء النص الأدبي إلى الشعر حين ينتقل الشاعر من الإستعمال العادي للغة إلى استعمال غير عادي ، يبتكر فيها دلالات جديدة ، و يؤلف معاني مبتكرة يقول محمد غنيمي هلال أن أولى مميزات الشعر هي استثمار خصائص اللغة بوصفها مادة بنائه... وذلك أن يعتمد الشاعر على ما في قوة التعبير من إحياء بالمعاني في لغته التصويرية الخاصة به ⁽²⁾ حيث يركز قسم كبير من هذه اللغة التصويرية على الجانب البلاغي واستخدام فنياته من مجاز وتشبيه و استعارة و بديع ... استخداما يزيد من تعميق المعنى، و يرفع نشوة الإمتاع ، و يقوي درجة الإقناع فيترك أثارا طيبة في المتلقي .

وقد تطورت هذه الصورة الشعرية في القصيدة الحدائثية و تجاوزت التشبيهات و الإستعارات والمحسنات اللفظية التي خلقت صورة متكاملة تتنامى بتوظيفها الرمز اللغوي و تمتد حدودها إلى أغوار النفس و خيالها الخبيء و الذي يقيم علائق بين الأشياء لها أشكالها اللامتناهية ⁽³⁾ و لسنا هنا بصدد رصد الدراسات القديمة و الحدائثية التي تناولت الشعر من جانبه البلاغي التصويري ، و لكننا سنحاول معرفة مقدرة الشاعر الجزائري الإصلاحى على خلق لغته التصويرية و ربطها بالموضوع ، و درجة مستواه الفني في توظيف وجوه البلاغة العربية وترجمة أفكاره و آرائه .

و أول ما يمكن الإشارة إليه عن الشعر الجزائري الإصلاحى عموما من هذه الزاوية، أنه وفي هذه المرحلة، يعيش بدايات انطلاقته إذا ما قورن بفترة الركود السابقة، و تمثلت أولى خطواته نحو التجديد في عملية تثبيت القدم ، و ذلك بالعودة إلى التراث و التركيز عليه و إشباع النفس

(1) سعيد الورقي : لغة الشعر الحديث مقوماتها الفنية و طاقتها الإبداعية ، ص 5 .

(2) محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، ص 409 .

(3) أمانة بلعلى : أثر الرمز في بنية القصيدة العربية المعاصرة، دراسة تطبيقية ، ص 6 ، نقلا عن رجاء عيد : لغة الشعر قراءة في الشعر العربي الحديث، ص92

والذهن و اللسان به ، و في ظل الظروف القاسية التي أصبح فيها تراث الأمة و مقوماتها هدفا من أهداف الإستعمار، بلغت شدة التركيز عليه لدى الشاعر درجة الإنغماس التام فيه و الإنحباس بين جدرانها و الخوف من تجاوزه حرصا و رغبة في الحفاظ عليه ، فحال ذلك دون استثماره و استغلاله و خلق لغة تصويرية تعبيرية جديدة أو مبتكرة .

امتزجت أيضا وظيفة الشعر بوظيفة الإصلاح لدى الشاعر في تلك الفترة ، فكان اهتمامه بأثر الشعر على المجتمع من الناحية الفكرية الموضوعية أكثر من اهتمامه بسماته الفنية و آثاره الجمالية ، و أصبح في هذه الفترة فن هدف بالدرجة الأولى لا فن إمتاع ، أي أن غايته تكمن فيما يقدمه من خدمة لصالح المجتمع ، وليست في ذاته ، و التركيز عليه كان باعتباره نشاطا موجهها إلى الجمهور ، و ليس باعتباره نشاطا موجهها إلى الطبيعة أو الذات. ⁽¹⁾ لذا كانت عناية الشاعر مركزة على اختيار المواضيع التي تشغل بال المجتمع آنذاك كقضية التعليم مثلا ، أكثر منها على اختيار الأسلوب و تقنية العبارة و كان الجمال جمال المضمون بالدرجة الأولى لا جمال الشكل ⁽²⁾

هذا بالإضافة إلى كون ثقافة الشاعر الجزائري في تلك الفترة تكاد تقتصر على الثقافة العربية و بشكل أخص على التراث العربي القديم، بدون محاولة الإستفادة من الثقافة الفرنسية والآداب الغربية، رغم الإحتكاك المباشر بينهما فوق أرض الجزائر. وهذا قد منع عملية التلاقح الفكري و التخصيب الفني للشاعر الجزائري في تلك الفترة . لهذه الأسباب جميعا و غيرها لن ننتظر من الشاعر الجزائري أن يقدم الكثير في الميدان البلاغي التصويري أو أن يأتي بالجديد المبتكر فيه. ثم إن موضوع الدعوة إلى العلم موضوع ينبع من العقل و يتوجه إليه أكثر مما يصدر من الوجدان أو العواطف أو يخاطبها ، لذلك كبحت طبيعة الموضوع العقلية جماح الخيال و قصت جناحيه ، فتميزت صور القصائد في هذا الموقف بالجفاف ، و أساليبه بالمباشرة و الوضوح و عدم المغالاة في استعمال المجاز .

(1) علي خدي : نقد الشعر مقارنة لأوليات النقد الجزائري الحديث ، ص 81 .

(2) نفسه

ومن جهة أخرى أنشئت هذه القصائد لتلقى على المنابر أمام الجماهير، فحين يؤلف الشاعر قصيدته، يكون ذهنه مشغولا بالجماهير التي تستمع إليه و تصفق له، لذلك يكاد يضعف أويختفي الإيحاء فيها. بل أن الشاعر و لظروف الفترة يصرخ ليستنهض الناس و يدعو إلى أفكاره بصوت جهير مسموع، لا يحتمل الهمس أو الإيماء لذلك كان شاعر دعوة لا شاعر همس وشاعر صراخ لا شاعر رمز (1) و قد لاحظ أحمد حسنين هيكل هذه السمة في الشعر المصري أيضا والتي تكاد تطبع كامل الشعر العربي في تلك الفترة من حياته، فترة الصراع مع الإستعمار في المنتصف الأول من القرن العشرين، يقول: " و قد جرت هذه الظاهرة، ظاهرة المناسبات والمحافل إلى ظاهرة فنية سيئة كذلك، و هي التأثير في أسلوب الشعر بما يلائم المحافل و مجامع الجماهير و مواقف خطبهم، فمن هنا كثر عن الشعراء المحافظين التعبير المباشر الذي يجعل الشعر أحيانا قريبا من النثر... " (2)

لكننا لا ننفي بهذا الطرح حضور الخيال في العمل الشعري في هذه القصائد أو نسوي بينها و بين المنظومات التعليمية مثلا، التي يغيب فيها الإحساس و الشعور كلية و ينعدم الخيال والمجاز، فقوة الإحساس بالحساس و الرغبة الجامحة في الإستنهاض، و الشعور بالمرارة والأسى أحيانا على أوضاع البلاد الثقافية، تجعل الشاعر يترجم أحاسيسه و يجسد أفكاره بخلق علاقات بين الصور الحسية و العقلية في شكل تشبيهات و استعارات... و لو أن مستوى الربط بين الصور لم يبلغ عندهم درجة العمق أو التنامي، أو يفك جماع الخيال ليسبح بعيدا عن المعطيات البسيطة أو الصور الجاهزة السطحية أحيانا، لكن الشاعر وظف بعض أساليب البيان العربي في تصوير بعض الحقائق أو تعرية بعض الأمور، لكي يزيد في إقناع المتلقي ويدفعه إلى الإستجابة لفحوى دعوته، ذلك أن عنصر الخيال وكما أجمع معظم النقاد والفلاسفة منذ عهد أرسطو، (3) أهم وسيلة في الإقناع و الإمتاع معا. في العمل الفني عموما والشعر على وجه الخصوص.

(1) عبد الله الركبيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، ص 697.

(2) نفسه. نقلا عن أحمد هيكل: تطور الأدب الحديث في مصر من أوائل القرن 19 إلى قيام الحرب الكبرى الثانية، ص 149.

(3) محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص، ص: 114، 115.

وقد انحصرت صور الشاعر الجزائري البيانية عموماً، و في موضوع الدعوة إلى العلم تنحصر في شكل تشبيه أو استعارة . و ما ورد منهما في القصائد لم يخرج في الحقيقة عن الأطر القديمة التي سطرها عبد القاهر الجرجاني وابن طباطبا العلوي وابن رشيق وغيرهم ، على أن التقيد بهذه الأطر أو استثمارها لم يكن بنفس المستوى البلاغي من التصوير و الإبداع الذي بلغه الشعراء العرب القدامى ، بل كانت درجة الخيال في التصوير لدى الشاعر الجزائري و على قلتها عادية جداً ، تقيم علائق مبسطة بين الصور والأشياء ، دون جنوح أو تعمق أو ابتكار . وحين ارتبط توظيف التشبيه و الاستعارة بحدي أو مفهومي "العلم" و " الجهل" كان بغرض تدعيم المعنى المراد و تقريب الفكرة أكثر فأكثر للمتلقي . كأن يصف الشاعر مزايا العلم أو أضرار الوقوع في مغبة الجهل ، أو يدعم إشادته بالناهضين و لومه للمتخلفين

و يتفاوت مستوى توظيفهما من شاعر إلى آخر و حتى لدى الشاعر الواحد في أبياته وقصائده فأحياناً يكون التصوير مؤدبياً إلى الغرض المقصود، و أحياناً يأتي متكافئاً سطحياً يكاد يقارب الحقيقة في مباشرته و تقريريته ، فإذا قرأنا مثلاً أبيات محمد العيد آل خليفة التي يقول فيها ⁽¹⁾ :

| | |
|--------------------------|---------------------------|
| الجهل أشبه بالغراب فماله | من منزل غير الخراب البلقع |
| الجهل غيم فوق أرضك ضارب | غطى على أحيائها و الأربع |

نجده يجمع في تشبيهه بين صورة "الجهل" و هي صورة عقلية، مرة بصورة "الغراب" و مرة بصورة "الغيم" و هما صورتان حسيتان. ⁽²⁾ وقد ربط صور التشبيه بوجه شبه قوي دعم التقارب بينهما؛ ففي الأول جمع بين الجهل و الغراب و كلاهما يشتركان في صفة الإنذار بالخراب والهلاك. فكما أن الغراب مقترن في تصور الناس و أساطيرهم بالسوداوية و الشؤم، يعد الجهل كذلك مؤشراً من مؤشرات هلاك الأمة المادي و المعنوي معا ، لا يحل بها إلا ويهد أركانها ويعيق نشاطها و حركيتها. أما غرض التشبيه فكان التنفير و تجسيد التحذير من أضرار الجهل؛ بحيث نجد الأثر الذي تحدثه صورة الغراب في النفوس من التخوف و التشاؤم و النفور أبلغ من لو أن الشاعر عرض عواقب الجهل و صرح بها .

(1) محمد العيد آل خليفة : الديوان ، ص 145 .

(2) أحمد مصطفى المراغي ، علوم البلاغة (البيان و المعاني و البديع) ، ص 228 .

والإستجابة لدعوة العلم (الصارخة) أمرٌ مفروضٌ على المجتمع الجزائري ليس عليه سوى أن يلبيه. يقول : (1)

إلى ما الرضى بالدون و العلم صارخ بنا نعتلي للعزّ مقعدا أسـياد
ومن الشعراء من يربط معاني العلم و الجهل بمعاني النور و اليقظة و النشاط و السبات و الظلام
و الموت...نقرأ ذلك في قول محمد الهادي الزاهي : (2)

أُنـبـقى كما تـبـقى الجـلامـيد هـمّـدا وكم من فتى سوء المغـبة أنـذرا
أو قـولـه : (3)

ما العلم للأوطان إلا روحه فبفقدته تضحي الديار لـودا

أبني الأولى عملوا ساروا في العلا كالشهب في أوج السماء صعودا

أو قول ابن بشير الراحي : " العلم نور فلا تبغي به بدلا " ... (4)

و في الحقيقة لم تأت هذه الصور و غيرها ، و على قلتها بالجديد المبتكر ، و لم تكن مميزة تميّز التصوير الفني في العمل الأدبي عموما و الشعري على وجه الخصوص ، بل ولم تعكس براعة حقيقية في التنسيق و التركيب ترقى إلى المستوى الذي بلغه التصوير الفني عند فحول شعراء العرب ، بل جاءت مبسطة متناولة مستمدة في معظمها من التراث لا تحيد عنه أو تستغله استغلالا مثمرا . ولكنها من جهة أخرى استطاعت إلى حدّ ما أن تنتهي إلى الغايات التي رسمها لها الشعراء ، في رفع مكانة العلم و إعلاء درجته ، و الحط من صفة الجهل و تعرية أضراره ، و استطاعت أيضا أن تخفف من حدة المباشرة و التقريرية التي فرضها الطابع الإصلاحية و تطلبها موضوع الدعوة إلى العلم .

(1) نهوضا بني أفريقيّا من سباتكم :قصيدة لمفدي زكريا ،النجاح ، ع 1357 ، الأربعاء 19 جمادي الأولى 1351 هـ / 21 سبتمبر 1932 .

(2) وماذا عسى تجدي الدموع :قصيدة لمحمد الهادي الزاهري ،الشهاب : ج 11 ، م 6 ، رجب 1349 / ديسمبر 1930 .

(3) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 1 ، ص ، ص : 195 ، 196 .

(4) العلم أساس النجاح :قصيدة لابن بشير الراحي ، النجاح ، ع 859 ، 7 رمضان 1348 هـ / 06 فيفري 1927 .

و إذا جاز لنا كما يقول أحد الدارسين ، أن نسمي البلاغة هندسة القول ، فحظ البديع من هذا الفن الهندسي النقش و التوشية و الزخرفة ، بحيث يجعل البناء آية من الجمال إذ استعمل عن قصد ، و كانت الطبيعة الخلاقة عضداً للأديب في عمله الأدبي. أما إذا غابت الطبيعة و أثر الأديب التكلف و التعمد جاءت الزخرفة كما متراماً بعضه فوق بعض ، توهي بفساد الذوق، و يفر منها الجمال نافريناً. (1) ولعل التطور الحاصل في مضمون و شكل القصيدة الجزائرية منذ النهضة قد دفع الشعراء إلى تحرير قصائدهم من ثقل التكلف اللفظي، الذي كان ميزة القصيدة الجزائرية القديمة ، و عنوان البراعة و السبك فيها والذكاء. و يمكن القول أنهم قد نجحوا في ذلك إلى حد كبير. لكن لا يزال بعض الشعراء مأخوذاً بسحر المحسنات اللفظية مفتوناً بنغمتها ووقعها على الأذن ، فاستخدموها لإضفاء بعض الجمال على لغتهم، على أن مستوى استخدامها يختلف من معنى إلى معنى ومن شاعر إلى شاعر .

ومن أمثلة ذلك: الطباقي في قول محمد السعيد الزاهري (2)

ولولا انتشار العلم و الجهل في الورى

لما كان مغلوباً ولا متغلب

و في قوله : (3)

و رأيت فيهم ذا الجهال لة سيداً و هم العبيد .

و نقرأ الجناس في قول أبي اليقظان : (4)

إلا الجزائر عذبت فاستعذبت و استغرقت نوماً بذا العصر الأنيق

.....

ماذي الجهالة والسفالة هل بها نيل السعادة و الهناء وما يروق

.....

ماذا التكاثر و التواكل و الونى ماهذه الغفلات و النوم العميق

أو في قول العلمي : " إن الحياة بلا علم و لا عمل " (5) ...

(1) أحمد مصطفى المراغي : علوم البلاغة البيان و المعاني و البديع ، ص 60 .

(2) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج1 ، ص 89 .

(3) نفسه ، ص 83 .

(4) أبو اليقظان : الديوان ، ص 92 .

(5) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج2، ص185

وقد جاء المستوى الفني لهذه المحسنات اللفظية مسايرا للمستوى الفني العام الذي تميزت به القصيدة الإصلاحية في جانبها البلاغي ، لم تتجاوزة إلى مستوى أرقى أو تأتي دونه لذلك ما يمكن أن يقال عن الخصائص الفنية لإستعمال البيان يقال عنالخصائص الفنية لاستعمال البديع .

ومحاولة من الشعراء التجديد و الهروب قليلا من رتابة الطابع الإصلاحى بمباشرة وتقريرته ونبرته الخطابية، اختار بعضهم معالجة القضايا الإصلاحية في قالب قصصي أو حوار شعري يجعل أسلوب القصيدة أكثر حياة و حركة و تشويقا. و قد سبق و لاحظ ذلك عبد الله الركيبي وأشار إلى أن الدافع وراء إدخال تقنية الحوار في القصيدة الإصلاحية أن المرحلة كانت مرحلة صراع بين قوى كثيرة و أفكار متضاربة و اتجاهات مختلفة ، و هذا يتطلب نوعا من الحوار أوعلى الأقل يفرض شيئا منه ... فإذا تحاور الشعراء بأن ينقد بعضهم بعضا و يرد بعضهم على بعض ، فإنهم أيضا يتحاورون حول قضايا حدثت في زمانهم أو أنهم اختاروا للتعبير عنها أسلوب الحوار القصصي ."⁽¹⁾ ومن القصائد التي اعتمدت هذا النوع من التعبير نذكر على سبيل المثال :
قصيدة " ألا من شباب " لأبي اليقضان التي يقول فيها⁽²⁾

قلت من هذا؟ فقالت أمكم قلت كيف الحال ؟ قالت في عذاب

وقصيدة " القنفذ و الناس " لأحمد بن كاتب الغزالي التي يقول فيها⁽³⁾

| | |
|-----------------|-----------------|
| سئل القنفذ عما | زجه في الإكتاب |
| حاط جثمانا بشوك | مدمنا للإنتقاب |
| فأماط اخدر شيئا | مسرعا رد الجواب |
| كل هذا لم يجرنى | من أذيات الكلاب |

و قد كان بعضهم متأثرا بالشعر القصصي الذي ظهر لدى شعراء النهضة من أمثال أحمد شوقي و إليا أبي ماضي، على أن القص لدى هؤلاء كان أوفى و أكمل في عناصره الفنية، و كان مستوفيا كل أجزاء القصيدة من بدايتها إلى نهايتها ، بينما ركز شعراء الجزائر على الوعظ

(1) عبد الله الركيبي : الشعر الديني الجزائري الحديث ، ص 689 .

(2) أبو اليقضان : الديوان، ص105

(3) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج1، ص167

والإرشاد لأنه في الحقيقة هو الهدف والغاية أكثر من عنايتهم بالسرد ذاته .لذا جاءت هذه القصائد تميل إلى الشعر الإصلاحى أكثر منها إلى الشعر القصصى .

5-التشكيل الموسيقي:

تعد الموسيقى في العمل الشعري من أهم المقومات التي يعتمد عليها الشعر. فمنشأ الشعر كما يذكر شكري محمد عياد مرتبط بالغناء، ومن ثم فإنهما يصدران عن منبع واحد و هو الشعور بالوزن و الإيقاع ⁽¹⁾ بل أن الشعر أساسا فن يقوم على حسن التأليف بين الكلمات و الأصوات والعبارات ذات الإيقاعات النغمية المنسجمة التي تكسبه طابعا مميزا يختلف به عن الكلام العادي والنثر الفني. معنى ذلك أن الوزن أو الإيقاع يكاد يكون العامل الفني الوحيد المميز للفن الشعري عن الفن النثري ، الذي قد يشترك معه في التصوير الفني البلاغي و التركيب اللغوي وفي الجانب المعنوي و الفكري ... وعلى هذا الأساس كانت تعريفات أغلب النقاد القدامى للشعر بأنه " الكلام الموزون المقفى "، ⁽²⁾ بالتركيز في تميزه على جانب الوزن و الإيقاع فيه رغم إدراكهم إدراكا تاما بما للشعر من ميزات و خصائص تتعلق بالموضوع و بالتصوير و بالخيال. ⁽³⁾ و تتميز القصيدة الجيدة في الحقيقة بنوعين من الموسيقى: داخلية و خارجية .

أ - تشكيل الموسيقى الخارجية :

تتألف الموسيقى الخارجية للقصيدة من تناغم الكلمات و العبارات وفق إيقاع ووزن معين يحدده الشاعر منذ البداية ، و تسير وفقه القصيدة إلى نهايتها . و يميز محمد غنيمي هلال بين مصطلحي الوزن و الإيقاع في موسيقى الشعر ، فيرى أن الإيقاع هو وحدة النغمة التي تتكرر على نحو ما في الكلام أو البيت ، أي توالي الحركات و السكّنات على نحو منتظم ، و تمثله التفعيلة. ⁽⁴⁾ أما الوزن فهو مجموع التفعيلات التي يتألف منها البيت. ⁽⁵⁾ و قد اهتدى الخليل بن أحمد الفراهيدي إلى عملية التمييز بين الأوزان و جمع التفعيلات و تنظيمها في بحور شعرية ميز خمسة عشرة بحرا هي : الكامل ، الطويل ، المديد ، الوافر ، البسيط ، الخفيف ، الرمل ، السريع المتقارب ، الهزج ، المضارع ، الرجز ، المقتضب ، المجتث ، المنسرح ، و زاده الأخفش بحرا

(1) شكري محمد عياد : موسيقى الشعر العربي ، ص 57 .

(2) يمكن أن نستثنى من هذا الحكم تعريفات ابن خلدون و الجاحظ و ابن رشيق و غيرهم ممن أشادوا في تعريفهم إلى النواحي الأخرى في الشعر أشار إلى ذلك محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث ... ص 189 .

(3) نفسه ، ص 189 .

(4) محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، ص 462 .

(5) نفسه ، ص 463 .

سماه المتدارك. و قد أفاد هذا التنظيم لموسيقى الشعر ، الشعراء و النقاد والأدباء إفادة عظيمة حيث كانت لهم مقياسا علميا يقيسون به صالح الشعر من فاسده ، وميزانا يبسر للشاعر الموهوب و غير الموهوب نظم الشعر ، و للقارئ قراءته قراءة صحيحة. وحتى القصيدة الحدائثية التي قامت لتجاوز هذه القواعد الخليلية لم تنشأ لتتخلى مطلقا عنها بل كانت لها بمثابة الأساس والجذور و القاعدة ، و منطلق كل التصورات الجديدة و التطورات الحاصلة .

وأول ما يقال عن الشعر الإصلاحى في هذا المجال أنه حافظ بشدة على بناء القصيدة العمودية و التزم التزاما شديدا بالأوزان و القافية و البحور الخليلية، ⁽¹⁾ و ذلك وقوفا على تسليمهم بماهية الشعر الفنية على أنه" الكلام الموزون المقفى " ، و جاء هذا الحفاظ على عمود الشعر صورة عن شدة التمسك و التقيد بالثرات وانعكاسا لانطواء الشعراء تحت جناح الإتجاه الإصلاحى الذى كرس فيهم هذا المنحى . لقد ألح الشعراء على ضرورة اتباع الأسس العروضية لعمود الشعر وضرورة محاكاة البناء الموسيقى للقصيدة العربية التقليدية ، و لم يكونوا يتصورون أن انقلابا في الوزن كهذا الذى مثله الشعر الحرّ باعتماده على التفعيلة الواحدة يمكن أن يقع في يوم من الأيام ⁽²⁾ فانظر إلى الشاعر أبي اليقظان وهو يسيطر الأسس التى يجب أن يتبعها الشاعر في عرض الشعر ، حيث يؤكد على ضرورة اختيار البحر المناسب و القافية (الروي) المناسبة ⁽³⁾ .

وقد شملت ظاهرة التقييد بالوزن و القافية الإنتاج الشعري و النقدي في المغرب العربي في هذه الفترة ، بحيث رأى بعضهم أن من واجبهم الدفاع عن الشعر العمودي أمام الشعر الحر الذى عده البعض تطرفا أو خروجا عن القاعدة و العرف. ⁽⁴⁾ وما يبرر موقفهم أن الفترة عموما هي فترة إحياء ، سواء بالنسبة للشعر الجزائرى أولنظيره في المغرب العربي ، و أي تجديد في الأدب عموما و الشعر على وجه الخصوص لن يكون صلب القواعد متين الركائز مالم يمر بهذه الفترة ، فترة تثبيت الأصول و القواعد وبخاصة بعد الضعف الذى شهده الأدب العربي - في الجزائر على وجه الخصوص - قبيل هذه الفترة ، فالعودة إذن إلى رحاب القصيدة العربية بأوزانها و قوافيها و بحورها الشعرية كان أمرا ضروريا في الشعر الجزائرى بعد عصر الضعف و الجمود .

(1) محمد ناصر : الشعر الجزائرى الحديث ... ، ص 191 .

(2) محمد مصايف : النقد الأدبى الحديث في المغرب العربي ، ص 67 .

(3) أبو اليقظان : الديوان، ص10

(4) محمد مصايف : النقد الأدبى الحديث في المغرب العربي ، ص : 137 وما بعدها .

* : البحور الشعرية :

تتركز دراستنا على موضوع "الدعوة إلى العلم في الشعر الجزائري الحديث" فقط، وقد صعب علينا استقراء جميع القصائد التي احتوت الموضوع لسببين ، أولاً عدم وجود قصائد تنفرد بهذا الموضوع وحده ، ثانياً لتناثره و احتواء أغلب الشعر الإصلاحي عليه و لو كان ذلك في بيت واحد. لذلك فإن دراستنا للجانب الموسيقي ستتركز فقط على النماذج التي اخترناها في تحليلنا الموضوع من جانبه الفكري الموضوعي. ويبدو أن الشاعر قد ركز على بناء قصائده وفق بعض البحور الخليلية دون أخرى ،هذا ما لاحظته محمد ناصر في دراسته الفنية للشعر الجزائري الحديث⁽¹⁾ وكان في ذلك أكثر من توسعا و شمولية⁽²⁾ .

وعليه فإن محمد ناصر يرى أن الشعراء الجزائريين و لاسيما في عهدي الإصلاح و الثورة كانوا يدورون حول بحور خليلية معروفة ، لا تخرج عن إطار البحور المستعملة من الشعراء في تلك الفترة في كامل الوطن العربي⁽³⁾ و تتوالى هذه البحور حسب النسب المؤوية التي أحصاها محمد ناصر كآتي : الكامل : 70,96 % - الخفيف : 64,96 % - الرمل : 59,77 % - البسيط : 46,71 % - الطويل : 40,25 % - المتقارب : 38,08 % - الوافر : 30,39 % - الرجز : 23,86 % - المجتث : 7,71 % - المتدارك : 2,60 % - الهزج : 2,55 % - السريع : 2,25 % - المنسرح : 0,64 % - المديد : 0,35 % - المقنضب : 0,00 % - و المضارع : 0,00 %⁽⁴⁾.

وحسب هذه النتيجة فإن ثمانية بحور هي التي كانت تستحوذ على اهتمامات الشعراء العموديين عموما ، وهي على التوالي : الكامل ، الخفيف ، الرمل ، البسيط ، الطويل ، المتقارب ، الوافر و الرجز ، أما في نماذجنا فإذا كان عدد القصائد التي جمعناها خمسون فإن توزيعها على البحور جاء كآتي :

(1) محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث ...، ص : 245 وما بعدها .

(2) قام بجمع و استقراء جميع الدواوين التي ظهرت ما بين 1925 - 1979 لاستنتاج ما استنتجته في ص : من 270 إلى 273 .

(3) نفسه ، ص 245 .

(4) نفسه ، ص 246 .

| عدد القصائد | البحر |
|----------------|-----------|
| 17- قصيدة | -الطويل |
| 08- قصائد | -البسيط |
| 08- قصائد | -الكامل |
| 03- قصائد | -الخفيف |
| 08- قصائد | -الرمل |
| 1- قصيدة واحدة | -المتقارب |
| -قصيدتان 2 | -الرجز |

وحسب هذه النتائج أيضا نلاحظ أن أربعة بحور هي الأكثر استعمالا في هذه النماذج وهي على التوالي : الطويل ، الكامل ، البسيط و الرمل ثم يأتي الخفيف و الرجز و المتقارب بنسب أقل و هي ذات البحور التي رأى محمد ناصر أن تركيز الشعراء الإصلاحيين عليها كان شديدا . ولعل السبب في التركيز عليها من طرف الشعراء يرجع إلى أن هذه البحور هي الأكثر شهرة واستعمالا في التراث الشعري العربي و الأكثر تناولا فيه ، ومن الطبيعي جدا أن تتربى نفس الشاعر الجزائري وحسه الإيقاعي على أكثر ما قرأه و اطلع عليه من الشعر. وأن تصقل موهبته الموسيقية على أكثر ما حفظه و تعودّ عليه ذهنه ، وبخاصة و أن الفترة هي فترة إحياء ومحاكاة للنماذج القديمة ، و ليست فترة للخلق و الإبداع .

و لم تكن ظاهرة استعمال البحور الخليلية الشائعة و المعروفة خاصة بالشعر الجزائري فحسب، بل كانت تميز معظم الشعر العربي الحديث أيضا ؛ حيث تشير نازك الملائكة إلى أن " من صفات الشاعر المعاصر أنه كسلان ، لا يحب أن يتعب نفسه و يكد ذهنه بإقامة وزن معقد

وقد زاده كسله هذا أن شعراء الجيل السابق مثل شوقي و حافظ ومطران و الزهاوي والرصافي و الكاظمي ... لم يستعملوا غير البحور المعروفة ، ومن تمّ سار في طريقهم وصنع صنيعهم" (1).

و يعد بحر الطويل أهم بحر نظم على وزنه الشعراء الإصلاحيون ، ومن القصائد التي جاءت على وزنه، قصيدة محمد اللقاني بن السائح " إلى الدين الحق ، إلى العلم الصحيح ، إلى الصحافة الحرة " و التي جاء فيها قوله : (2)

تعالوا إلى العلم الصحيح فإنه
تعالوا إلى نشر المعارف بينكم
يجدد في الأبناء نهضة بغداد
وكونوا على حياضها خير ورّاد

كذلك قصيدة مفدي زكريا نهوضا بني أفريقيا من سباتكم " و التي يقول فيها : (3)
كفى شرفا يا قوم بالعلم و انهضوا

وروا بعلم غلة الكبد الصادي

إلى ما الرضى بالدون و العلم صارخ
أو قصيدة أبي اليقظان " شمس العلوم " التي يقول فيها : (4)
هو العلم للأرواح كالماء منعشا

لأشياخنا كل لدى الكل سيان

فلا روح إذ لا علم ينعشه ولا
يرى شبح لا روح فيه كإنسان
ويبدو أن ثمة ارتباط بين اختيار البحر و موضوع القصيدة ، إذ يرى بعض الدارسين أن بعض الأوزان مثلا تتلاءم مع حالات الإنفعال الحاد و حالات الطرب ، و تتلائم أخرى مثلا مع حالات التأمل و الإستبطان الذاتي (5) وهي علاقة أشار إليها بعض النقاد القدامى أمثال أبي هلال العسكري في الصناعتين و حازم القرطاجني في منهج البلغاء و سراج الأدباء ، و أكدتها بعض

(1) محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث ... ، ص : 247 ، نقلا عن نازك الملائكة : شعر علي محمود طه ، ص 192 .

(2) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج1 ، ص : 46 .

(3) نهوضا بني أفريقيا من سباتكم قصيدة لمفدي زكريا ، النجاح ، ع 1357 ، 19 جمادي الأولى 1351 / 21 سبتمبر 1932 .

(4) أبو اليقظان : الديوان ، ص 88 .

(5) محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث ، ص، ص : 248 ، 249 .

الدراسات الحدائفة للإيقاع الشعري في ربطه بالمعنى. (1) و إن كانت هذه العلاقة مؤكدة لدى الكثيرين من دارسي الشعر في جانبه الموسيقي ، يبقى السبب الكامن وراء تركيز الشعراء وتعلقهم الشديد بالبحر الطويل ، هو تأثرهم بالتراث الشعري العربي الذي جاء ما يقرب من ثلثه الضخم على وزن هذا البحر (2) فاستحوذ بذلك على ثقافتهم و تمكن من نفوسهم، خاصة لدى أولئك الذين كانوا يتنفسون في جو كلاسيكي محض. (3)

و البسيط أيضا من البحور التي نالت حظا وافرا في شعر الشعراء الإصلاحيين عموما ومن القصائد التي نسخت على وزنه قصيدة ابن بشير الرابحي " العلم أساس النجاح " التي يقول فيها : (4)

أهل الجزائر إن العلم مـورده عذب فرات لمن مدّ إليه يـدا

و يعد هذا البحر - كالبحر الطويل - من أكثر البحور الشعرية طولا نظرا لكثرة مقاطعه لذلك فهو يساعد على النظم في الموضوعات ذات المواقف الجادة، و النظرة الصارمة و الطابع التأملي، والتي تتطلب بعضها الوقفة الطويلة و النظرة المتأنية كموضوعات النظر في الكون والحياة والناس و استخراج العبر و مواقف استنهاض الهمم و تحفيزها إلى العمل الوطني والقومي ... (5) بالإضافة إلى ما توحى به موسيقى هذا البحر من بساطة وطلاوة و أبهة و جلاله (6) فتكون أصلح للتأمل و النفس الطويل . و لا يستبعد محمد ناصر أن هذه المكانة التي احتلها البحر البسيط في الشعر الإصلاحى تعود إلى تأثير الشعراء بالشعر الدينى ، وبخاصة قصائد المديح والتصوف التي راجت في الجزائر بانتشار الثقافة السلفية التقليدية أواخر القرن التاسع عشر؛ حيث أصبح الشعراء ينظمون قصائدهم على بحر البردة الذي هو أصلا من البحر البسيط . (7)

(1) شكري محمد عباد : موسيقى الشعر العربي ، ص 149 و ما بعدها .
(2) يقول إبراهيم أنيس : " ... فإن البحر الطويل قد نظم منه ما يقرب من ثلث الشعر العربي ، و أنه الوزن الذي كان القدماء يؤثرونه على غيره ... " محمد ناصر الشعر الجزائري الحديث ... ، ص 252 .
(3) محمد ناصر الشعر الجزائري الحديث ... ، ص 252 .
(4) العلم أساس النجاح : قصيدة لابن بشير الرابحي ، النجاح ، ع 859 ، 7 رمضان 1348 هـ / 06 فيفري 1927
(5) محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث ... ، ص : 26 وما بعدها .
(6) حازم القرطاجني : نهج البلغاء و سراج الأدباء ، ص : 267 .
(7) محمد ناصر : محمد ناصر الشعر الجزائري الحديث ... ص ، ص : 262 ، 263 .

يصادفنا كذلك بحر الكامل الذي استحوذ على نسبة لا بأس بها من الشعر الإصلاحى ومن القصائد التي جاءت على وزنه قصيدة محمد الصالح خبشاس التي يتحدث فيها عن حال المرأة بالجزائر ، فيقول : (1)

أثرى أرى فتياتنا وسط المــــدا رس يرتشفن سلافة القــــراء
فهل الشريعة حرمت تعليمهمــــا يانخبة الأشياخ و الصلحاء

ويمتاز الكامل بإيقاع موسيقى هادئ رصين، و تفعيلاته بالجزالة و حسن الأطراد، (2) مما يجعله يتناسب أيضا و الموضوعات الجادة التي تحتاج إلى نفس طويل. كما سهل انتساب هذا البحر إلى البحور الصافية - بحيث تتكرر فيه تفعيلة متفاعلن ست مرات - على شعراء الجزائر النظم فيه دون عناء كبير أو مشقة . ضف إلى ذلك أن الطابع الجماهري الذي اتصفت به القصيدة الإصلاحية يتطلب من الشاعر نظم قصيدته وفق وزن يتميز بطول النفس و انسياب الموسيقى وتحمل الإطناب دون ملل من الإيقاع ، و ذلك ما يحققه بامتياز البحر الكامل. كذلك من دوافع شيوع هذا البحر في الشعر الإصلاحى الجزائري شيوعه في الشعر الإحيائي العربي ، بحيث أصبح " معبود الشعراء " يطرقة كل الناظمين. ولا يخفى على أحد مدى تأثير شعراء الجزائر بالشعراء الإحيائيين و محاكاتهم لنماذجهم سواء عن وعي أو عن غير وعي (3).

وقد ارتبط بحر الرمل فيها غالبا بالمواضيع الإصلاحية التي يلج فيها الشاعر إلى الفكرة الإصلاحية بقالب قصصي أو التي يعبر فيها عن الآمال الفردية و الجماعية أو التي يكثر فيها النجوى و الشكوى ... نظرا لخفته و خفة مقاطعه و تسارع تفعيلاته ، مما يجعله أنسب هذه المواقف من البحور الطويلة. بل ومن الشعراء من يجعل البحر أكثر سرعة و خفة ، فينظم شعره على مجزوءه ، مثال ذلك قصيدة أحمد بن كاتب الغزالي " القنفذ و الناس " التي ساق فيها قصة " القنفذ " فيصف من خلالها عصره ، عصر العلم و السرعة ، و يتأمل الحياة و يشيد بالعلم

(1) محمد الطمار : تاريخ الأدب العربي في الجزائر ، ص 347 .

(2) حازم القرطاجني : مناهج البلغاء و سراج الأبناء ، ص 207.

(3) محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث ، ص 248 وما بعدها .

يقول : (1)

نقطة الماء المهين سخرت كل الصعاب
وامتطت كل سريع وعلت كل الهضاب
أخضعت بالعلم سبعا ثم سبعا في حسابي

أما بحور **الرجز** و **الخفيف** و **المتقارب** و التي لم يكن حضورها قويا في نماذجنا بالمقارنة مع البحور السابقة ، فإنها في الحقيقة قلما ارتبطت بموضوعات إصلاحية بحتة ، لما تتصف به من خفة و من رشاقة (2) فيجعلها أصلح للإرتباط بالمواضيع الذاتية و الميول الوجدانية النفسية وبعض المواضيع القصصية ، لذلك كانت أوفر في الشعر الوجداني منها في الشعر الإصلاحية التقليدي .

*- خصائص القافية:

لم يكن الإلتزام بعمود الشعر العربي يختص بالوزن و الإيقاع و استعمال البحور الشائعة فحسب بل كان الإلتزام بالقافية و التقيد بها سمة من أهم سمات الشعر العمودي الجزائري في محاكاته للشعر العربي . و تعرف القافية بأنها آخر حرف في البيت إلى أول الساكن يليه مع المتحرك الذي قبله تلزم أبيات القصيدة جميعا و تنتهي بحرف يتكرر في كامل الأبيات يسمى الروي . و لها صلة قوية في تشكيل موسيقى القصيدة إذ يرى ابن رشيق في العمدة أن القافية شريكة الوزن في اختصاصها بالشعر ولا نسمي الشعر شعرا إلا إذا كان له وزن وقافية (3) .

و الشعر الجيد هو الذي تكون الكلمات في قوافيه ذات معان متصلة بموضوع القصيدة بحيث لا يشعر القارئ بأن البيت مجلوب من أجلها . و لا ينبغي أن يؤتى بها لتتمة البيت ، بل يكون معنى البيت مبنيا عليها بصورة لا يمكن الإستغناء عنها فيه لقيمتها الدلالية و الموسيقية معا . وتكون أيضا نهاية طبيعية في البيت لا يسد غيرها مسدها في كلمات البيت قبلها . و إذا درست

(1) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 1 ، ص 168 .

(2) محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث ... ص 248 وما بعدها

(3) محمد عبد المجيد الطويل : القافية دراسة في الدلالة ، ص 25

القافية من هذه الجوانب ظهر التباين في الشعر عموما قوة و ضعفا حتى لدى عباقرة الصياغة الشعرية (4).

وقد استطاع بعض الشعراء المطبوعين أمثال محمد العيد آل خليفة و محمد السعيد الزاهري و مفدي زكريا ... إلى حد ما أن يرقوا بمستوى استخدام القافية إلى هذه الشروط ، فلبت لديهم القيمة الدلالية و الفنية و الموسيقية معا ، مثل ذلك قصيدتي أحمد سحنون " إلى المعلم و" إلى التلميذ " والتي اعتمد فيهما الشاعر على كلمات ترتبط ارتباطا وثيقا بمعنى البيت و تشارك بصورة طبيعية في تأسيسه معنويا ، و في خلق و بناء الفكرة العامة للقصيدة و موضوعها الجوهرى و في إثرائها لفظا . كما شاركت أيضا في تأسيس موسيقى القصيدتين ، و انسابت في الوزن و الإيقاع بشكل مرسل ، لا يحس القارئ فيهما بعدا أو فصلا بين مقاطعها و مقاطع البيت ، فلنتأمل ذلك في قول الشاعر : (1)

هات من نشء الحمى خير عتاد وادّخره لغذٍ جند جهــــاد
هات نشء صالحا يلبي العــــلا و يفك الضاد من أسر الأعادي
هاته نشء قويا باســــلا إذ دجا خطب يكن أول فــــادي
أو قوله: (2)

لك في كل حشا نبــــع و داد يا رجاء الضاد يا زخر البــــلاد
شعبك الموثق لم يبق لــــه من عتاد فلتنكن خير عتــــاد

و الحق أنه ليست هناك قاعدة تربط حروف القافية و خاصة حرف الروي بموضوعات القصائد ، غير أنه لوحظ مثلا أن القاف تلائم الشدة و الحرب و الدال تلائم الفخر و الحماسة ... لكنه قول إجمالي إذا صح من باب التغليب فلا يصح من باب الإطلاق ، لأن هذه الأحرف تختلف في موسيقاها تبعا لحركتها ، و للحروف و الحركات قبلها (3) و من الشعراء الجزائريين من راعى جانب ربط القافية بموضوع القصيدة ، فساير اختياره لها و لحرف الروي فكرته و هدفه و وظيفة الشعر لديه و موضوع قصيدته ، فإذا تتبعنا مثلا قصيدة محمد الهادي الزاهري " وماذا عسى تجدي الدموع " لاحظنا أن ترتيب الأحرف و الحركات في قافيتها أدى إلى خلق موسيقى معينة

(4) محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث، ص، ص469، 470

(1) أحمد سحنون : الديوان ، ص 12 .

(2) نفسه ، ص 14 .

(3) شكري محمد عياد : موسيقى الشعر العربي ، ص 99

تتناسب وموضوع القصيدة ، ففي الكلمات مثلا أنذرا ، مشمرا ، مقمرا ، معبرا ... فتح الراء -
حرف الروي - على ألف المد ، وكان قبله حرفا متحركا جامدا مفتوحا في الغالب يسبقه سكون
جامد أيضا يكون بمثابة قوة دافعة للحرف الذي يليه ، فيقويه ، و يجعل هذا الترتيب في الحركات
واختيار أحرف القافية ذات نبرة عالية و طابع جهوري ، كما يجعل نطقها يستلزم فتح الفم ، و ذلك
يوائم الموقف الخطابي و الوقوف أمام الجماهير و الدعوة فيهم إلى العلم و النهضة ، و يؤثر
أيضا في القارئ فيجعله يشعر بالحماس و القوة على اعتبار أن القافية هي آخر انطباع يتركه
الشعر في المتلقي .

كما أدى فتح حرف الدال ، وهو حرف الروي في قصيدة " الفتاة الجزائرية " لمحمد

الهادي الزاهري أيضا الذي توسط حرفي مد الواو أو الياء ، والألف في الأخير: "أسودا"
"صنديدا" تمجيذا" ... إلى الشعور بالفخامة و بالجد والصرامة. و حرف العين و هو حرف الروي
في قصيدة محمد العيد آل خليفة "استوح شعرك" إلى الشعور بالإثارة و الصخب ، خاصة حين
أسكن الشاعر الحرف الذي يلي المتحرك قبله أي قبل حرف الروي ، فكان أكثر جلجلة و إثارة:
بلقع، و ادفع... من جهة أخرى عمد أغلب شعراء الإصلاح إلى تصريح مطالع قصائدهم ، نقرأ
ذلك مثلا في قصيدة محمد العيد " استوح شعراك " والتي مطلعها : (1)

استوح شعرك من حنايا الأضلع و استجل في القسمات حسن المطلع

أو في قصيدة محمد الهادي الزاهري " الفتاة الجزائري " و التي مطلعها : (2)

أخذت تمد إلى النهوض الجيدا لما رأت علم الأخامقعودا

و في ذلك تأكيدٌ أو لا على القافية و على إيقاعها وموسيقاها بتكرارها في الشطرين الأول

و الثاني من البيت الأول ، ومن جهة ثانية أدى تصريح المطالع إلى تصعيد الشعور بالفخامة

والصخب ، و إلى زيادة حجم الشدة و الصرامة و الجهورية... إلى غير ذلك من الأحاسيس

والإنطباعات التي تريد القصيدة الإصلاحية إحداثها في نفس المتلقي لاستنهاض الهمم و البعث

على العمل .

إلا أن هناك من الشعراء من ابتعدت قافيته عن تأدية هذه الأغراض جميعا فطوعت

تطويعا لإتباع حرف الروي ، و لزومه في كامل القصيدة لا أكثر ، وجاءت كلماتها و كأنها حشوا

(1) محمد العيد آل خليفة : الديوان ، ص 143 .

(2) محمد الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 1 ، ص 195 .

في القصيدة لا تُثري معنًى و لا تخدم دلالة إلا من بعيد . فإذا قرأنا مثلا هذه الأبيات لمحمد العلمي أمكننا إدراك ذلك بكل وضوح ، يقول الشاعر : (1)

شيدوا بعض صروح العلوم و اكتساب
فجمال العلم هديتي و سناء في رحاب
وظلام الجهل وهم و بلاء في ثياب

فلاحظ أن قوافي هذه الأبيات قد أقحمت إقحاما لاستكمال الوزن و لزوم الروي ، بحيث يحس القارئ وكأن الأبيات جلبت لأجل هذه القافية ، و يشعر إزاءها بالعناء و الثقل ، و يحس التباعد المعنوي بينها و بين معنى البيت الإجمالي ، بل و بينها و بين القصيدة عموما . و لتسهيل عملية رصد القافية ركز أغلب شعراء الإصلاح على استعمال القوافي الشائعة في الشعر القديم و أكثر حروف الروي شيوعا فيه أيضا أو في شعر النهضة المشرقية مثل الميم و اللام و الباء و الدال و النون و الراء ... و منهم من بلغ في ذلك درجة اقتباس القوافي الجاهزة من الشعر القديم، فوجد الشاعر محمد اللقاني بن السائح في قصيدته "إلى الشعب الجزائري" يقتبس القوافي من قصيدة ابن زيدون "أضحى التناهي" و ينقلها أحيانا حرفيا إلى قصيدته .مثل ذلك قوله في البيت التالي: (2)

الناس بالعلم شقوا الأرض و اخترقوا و نحن بالجهل لا يرجى تلاقينا

فقد جاءت القافية مقتبسة عن قول ابن زيدون: (3)

وقد نكون وما يخشى تفرقنا فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا

كذلك قول ابن السائح: (4)

حياتنا قط لا يرضى بها أحد و عيشنا صار زقوما و غسلينا

عن قول ابن زيدون: (5)

يا جنة الخلد أبدلنا ، بسدرتها و الكوثر العذب زقوما و غسلينا

و قد أدى الشعور بالملل من تكرار القوافي و لزوم الروي و عناء الإحساس بهذا القيد وثقله إلى الدعوة إلى تحرير القصيدة من كل هذه القيود لأنها لجام للشعور و الأفكار ، و إلى تطويرها

(1) من يجد بالمال ينجح: قصيدة لمحمد العلمي النجاح ، ع : 415 ، الجمعة 30 شعبان 1945 / 4 مارس 1927 .

(2) محمد الهادي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج1، ص165

(3) ابن زيدون ، الديوان ، ص 9

(4) محمد الهادي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج1، ص165

(5) ابن زيدون : الديوان ، ص10

إلى مجال أرحب يتسع لعواطفهم و مشاعرهم. بل ومنهم من خاض التجربة و لو في شكل مبسط ومستوى محدود . فالشاعر محمد اللقاني بن السائح يخرج بقصيدته " يا بلادي " إلى قالب الموشح باعتبار أن الموشح كان أول أشكال الثورة على نظام القصيدة التقليدي في الأوزان والقوافي (1) ليصب فيه أفكاره الوطنية و آراءه الإصلاحية في حوار تصوره قد جرى بينه وبين بلاده التي يرمز إليها بصورة الأم ، و هي أفكار لم يكن يتسع لها الموشح القديم. يقول الشاعر : (2)

| | |
|------------------------------|------------|
| يا ذوي الألباب يا أهل الحجى | و الصـالـح |
| وطنوا النفس لأسباب العـلا | و النـجـاح |
| وادفعوا الوطن المفدى المجتبى | بالـجـنـاح |
| واطلبوا ما ضاع حق طالبوه | في اعتـدال |
| أنا أهواك و مثلي في الهوى | لا يبالـي |
| صار جسمي من بتاريخ الجوى | كالـخـال |

و تمثل تجربة رمضان حمود أهم دعوة إلى تحرير الشعر من قيوده القديمة ، التي أصبحت لا تتلاءم و ظروف العصر و متطلباته الفكرية. و لا يتأسس التجديد عند رمضان حمود على الإعراس عن الشعر القديم إعراسا تاما بل يريد أن يتناول الشاعر السلسلة التي تربطنا بالأجداد فيزيبها بنار التبديل و التغيير و التفنن و يجعلها إناءً جميلاً، و يصب فيه من بنات أفكار خمرا حلالاً ، و يقدمه للشاربين عذبا زلالاً ، أي أن التجديد عنده ينحصر في التصرف بشجاعة في قالب القديم ، و الإتيان بأفكار خاصة تعبر عن شخصية الشاعر و منهجه في الحياة ، و خلق أسلوب جديد يتناسب مع ذلك كله . (3)

و قد خطى في ذلك خطوة جريئة و شجاعة في تلك الفترة المبكرة من عمر الشعر الجزائري ، تتمثل في نظم بعض القصائد على النهج الذي دعا إليه (4) حيث بناها على أساس مقطعي تتراوح القوافي في كل مقطوعة فيها بحسب نظام معين. فإذا قرأنا مثلاً قصيدته " دمعة حارة على الأمة و الشرف " وجدنا أن كل مقطوعة فيها تتكون من ثلاثة أبيات لكل منها قافيته

(1) محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، ص 471.

(2) محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 1 ، ص 56

(3) محمد مصاييف : النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي ، ص 95 .

(4) محمد ناصر الشعر الجزائري الحديث ... ، ص 199 و ما بعدها .

والفكري الذي بلغه هذا الشاعر بجعله أيضا أحد الرواد الأوائل في التجديد الشعري في العالم العربي .

و يبقى أن نشير إلى هذه أن القصائد - و غيرها - احتوت على العديد من الأخطاء العروضية سواء ما تعلق منها بالوزن أو القافية و لم يسلم من الوقوع في ذلك سوى القليل من الشعراء المتمرسين أمثال محمد العيد آل خليفة و مفدي زكريا و غيرهم ... (1) و لكن إذا ما قيس الإنتاج الشعري عموما بالظروف العصبية التي مرت بها الثقافة العربية في تلك الفترة يصبح الوقوع في تلك الأخطاء أمر يكاد يكون طبيعيا لشعراء الجزائر . حيث كان التشبع بالتراث الشعري وتشرب موسيقاه بدرجة تُصقل فيها الملكات و المواهب ، بل و كان تعلم العربية فقط أمرٌ من العسير نيله في ظل الإستعمار ، لذلك لم تتأسس الثقافة الشعرية لشعراء الجزائر في تلك الفترة على أسس متينة من القواعد العروضية ، و لم تتدرب أذهانهم على كثرة قراءة و سماع وتشرب الشعر العمودي الذي يراعي عادة الإيقاع الموسيقي مراعاةً معتبرةً.

ب- تشكيل الموسيقى الداخلية :

تنشأ هذه الموسيقى من براعة الشاعر في خلق التناسب بين الحروف و الكلمات في القصيدة ، و من طبيعة هذه الحروف و حركاتها ونظام الربط بين الجمل و الكلمات و بين المعاني و الأفكار و الحالة الشعورية وموضوع القصيدة ، و التنسيق بين ذلك كله بما يدفع إلى معايشة الموضوع و الإندماج فيه . لكن الشاعر الجزائري الإصلاحية خاصة ، و كما سبق و أشار عبد الله الركبي ، لم يهتم كثيرا بإنشاء الموسيقى الداخلية للقصيدة (2) قدر اهتمامه بمقومات الموسيقى الخارجية من وزن و إيقاع و قافية ، و لعل ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى خلو القصيدة الإصلاحية عموما ، و موقف الدعوة إلى العلم على وجه الخصوص ، من المشاعر الذاتية و الأحاسيس الفياضة و العواطف المناسبة ، و هي أهم العناصر التي تساعد على الشعور بالموسيقى الداخلية و تعمل على تشكيلها في القصيدة .

و يمكن إدراك ذلك من خلال قول محمد السعيد الزاهري حين رأى أن الشاعر من الإصلاحيين حين يحتاج إلى قول الشعر بقوله دون انفعال قوي فإذا احتجت أن أقول شيئا ليس قائما بنفسي حين القول ، جعلت أخيل لنفسى أنها متصفة بذاك الشيء و أنه معنى قائم بها و احتال على نفسي بكل حيلة أظنها تصور في ذهني صحة هذا التخيل حتى إذا امتلأت نفسي بهذا

(1) محمد ناصر الشعر الجزائري الحديث ... ، ص 203
(2) عبد الله الركبي : الشعر الديني الجزائري الحديث ، ص 689 .

المعنى و شعرت بهذا الشعور صيبت ذلك فيما اختاره من الألفاظ الملائمة ... (3) و معنى ذلك أن دوافع قول الشعر في الإتجاه الإصلاحي تفسر لنا أن الإنفعال في الشعر إنفعال مؤقت سواء لدى المنشئ أول لدى المتلقي، (1) و لا أهمية للأثر البعيد الذي يمكن أن تحدثه القصيدة في القارئ .

ولعل اللحظة التي تجمع الشاعر و المتلقي حين إلقاء القصيدة و ما يعترئها من حماس هي تفرض على الشاعر التفكير في كيفية إظهار الصخب و تقديم أفكاره بنبرة عالية جمهورية تبعث على الحماس ، فيؤدي ذلك إلى خلق نوع من الموسيقى الداخلية في القصيدة ، تكون ذات رنة صاخبة و وقع مجلجل تتلاءم مع الفكرة المطروحة و الموقف الخطابي ، و من مميزات استخدام هذه الموسيقى في النماذج التي جمعناها ما يلي :

* احتواء العديد من قوافي القصائد على ألف المدّ و ترتيبها بصورة تظهرها أكثر و تغلب نطقها على بقية لأحرف و الأصوات في الكلمة ، بحيث تجعله أهم صوت فيها ، و بذلك تنطق الكلمة وبحسب وجود ألف المدّ فيها ، بنبرة عالية و صوت جهير و ينعكس ذلك على القصيدة فتأتي صارخة صرخة الموضوع الإصلاحي أو القومي الذي تتناوله . نلاحظ في بعضها استعمال الحروف الحلقية التي تبتعد في طبيعتها و نطقها عن الهمس و الهدوء ، و تعمل على إحداث موسيقى مجلجلة بقلقلتها تبعث على الإثارة و تشد الإنتباه . فلنتأمل مثلا كلمات القوافي في قصيدة أبي اليقظان : " الحريق ، يحيق ، ، طليق ، حقيق ، العريق " و كلمات : اندلاع اطلاق ، مطاع القناع اقتلاع ... في قصيدة أحمد بن كاتب الغزالي " نحن و الغرب " أو كلمات بلقع، مستطلع المتقشع ، الأربع ، ... في قصيدة " استوح شعرك " لمحمد العيد آل خليفة .

* أحيانا يظهر في البيت كثرة استعمال حركات الشدة و السكون لى الأحرف الجامدة فأما الشدة فهي تعطي قوة للكلمة ، و أما السكون فيعد منها قويا كما يشير شكري محمد عياد ووظيفته في موسيقى الكلام تشبه وظيفة قرع الطبول في الأركسترا (2) وهما يمنحان قوة و صخبا في

(3) نفسه

(1) المرجع السابق نفسه .

(2) شكري محمد عياد: موسيقى الشعر العربي ، ص 130

البيت إذا استعملا بصورة مركزة . و لعل هاتين الحركتين هما اللذان أعطيا بقسط كبير

طابع القوة للبيتين التاليين في قصيدة محمد الهادي الزاهري .⁽³⁾

ألا هل اتخذنا ذروة العزّ منبرا و في مطلع العرفان للنشء مظهرا

انبقي كما تبقى الجلاميد همّدا وكم من فتى سوء المغبّة اندرا

أو في بيت أحمد كاتب الغزالي⁽³⁾

أكبّ على العلم عشاقه ولم نبرح الدهر نهوى القصاع

و في الواقع ليست هذه الخاصية الفنية لازمة في كامل أبيات القصيدة الإصلاحية بل أحيانا

تسترخي أبياتها مع الحركات و حروف المدّ خاصة حين يتعلق الأمر بالتعبير عن الأسى والشكوى

أو في موقف اللوم و التقرّيع بحيث تستدعي هذه التعبيرات نبرة حزينة مستعطفة تفرض نوعا من

الهدوء و الهمس أحيانا ، أو حين يحمل البيت معاني الوصف و الإشادة و الحكمة ما يتطلب التأنى

و التأمل.

* إن الطابع الخطابى الذي صبت فيه المواضيع الإصلاحية استلزم عن الشاعر استخدام

ما يلفت النظر و يشد الإنتباه، لذلك احتلت أدوات التنبيه و النداء مكانة بارزة في القصائد

الإصلاحية حيث تساعد هذه الأدوات يا ، ألا ،أيا، هلا ... على رفع الصوت و إعلاء النبرة

للجهر بالدعوة ، يمكن أن نلمس ذلك في قول محمد العيد آل خليفة :⁽¹⁾

يا معشر الطلاب هل من آخذ بالذكر أو متمسك بعصامه

فتشرفوا بالأخذ من آدابه و تعرفوا بحلاله و حرامه

أو قول أحمد بن كاتب الغزالي و هو يشيد بمظاهر الحضارة الغربية داعيا أبناء المجتمع إلى

اقتناء أثره⁽²⁾

أيا غرب أغربت في الإختراع و قربت للساكنين البقاع

ألا ليت شعري و يا ليتني أرى العلم دأبا و أبقى متاع

⁽³⁾ وماذا عسى تجدى الديموع : قصيدة لزهير الزاهري ، الشهاب، ج11، مجلد6، رجب1349/ديسمبر1930

⁽³⁾ محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج1، ص165

⁽¹⁾ محمد العيد آل خليفة : الديوان ، ص90 .

⁽²⁾ محمد الهادي الزاهري : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج1 ، ص165 .

* و قد أعطى الإستفهام الذي شاع استعماله في القصيدة الإصلاحية لأغراض

بلاغية متعددة موسيقى مميزة و تنغيمًا خاصًا للبيت الذي ورد فيه ، فهو يترك انطباعًا لدى المتلقي يدفعه إلى التفكير في فحوى السؤال ، وإلى الإنصياع لهدف الشاعر و الإستجابة التلقائية لدعوته ، و هو من الأساليب التي تشد الإنتباه و تبعث الإثارة و تخفف أحيانًا من طابع الجدّ و الصرامة التي تمتاز به القصيدة الإصلاحية .

* وكان حرف العطف " الواو " أهم رابط استعمله الشعراء للربط بين الجمل و الكلمات وذلك

لأنه أشد أدوات الربط مرونة ، فهي تعين الشاعر على تجميع أفكار مشتتة و تعدد الصفات والأمر للفكرة الواحدة و حشد الأسماء و المعاني ... لذلك فهي أكثر الأدوات استعمالًا بالنسبة للشاعر الإصلاحي الذي يهتم برصد أكبر عدد ممكن من الأفكار و المعاني و المواضيع في القصيدة الواحدة . ومن جهة ثانية تعمل هذه الأداة على إعادة تشكيل البناء التركيبي للجمل والحفاظ على وظائفها و حركات الكلمات الإعرابية، مما يساهم إلى حد كبير في الحفاظ على الوزن ولزومه في القصيدة وكذا الحفاظ على الحركة الإعرابية لحرف الروي ومن جهة ثالثة لا تحتل هذه الأداة مساحة صوتية كبيرة . فهي تحتل حركة واحدة ، ما يساوي في العروض : / أي أنها تقوم بكل تلك الأدوار الشكلية و المعنوية من دون تأثير كبير في وزن القصيدة أو إخلال بإيقاعها .

* أما بقية الروابط سواء ما تعلق منها بحروف الجرّ أو حروف العطف أو غيرها فأحيانًا يضعها الشاعر الإصلاحي في محلها من الكلام فتكون ضمن النسيج المعنوي و الإيقاعي للقصيدة و أحيانًا يختل هذا النسيج بوجودها فتتأى عن تشكيل المعنى اللازم أو اتباع الإيقاع المنتهج لأن الشاعر إزاء ذلك يغلب اهتمامه على جانب من جوانب صنع القصيدة دون غيره ، كأن يكون اهتمامه شديدًا بالفكرة و المضمون على حساب اللغة و الوزن ، أو يهتم بهذا الأخير على حساب خلق المعنى ...

الخاتمة

بهذه الخاتمة يكون البحث قد وصل إلى نهايته ، والتي خلص فيها إلى النتائج التالية :

*لقد مثلت الدعوة إلى العلم أحد أوجه ردود الفعل الجزائرية لسياسة الإستعمار في الميدان الثقافي ؛حيث كان لسياسة التجهيل التي مورست وبدرجة قصوى على المجتمع الجزائري حافظا على الدعوة والعمل والإعتماد على النفس لتلبية حاجات المجتمع الجزائري من الجانب الثقافي والتعليمي. وكان مخطط التغريب والفرنسة والتصير في البلاد منبها فاعلا أيضا إلى العناية بالمقومات الثقافية للشخصية الجزائرية في ميدان التعليم والحفاظ عليها من الطمس والمسح ،وذلك ما ترجمه الشعر وعبر عنه بصدق حين دعا إلى العلم وأصرّ عليه من منظور هذه الأسس والمقومات .

*يعد هذا الموضوع من جملة ما قارب بل وما وحد بين الشعر والهدف الإصلاحي والغاية الوطنية .فالقصيدة اعتبرت في تلك الفترة أداة من الأدوات والوسائل المنتهجة في الإصلاح التربوي تماما كالمدرسة والنادي والصحيفة ..لذا ابتعد الشعراء عن العناية فيها بالقيم الجمالية الفنية واكتفوا بالإهتمام بجانب المواضيع والأفكار التي تخدم الفكر الإصلاحي، مع العمل على إخراج القصيدة من حال الضعف والجمود الفني والركاكة في التعبير ،والعودة بها إلى متانتها وصحتها لغويا وفكريا، دون استثمار ذلك أو تطويرها إلى رحاب أوسع . لذلك فإن كفة الأفكار والمعنى ترجح على كفة المبنى في هذه القصائد ،وتغلب القيمة الموضوعاتية الفكرية والتاريخية على القيمة الفنية و الجمالية فيها ؛فإذا كان هذا الشعر قد قدم الكثير للمجتمع بطرحه لقضاياه ومشاكله الراهنة -ويأتي مشكل الجهل والأمية وتثبيت أركان الهوية في طليعة القضايا- فإنه في المقابل لم يقدم الكثير من الناحية الفنية والجمالية مثلما قد يكون منتظرا منه

*لكن تبقى هذه الخطوة في الشعر الجزائري الحديث ذات أهمية بالغة فكريا وجماليا،بل وخطوة لا بد منها في مسيرة تطور هذا الأدب والشعر بوجه خاص ،لأنها الحلقة التي ربطت الحاضر بالماضي ووصلت التراث بالعصر ومزجت الأصالة بالمعاصرة، فكانت نافذة مشرعة على

ويسير بخطى جريئة أحيانا وخجولة أحيانا

المستقبل استطاع الشعر أن يستمر بعدها

أخرى منطلقا نحو التجديد الفكري والفني

* وأخيرا كانت هذه النماذج وغيرها، ومن الجانبين الفكري والفني، مرآة صادقة عكست البيئة

الجزائرية بكل ظروفها التاريخية والاجتماعية والثقافية وما انتشر فيها من أفكار وآراء وما تتخبط

فيه من مأس وما تطمح إليه من آمال وغايات. ورغم أن البحث قد كشف بعض حيثيات تعاطي

موضوع العلم في الشعر فإن بعضا منها لا يزال يحتاج إلى الدراسة والبحث كملابسات حضوره

قبل فترة النهضة؛ وأهم التصورات التي ارتبط بها، أو مميزات الموضوع بعد فترة النهضة

بتغيراته وتطوراته، أو حضور الموضوع في الشعر الشعبي أو في الشعر الناطق بالفرنسية...

وبالجملة يبقى الشعر الجزائري الحديث بمواضيعه وأشكاله ومؤثراته التاريخية والاجتماعية مادة

خصبة عذراء لا تزال تحتاج إلى الكشف والدراسة، ونرجو أن نكون قد وفقنا بإعانة العلي القدير

على كشف هذا الجزء منه ومن تراثنا الشعري المخفي

فهرس المصادر و المراجع

1- القرآن

2- المصادر:

- 1- آل خليفة ،محمد العيد:الديوان.الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .الجزائر
 - 2- الزاهري ،محمد الهادي السنوسي :شعراء الجزائر في العصر الحاضر .ط1 .المطبعة التونسية. تونس . 1926. الجزء 1
 - 3- الزاهري ،محمد الهادي :شعراء الجزائر في العصر الحاضر .ط2 منقحة و مزيدة .إعداد وتقديم عبد الله حمادي.دار بهاء الدين للنشر و التوزيع.قسنطينة. 2007 الجزء 1 و 2
 - 4- سحنون ،أحمد: الديوان .الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .الجزائر
 - 5 - ابن العقون ، عبد للكريم :الديوان.الشركة الوطني للنشر و التوزيع .الجزائر. 1980. مركب مطبعة الرغاية
 - 6- أبو اليقظان،ابراهيم بن الحاج عيسى : الديوان. المطبعة العربية.الجزائر. 1931
 - 7 - النجاح:
- * عدد 228.الجمعة 7 صفر 1344/4سبتمبر 1925
- * 248 الجمعة 3 جمادى الأولى 1344 / 20 نوفمبر 1925
- * 258 .الجمعة جمادى الثانية 1344 / 8 ديسمبر 1525
- * 299 .الجمعة 8دي القعدة / 21 ماي 1926
- * 355 .الجمعة 8 ربيع الثاني 1345 / 15 أكتوبر 1926
- * 382 الجمعة 13 جمادى الثانية 1345 / 18ديسمبر 1926
- * 415 .الجمعة 30 شعبان 1345 / 4 مارس 1927
- * 450 الأحد 8 دي القعدة 1345 / ماي 1927
- * 534الأحد 25 جمادى الثانية 1346 / 23 ديسمبر 1927
- * 562الأحد 5 رمضان 1347 / 26سبتمبر 1928

- * 635 الأحد 23 ربيع الأول 1347 / 7 ديسمبر 1928
- * 641 الجمعة ربيع الثاني 1347 / 21 ديسمبر 1928
- * 859 الخميس 7 رمضان 1348 / 6 فيفري 1930
- * 1352 الجمعة 7 جمادى الأولى 1351 / 9 ديسمبر 1932
- * 1357 الأربعاء 19 جمادى الأولى 1351 / 21 سبتمبر 1932
- * 1358 الجمعة 21 جمادى الأولى 1351 / 23 سبتمبر 1932
- * 1368 الأربعاء 9 جمادى الثانية 1351 / 12 أكتوبر 1932

8- الشهاب :

- * عدد: 25. الخميس 20 شعبان 1345 / 24 فيفري 1927
- * الجزء الخامس. المجلد السادس. محرم 1349 / جوان 1930

9 - البصائر:

- * عدد: 101 الجمعة. 24 دي الحجة 1358 / 25 فيفري 1938

3- المراجع :

- 1 -الأبراهيمي،أحمد طالب : من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية. 1962-1972
ترجمة حنفي بن عيسى . الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.الجزائر.طبع
مطابع الشرق بيروت
- 2 -الأبراهيمي، محمد البشير : آثاره.ط1. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر
1398هـ-1878م .طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية .الجزء 1
- 3 -الأبراهيمي،محمد البشير:سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .ط2.
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر . 1981.
- 4 -أجرون ،شارل روبير :تاريخ الجزائر المعاصرة .ترجمة عيسى عصفور.منشورات
عويدات.بيروت
- 5 -أدونيس ،علي أحمد سعيد : مقدمة الشعر العربي .ط3. دار العودة بيروت.1979
- 6 -الأشرف، مصطفى: الجزائر الأمة و المجتمع .ترجمة حنفي بن عيسى.المؤسسة
الوطنية للكتاب .الجزائر . 1983 طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
- 7 -ابن باديس ، عبد الحميد:حياته وآثاره. ط1 .تفسير وشرح أحاديث وإعداد وتطبيق
عمار طالبي بالإشتراك مع الناشر . دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والطباعة
والتوزيع والنشر. الجزائر.1388-1967 المجلد الأول
- 8 -البياتي ،عادل جاسم :التجديد في لغة الشعراء الإحبابيين .المنظمة العربية للتربية
والثقافة و العلوم ،معهد البحوث والدراسات ، قسم البحوث و الدراسات الأدبية .
بغداد. 1404هـ -1984م .طبع مؤسسة الخليج للطباعة والنشر
- 9 تركي، رابح: التعليم القومي والشخصية الوطنية ،دراسة تربوية للشخصية الجزائرية
(1931-1956) .الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر . 1398هـ-1975م
- 10 -تركي ، رابح:الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر .ط4
المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر . 1985. طبع .المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية

- 11 جغلول، عبد القادر: الاستعمار و الصراعات الثقافية. ط1. ترجمة
سليم قسطون. دار الحداثة للطباعة والنشر الجزائر 1984
- 12 جوليان، شارل أندري: أفريقيا الشمالية تسير، القوميات الإسلامية و السيادة
الفرنسية. ترجمة المنجي سليم وآخرون. مراجعة فريد السوداني. الجزائر. الشركة
الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. تم الطبع بمطبعة الدار التونسية للنشر والتوزيع
شوال 1396هـ-1976م
- 13 الحفناوي، محمد أبو القاسم: تعريف الخلف برجال السلف. تقديم محمد رؤوف
القاسمي. من سلسلة العلوم الأنسانية (الأنيس) تحت إشراف علي الكنز. موفم للنشر
الجزائر. 1991 الجزء 1
- 14 حلوش، عبد القادر: سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر. ط1. دار الأمة للطباعة
والنشر. الجزائر. 1999
- 15 حمادي، عبد الله: أصوات من الأدب الجزائري الحديث. دار البعث. قسنطينة 2001
- 16 الخالدي، محمود: التفكير بداية الطريق إلى نهضة الأمة الإسلامية
دار المعارف. مصر.
- 17 خدري، علي: نقد الشعر مقارنة لأوليات النقد الجزائري الحديث. ديوان
المطبوعات الجامعية. الجزائر. 1998
- 18 خرفي، صالح: الجزائر الأصالة والثورية. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
الجزائر.
- 19 خرفي، صالح: الشعر الجزائري. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. طبع
مطابع الشوق بيروت
- 20 ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: المقدمة تاريخ العلامة ابن خلدون
مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت 1967 المجلد 1 ج1
- 21 خوجة، حمدان بن عثمان: المرأة. ط2. تقديم وتعريب محمد العربي الزبيري. الشركة
الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1982

- 22 تبوز، محمد علي :نهضة
الجزائر الحديثة وثورتها
المباركة. ط1. المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي . الجزائر 1391هـ-1976
الجزء 1 و2 و3
- 23 التّادوي، رشيد :رواد الإصلاح . ط1 . دار المغرب العربي . تونس 1973
- 24 التّركيبي، عبد الله : دراسات في الشعر الجزائري الحديث.الدار القومية للطباعة
والنشر . مصر
- 25 التّركيبي، عبد الله: الشعر الديني الجزائري الحديث . ط1. الشركة الوطنية للنشر
والتوزيع . الجزائر . 1401-1981 . طبع مطابع الشروق
- 26 التّزيري ،محمد العربي :مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة . ط2
الشركة الوطنية لنشر والتوزي . الجزائر . 1981
- 27 تزوزو ،عبد الحميد :نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر العاصرة(1830-
1900).المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر 1984
- 28 تزوزو ،عبد الحميد: الهجرة ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين
الحربين(1919-1939). المؤسسة الوطنية للكتاب.الجزائر . طبع المؤسسة الوطنية
للفنون المطبعية
- 29 ابن زيدون ،أبو الوليد أحمد بن عبد الله:الديوان .شرح وتحقيق كرم البستاني
داربيروت للطباعة والنشر.بيروت 1399هـ-1979م
- 30 سعد الله ،أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1945 . ط1.دار الغرب
الإسلامي . بيروت . 1998 . الجزء 3 و4 و8
- 31 سعد الله ،أبو القاسم :الحركة الوطنية الجزائرية من 1830 إلى 1900 . دار الغرب
الإسلامي . بيروت 1992 .المجلد 1 الجزء 1
- 32 -سعد الله ،أبو القاسم :الحركة الوطنية الجزائرية من 1900 إلى 1930 ط3. الشركة
الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية

- 33 سعد الله ،أبو القاسم: الحركة الوطنية الجزائرية من 1930 إلى 1945 المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم معهد البحوث و الدراسات العربية.بيروت الجزء 3
- 34 سعد الله ،أبو القاسم :دراسات في الأدب الجزائري الحديث. ط1..منشورات دار الآداب . بيروت .تشرين الثاني(نوفمبر) 1966
- 35 -سعد الله ،أبو القاسم:محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال . ط3 . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.الجزائر.1982
- 36 سعد الله ،أبو القاسم :محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث.ط2 مزيدة ومنقحة.دار المعارف .مصر 1975
- 37 ابن سمينة ،محمد :النهضة الأدبية الحديثة في الجزائر ،بدايتها -مؤثراتها -مراحلها .مطبعة الكاهنة.الجزائر .2003.
- 38 صاري الجيلالي و محفوظ قداش :المقاومة السياسية 1900-1945 الطريق الإصلاحية والطريق الثوري .ترجمة عبد القادر بن حراث . . المؤسسة الوطنية للكتاب.الجزائر 1987.المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية1987
- 39 بوصفصاف ،عبد الكريم : الفكر العربي الحديث والمعاصر ،محمد عبده و عبد الحميد بن باديس نموذجاً. دار الهدى عين مليلة
- 40 الصيد ،سليمان :نفح الأزهار عمّا في مدينة قسنطينة من الأخبار .ط1 .المطبعة الجزائرية للمجلات و الجرائد .الجزائر .1994
- 41 عبّاس ،فرحات :حرب الجزائر وثورتها أو الليل الاستعماري .نقله إلى العربية أبو بكر رحّال . مطبعة فضالة المغرب
- 42 العسلي ،بسّام : عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية.ط2. دار النفائس.بيروت . 1402هـ-1982م
- 43 ابن العقون ،عبد الرحمن :الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر الفترة الأولى 1920-1936 . المؤسسة الوطنية للكتاب.الجزائر 1984.المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية1984 الجزء 1

- 44 عياد، محمد شكري: موسيقى الشعر العرب (مشرع دراسة علمية). ط2. دار المعرفة القاهرة 1978. طبع بمطبعة دار النهضة الجديدة القاهرة
- 45 عبد القادر، حميد: فرحات عباس رجل الجمهورية . دار المعرفة . الجزائر. 2001
- 46 القرطاجني ،أبو الحسن حازم: مناهج البلغاء وسراج الأدباء .تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة . دار الكتب الشرقية .تونس 1966. طبع المطبعة الرسمية تونس .
- 47 نايث بلقاسم ،مولود قاسم :شخصية الجزائر الجزائر الدولية وهبتها العالمية قبل سنة 1830. ط1 . دار البعث . قسنطينة 1405هـ-1985م. الجزء 2
- 48 للمدني ،أحمد توفيق: كتاب الجزائر . ط2. المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984. طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
- 49 -المدني ،أحمد توفيق: هذه هي الجزائر .مكتبة النهضة المصرية مصر. دار الاتحاد العربي للطباعة
- 50 المرآغي ،أحمد مصطفى :علوم البلاغة ،البيان والمعاني والبديع . ط4. راجعه وأشرف على تصحيحه أبو الوفي مصطفى المرآغي . المكتبة المحمودية التجارية مصر
- 51 مصايف،محمد:النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي ،من أوائل العشرينات من هذا القرن إلى أوائل السبعينات .الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر. 1979
- 52 المودودي ،أبو الأعلى: نحن والحضارة الغربية. دار الشهاب للطباعة والنشر باتنة. طبع بمطابع أمزيان 1988
- 53 الميلي ،مبارك بن محمد:تاريخ الجزائر في القديم والحديث. تقديم وتصحيح محمد الميلي. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .الجزائر. 396هـ-1976م
- 54 ناصر،محمد: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939. الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1980
- 55 ناصر،محمد:الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية (1925-1975). ط1. دار الغرب الإسلامي. دار الغرب الإسلامي 1985

- 56 ابن نبي ،مالك :شروط النهضة ،من سلسلة مشكلات الحضارة
ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي .مكتبة دار العروبة .القاهرة
1961طبع مطبعة المدني مصر
- 57 ابن نبي ،مالك:مذكرات شاهد القرن (الطفل) ،من سلسلة مشكلات الحضارة ط4
ترجمة مروان القنواطي . بيروت دار الفكر 1969
- 58 تسيب ،محمد :زوايا العلم والقرآن بالجزائر..دار الفكر دمشق .طبع مطبعة النخلة
الجزائر
- 59 نصري ،هاني يحيى :الفكر والوعي بين الجهل والوهم والجمال والحرية .ط1.
المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت 1418هـ-1998م
- 60 هلال، عمار :أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1962).ديوان
المطبوعات الجامعية .الجزائر 1995
- 61 هلال ،محمد غنيمي :النقد الأدبي الحديث . دار النهضة مصر للطباعة والنشر.
القاهرة .طبع مطبعة نهضة مصر 1973
- 62 الثورتلاني ،فضيل :الجزائر الثائرة .دار الهدى. عين مليلة
- 63 الثورقي، سعيد: لغة الشعر العربي الحديث ،مقوماتها وطاقاتها الإبداعية ط3. دار
النهضة العربية للطباعة والنشر. بيروت. 1404هـ-1984م

*المراجع بالأجنبية

1-AGERON. Charles robert : Histoire de l Algérie contemporaine
(de l insurrection de 1871 au déclenchement de la guerre de libération
1954) . Presse universitaire de la France .Paris 1979.Imprime en
France à Vendome impremerie des presses universitaires

2-DEPONT Octave et Xavier COPOLANI : Les confréries religieuses musulmanes. Typographie – Lithographie Adolphe Jourdan .Alger 1897

3- BEN HABILES Chérif : L Algérie française vue par un indigène Imprimerie orientale Fontana frères. Alger . 1913

4-GOYAU Georges :le cardinal Lavignerie un grand missionnaire . .Librairie Plon. Paris1925.

5 - HADROUG Mimouni : L Islam agresse. Entreprise nationale du livre. Alger .1990

6- IHADDADEN Zahir Histoire de la presse indigène en Algérie (des origines jusqu a 1930). Entreprise nationale du livre. Alger .1983.achever d imprimer sur les presse de l entreprise nationale des arts graphiques

7-LANASRI Ahmed Mouhamed oueld Cheikh un romancier algérien des années trente. Office des publications universitaires. Alger.

8-MERAD Ali Le réformisme musulmane en Algérie de 1925 a 1940 essais de l histoire religieuse et sociale. Mouton et Go. Paris.1967. imprimé en France imprimerie Firmin Didot Paris 1967

9-TOURNIER Jules La conquête religieuse de l Algérie. 1830-1845 . .Librairie Plon. Paris 1930

4-الدوريات :

1 الثقافة :

*-عدد 38 . 1977

*-عدد 49 . 1979

*-عدد 100 . 1987

*-عدد 101 . 1988

2-المجلة التاريخية المغربية

*-عدد 19-20 أكتوبر 1980

3-الرؤية

*عدد جانفي -فيفري 1996

4-الأصالة :

عدد17-18 . 1974

4-منشورات جامعة قسنطينة :الدولة الجزائرية بين الأمير عبد القادر والحاج احمد

باي,قسنطينة مارس 2002

فهرس الموضوعات

| | |
|----|--|
| 2 | المقدمة |
| 7 | تمهيد |
| | الفصل الأول : |
| 15 | المشهد الثقافي الجزائري ما بين 1920 - 1945 |
| 15 | I- سياسة التجهيل في الجزائر |
| 16 | 1- وسائلها |
| 16 | أ- الوسائل المادية |
| 16 | - مصادرة الأوقاف |
| 17 | - هدم المنشآت الثقافية |
| 19 | - الإستلاء على الكتب و المخطوطات |
| 20 | - اضطهاد العلماء |
| 22 | ب- الوسائل المعنوية لسياسة التجهيل |
| 22 | - محاربة اللغة العربية |
| 25 | - محاربة الإسلام |
| 28 | - تشويه التاريخ |
| 32 | II - المشروع التغريبي الفرنسي في الجزائر |
| 32 | 1 - التصير |
| 35 | 2- الفرنسية |
| 36 | - المدرسة الفرنسية في الجزائر |
| 36 | أ- إستراتيجيتها |
| 38 | ب- أهدافها |
| | 3- موقف الجزائريين من سياسة الإستعمار الفرنسي |
| 40 | في الميدان الثقافي |
| 40 | أ - موقف الجزائريين من سياسة الاحتلال اتجاه ثقافتهم الأصلية..... |
| 41 | * الكتاتيب و المدارس القرآنية |
| 41 | * التعليم المسجدي |
| 42 | * التعليم في الزوايا..... |
| 44 | * التعليم في البيوت |
| 45 | ب- موقف الجزائريين من المدرسة الفرنسية |
| | 4- انعكاسات سياسة الاحتلال في الميدان الثقافي |
| 47 | على الشعر |

الفصل الثاني

| | | |
|-----|--|----|
| 1 | - بداياتها..... | 51 |
| 2 | - أسبابها | 55 |
| أ- | الأسباب الداخلية..... | 55 |
| * | تردي الأوضاع الثقافية والفكرية..... | 55 |
| * | فشل المقاومة المسلحة | 56 |
| * | الاستعمار الفرنسي..... | 57 |
| ب- | الأسباب الخارجية | 60 |
| ب1- | العوامل و الأسباب العربية الإسلامية..... | 60 |
| | -انتشار أفكار جمال الدين الأفغاني | |
| | و تلاميذه من بعده | 61 |
| | -زيارة بعض المفكرين و المثقفين و المصلحين العرب إلى الجزائر..... | 62 |
| | -الرحلات | 63 |
| | -حركة الشباب التونسي | 64 |
| | -جهاد الأشقاء في ليبيا و المغرب | 64 |
| | -حركة الشباب التركي | 65 |
| ب2- | الأسباب و العوامل الغربية | 65 |
| • | الحرب العالمية الأولى | 66 |
| • | هجرة الجزائريين إلى فرنسا | 67 |
| 3- | مراحلها | 68 |
| أ- | المرحلة الأولى | 68 |
| ب- | المرحلة الثانية | 69 |
| ج- | المرحلة الثالثة | 69 |
| د- | المرحلة لرابعة | 70 |
| 4- | اهتمامها | 72 |
| أ- | التعليم | 72 |
| ب- | تأسيس النوادي و الجمعيات | 75 |
| ج - | الصحافة | 76 |
| د- | حركة التأليف | 79 |
| هـ- | العلماء | 82 |
| 5- | دور التعليم العربي الحر في تفعيل النهضة الفكرية الأدبية..... | 86 |
| 6- | دور الصحافة العربية في تفعيل النهضة الفكرية و الأدبية | 89 |
| | الفصل الثالث | |
| I. | موضوع العلم في الشعر الجزائري | 93 |
| 1 | مفهوم الشعر لدى شعراء النهضة | 93 |
| 2 | ارتباط الشعر بالحركة الإصلاحية | 95 |

| | | |
|-----|--|----------|
| 97 | مفهوم العلم في تصور الشاعر | الجزائري |
| 97 | أ- ربط العلم بالحضارة الغربية | |
| 102 | ب- ارتباط مفهوم العلم بالمقومات الأساسية للشخصية الوطنية | |
| 102 | ب1- الدعوة إلى تعلم الدين الإسلامي | |
| 105 | ب2- الدعوة إلى تعلم اللغة العربية و نشرها و تطورها | |
| 107 | ب3- الدعوة إلى دراسة تاريخ الأمة و إحياء تراثها | |
| 112 | ج- ارتباط الدعوة إلى العلم بالمدرسة | |
| 117 | د- ارتباط الدعوة إلى العلم بالدعوة إلى النهضة | |
| 119 | II. طرق الدعوة | |
| 119 | 1- الدعوة إلى العلم بطريقة مباشرة | |
| 123 | 2- الدعوة إلى العلم بأسلوب غير مباشر | |
| 123 | أ- المقارنة | |
| 126 | ب- التأمل | |
| 128 | ج- الإغراء و الترغيب | |
| 128 | د- السرد | |
| | الفصل الرابع: | |
| 134 | الدراسة الفنية | |
| 134 | الإتجاه الفني للقصيدة الإصلاحية | |
| 135 | 5- المعجم الشعري | |
| 145 | 6- البناء الفني | |
| 149 | 7- الصورة الشعرية | |
| 159 | 5- التشكيل الموسيقي | |
| 159 | أ- تشكيل الموسيقى الخارجية | |
| 161 | 1أ- البحور الشعرية | |
| 166 | 2أ- خصائص القافية | |
| 172 | ب- تشكيل الموسيقى الداخلية | |
| 176 | الخاتمة | |
| 178 | فهرس الصادر والمراجع | |
| 188 | فهرس الموضوعات | |
| 191 | الملخص بالعربية | |
| 192 | الملخص بالأجنبية | |

الملخص

يتناول البحث موضوع الدعوة إلى العلم في الشعر الجزائري الحديث في الفترة ما بين 1920-1945، فيطرح الظروف التاريخية التي أثرت على النتاج الشعري فكريا وفنيا وبلورت هدفه وأدت إلى رواج هذا الموضوع في الشعر، كما يحدد أيضا الأفكار والتصورات التي ارتبطت بمفهوم العلم في الشعر واقتترنت لدى الشاعر بالدعوة إليه، ويتناول أيضا دراسة فنية تعرض أهم المميزات والخصائص الفنية الشكلية التي ميزت هذا الشعر وطبعته

RE SUME :

Cette etude traite un sujet qui etait très abordé dans la poesie algerienne à l époque de la renaissace entre :1920et 1945 ; c etait celui de l appel à l instruction et à la culture , à la belligerance de l ignorance et de l analphabetisme repandue dans la societé algerienne à cause de la colonisation. Elle aborde la determination des circonstances historiques qui caracterisent de cette période, les notion qui se rapportent à la culture e t à l instruction dans le poème,et aussi les caracteristiques et les valeurs formels de celui ci